دراسات فى

تاريخ المغرب الإسلامى

الأحوال الجغرافية

الفتوح الإسلامية

قيام الإمارات والدول

الحضارة الفكرية

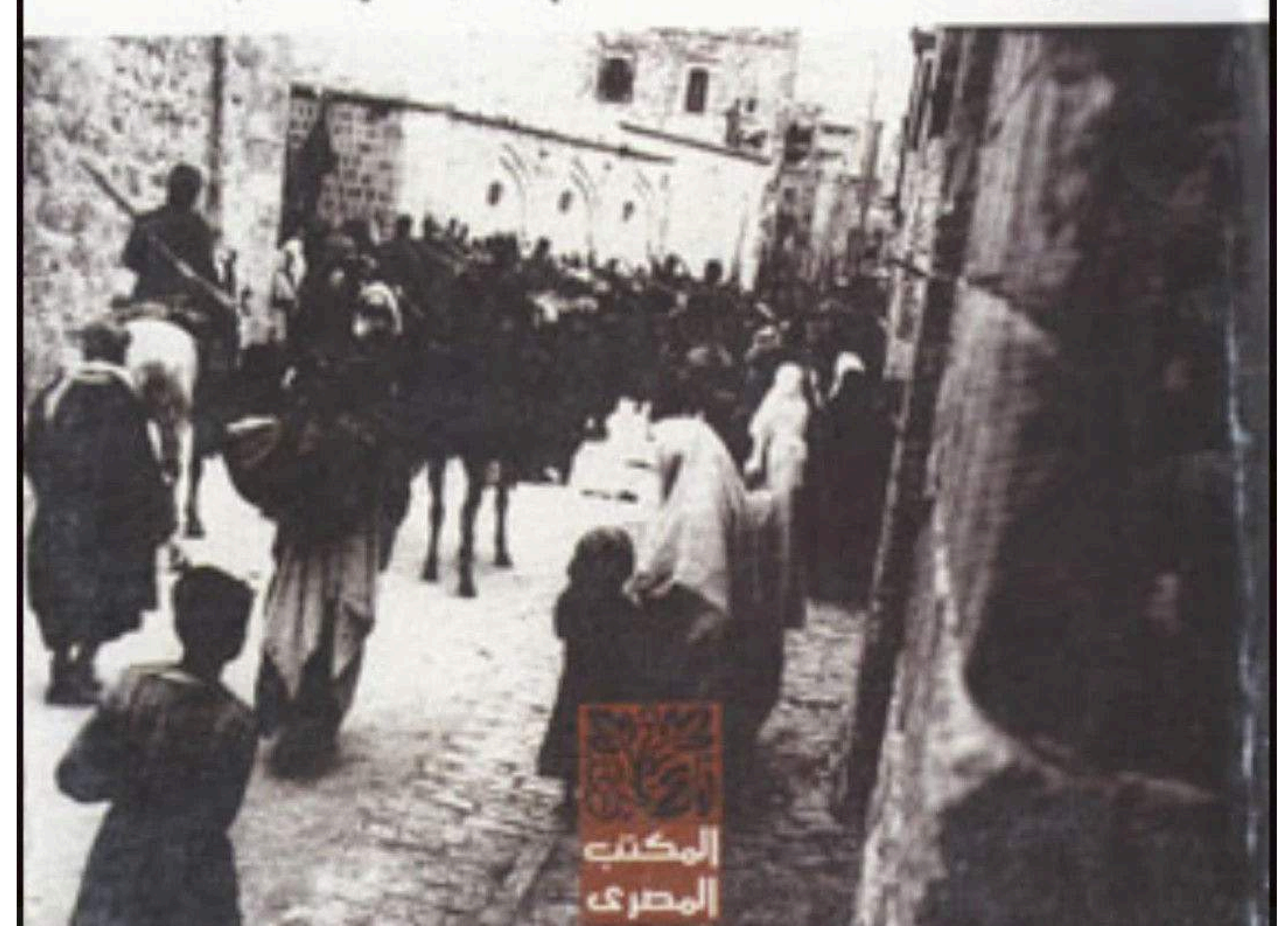
الأحوال السياسية

والاجتماعية والاقتصادية

تأليف

د/سوادى عبّد محمد

د/صالح عمّار الحاج



دراســات في

تــاريخ المغــرب الإســلامي

الأحول الجغرافية. الفتوح الإسلامية.

قيام الإمارات و الدول

الحضارة الفكرية.الأحوال السياسية

و الإجتماعية و الإقتصادية

تأليــــف

د/ سوادي عبد محمد د/صالح عمار الحاج

الناشر

المكتب المصري لتوزيع المطبوعات (طباعة. نشر. تصدير كتب)

دراسات في

تاريخ المغرب الإسلامي

الأصول الجغرافية.

الفتوح الإسلامية.

قيام الإمارات و الدول

الحضارة الفكرية.الأحوال السياسية

و الإجتماعية و الإقتصادية

تأليف

د/ سوادي عبّد محمّد د/صالح عمّار الحاج

رقم الإيداع:2004/2784

الترقيم الدولي .I.S.B.N

977-5841-79-7

الطبعة الأولى/2004

الناشر:المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات(طباعة. نشر. تصدير كتب)

الإدارة: (5 ش مصطفى طموم – المنيل – القاهرة

تليفاكس:3655487

الإهداء

إلى الوطن الليبى... تسرى...

شعلتان من المشرق متأججتان...إلى عروبة

الإسلام والعروبة

و الغبار تثيره... سنابك خيولنا

على أديم... حضارته العظمى

تقديم

إن خطة هذا الكتاب تقوم على دراسة تعالج حقبة مهمة من تاريخ المغرب الإسلامي، منذ الفتح العربي حتى سقوط الإمارات المحلية فى لربع الأخير من القرن الثامن الهجرى؛ و قد باركت لعمل على إنجاز هذه الدراسة الملخصة لتزويد مكتبتنا و باحثين ودارسينا و طلبتنا بأحوج ما يكونون لى لمزيد من الدراسات لتاريخ هذه البلاد لتى استعصت على الجبابرة والظالمين حين شرفه الإسلام و أصبحت جزءا لا يتجزأ من عالمه الذى بسط فى أكثر من ثلاثة أرباع العالم آنذاك.

و لا غرور، أن يلمس القارئ ، لجهود التى بذلت فى إعداد الكتب بما يضعه فى مصاف الكتب التى تصلح لتكون مراجع منهجية مساعدة و مقررة لدارسى التاريخ،والكتاب كذلك بمجمله دراسة موضوعية جامعية تنحو إلى التلخيص غير المخل بموضوعاته، نظرا" إلى توضيبه وتبسيط عروضه التاريخية و بالاستناد إلى مصادر وافية و متنوعة بما تحمل من نصوص و أصول أولية قديمة و ما أتبع فى جمع مادته العلمية و ترتيبها و تنسيقها على نحو مفيد و متكامل.

و الكتاب بأبوابه و فصوله وموضوعاته وشروحه السياسية و الاجتماعية والاقتصادية و الثقافية يقوم على أساس " الكلية **Totalite** " أى الدراسة الشاملة و فى وحدة فيها شيء من التماسك الموضوعى و الخلاصة التحليلية التى دأبت على أن يكون التركيب الاجتماعى الاقتصادى الأساس لكل تحليل تاريخى فيه ، وليس واجهة ظاهرة لتاريخ المغرب الإسلامى و فى هذا الإطار ، فإن الدراسة التاريخية التى عول عليها الكتاب فيما يتعلق بالأحداث السياسية و العسكرية ووقائعها تضع الأساس للتاريخ الحقيقى لهذه البلاد الذى كان يتمثل فى عصوره المزدهرة فى جميع نواحى الحضارة الفكرية و المادية،لذلك ليس لى الآن ءالا أن أحرض طلبتنا و أبنائنا إلى التزود على حقائق تاريخنا فى جانبه المشرق ويتدبروها و يدركوا مقاصدها لكى يسهل عليهم استلهامها لحاضرنا و مستقبلنا. و أغلب الظن، أن دعوتى لتوظيف كتاب "دراسات فى المغرب الإسلامى" لهذا الغرض سيساهم على إغناء طموحنا فى التوصل إلى استخلاصات مفيدة من الناحيتين النقدية و التحليلية

أ.د. صالح عمار الحاج

بين يدي القارئ

يصح القول، أن التاريخ، يحتل بين فروع المعرفة الإنسانية، مكانة متميزة،وتشغل المؤلفات التاريخية فيه نسبة كبيرة من الكتب والإصدارات في الشرق و الغرب على السواء ؛ و على الرغم من غلبة الاهتمام بالعلوم التكنولوجية والتطبيقية والطبية والرياضية والهندسية، على الاهتمام بما عداها،لاتزال المؤلفات التاريخية تحتل جانبا" ضخما" مما ينشر كل عام* ،حتى أننا يمكن أن نستلفت النظر إلى هذا العصر الذى هو:

" عصر العقلية التاريخية " مما يتعين علينا، أن تكون لنا رؤية حضارية من خلال دراستنا لتاريخنا العربى الإسلامى بعالميه المشرقى و الغربى.

وفى صفحات هذا الكتاب تتركز دراسة التجربة الإنسانية فى عالم بلاد المغرب، الذي هو قطعة من العالم القديم توطد فيها الإسلام بما حمل إلى أهلها من بناء اجتماعى ومن مثل أخلاقى ومن غنى وتنوع لا حد لهما فى العلم والسياسة والتنظيم الاجتماعي والاقتصادى، بحيث أصبح هذا الغنى والتنوع مادة للتاريخ تثرى الحاضر والمستقبل فى اعتبارها واستلهامها.

وغنى عن البيان، أن توزع المغرب الإسلامى إلى دول و إمارات وكيانات محلية مستقلة، كان مظهرا" من مظاهر التماسك والقوة اللتان أتاحتا ازدهار الحضارة الفكرية و المادية ووفرتا، الاستقرار السياسى والاجتماعي والاقتصادى، ولعلنا نجد ذلك أو شيء منه فى هذا الكتاب الذى سيكون عونا" لدارسينا و متخصصينا فى الدراسات التاريخية المغاربية.

وفى نهاية المطاف ندعو إخواننا و زملائنا الأساتذة و المهتمين،أن يقوموا الكتاب بآرائهم السديدة و توجيهاتهم الصائبة،كما نحث أبنائنا وإخواننا الطلبة و الدارسين أن يجتنوا أكبر قدر من الفائدة ، وأن تكون موضوعاته خطوطا" عامة

---

* و يضيف د/ حسين مؤنس، النوع الجديد من الكتب الذى يؤلفه نفر من أذكياء أهل الصحافة والأدب عن حوادث التاريخ الجارى Current History و رجاله. أنظر: المؤرخون، دراسة فى علم التاريخ ص 11.

لدراستهم وبحوثهم فى المستقبل ، مع تقديرنا لكل من تكون كلمته منصفة للحـــق ومبطلة للباطل، فيتبين مواضع القوة فى هذه الدراسة أو مواطن الضعف فيها،بنقد نزيه بناء يوم على الموضوعية والتجرد ويستهدف تعميق النظرة لتراثنا التاريخى والخروج منه بمفاهيم وآراء يمكن توظيفها لخدمة حاضرنا ومستقبلنا.

أ.د. سوادى عبد محمد

مدخل إلى المغرب الإسلامي

على مدى القرون الثلاثة التى سبقت دخول الإسلام إلى بلاد المغــرب كانــت الموجات الجرمانية المتبربرة ولاسيما الوندال والسواف و الألان قد وضعت هدفا" لها فى الوصول إلى هذه البلاد، نظرا" لثرواتها الوفيرة ولم تستطع الإمبراطوريــة الرومانية التى كانت تبسط هيمنتها عليها أن تصد هذه الســيول الجارفــة،غير أن الوندال انفردوا فى الظهور على السواحل الأفريقية ؛ ولكى يحكم هؤلاء سيطرتهم على المغرب نشروا الدمار والموت والخراب فى أكثر المدن والمراكــز الحضــرية فيه، وما لبــثوا بعد أن تمكنــوا من هذه المدن،أن اجتاحوا موريتانيــا الطنجيــة وطرابلس.

وفى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، استطاعت القبائل المغربيــة ســكان البلاد الأصليين،أن تثور ضد الوندال يدخل مقاتلوها قرطاجنة ثم راحوا يحــررون مدنهم الواحدة تلو الأخرى. ولكن هذه البلاد عادت لتقع هذه المــرة فــى قبضــة الإمبراطورية البيزنطية التى احتفظت حتى ســنة 21هــــ/642 م حيــث بــدأت المحاولات الأولى بقيادة عمرو بن العاص لتحريرها،ففى سنة 48هــ 647 م فتحت ليبيا وتونس ثم استكمل فتح شمال أفريقيا سنة 82 هــ/ 701م على يــد الفــاتح العربى عقبة بن نافع الذى أسس مدينة القيروان كقاعدة عسكرية ثم انطلق نحــو الغرب حتى وصل إلى شواطئ المحيط الأطلنطى ثم أعقبه بين سنتى 82 هــ/ 701 م و92 هــ/710م موسى بن نصير الذى أتم فتح ما تبقى من بلاد المغرب.

وهكذا ينبغى علينا أن نصف الأحداث التى توجت بدخول المسلمين إلى بــلاد المغرب،بأنها كانت إرهاصا" لولادة جديدة لهذه البلاد فى ظل الإسلام التى أنجبــت مولودها " المغرب الإسلامى ".

المقدمة

نطاق البحث – تحليل المصادر

يعرض هذا الكتاب .محاولة لدراسة التاريخ السياسي والاجتماعي و الاقتصادى لبلدان المغرب الإسلامى منذ الربع الأخير من القرن الثانى الهجرى حتـــى نهايـــة القرن العاشر،ويمكن للمتخصصين والمتتبعين أن يجنوا بعض الفائدة مما بذلناه فيه من جهد من حيث العرض والروح التحليليـــة والنقديـــة وتمحـــيص الروايـــات و استجلاء الحقبة التاريخية بالاستناد إلى المعلومات الموثقة بالنصوص والأصـــول المعتمدة إلى جانب التماس العروض الواضحة والمفيـــدة لموضـــوعاته وفصـــوله وإكسابها تبسيطاً لا يخل بعمق مادته العلمية.

ومع أن الحقبة التى تناولتها هذه الدراسة،استغرقت أكثر مـــن ثمانيـــة قـــرون استوعبت أحداثاً غير قليلة،يحتاج كل منها إلى تفصيلات خاصة،و لكـــن تحقيـــق الترابط الموضوعى اقتضى استعراض تاريخها من جوانبه السياسية و العســـكرية والحضارية بما فيها الأحوال الفكرية و الاجتماعية و الإقتصادية ، وباعتقادنـــا إن الدراسة على هذا الأسلوب ، تعين الباحث على تقديم صـــورة واضـــحة لمســـيرة التاريخ العربى الإسلامى وأحداثه ، وتساعد على استنتاجات مهمة للأسس التـــى ترتكز عليها الحضارة العربية الإسلامية . كما إن الموضوعات التى عنيت فصـــول هذه الكتاب باستيعابها و خصوصاً فيما يتعلق بالتـــاريخ السياســـى و العســـكرى، سيكون لهل تأثيراتها فى مجرى التاريخ الحضارى فى المغرب الإسلامى وستترتب عليها تطورات بعيدة المدى فى تاريخ العالم الإسلامى لذلك حاولنا جهدنا أن نطبق هذا المنهج ونعتمده، ولعل القارئ يلمس ذلك من خلال تتبعـــه لهـــذه الدراســـة و استيعابه لخطوطها العامة و سيتضح له أخيراً أنها تقدم معنى فيه بعض الوضوح للنظرة الشاملة للحقبة التاريخية.

يقوم الكتاب على ثلاثة أبواب رئيسية، و ينعقد فى كل باب منهـــا بعـــدد مـــن الفصول ، فالباب الأول الذى يُعنى (بالأحوال العامة فى بلاد المغرب) يضم ثلاثـــة

فصول أولهم فى خريطة بلاد المغرب بدراسة الحدود التى جاءت فى كتب الجغرافيين المسلمين و المناطق السهلية و الواحات و التقسيمات الإدارية والإقليمية والموارد المائية وفى سكان المغرب الإسلامى منهم العرب و القبائل المغربية ،وثانيهم الفتح الإسلامى لبلاد المغرب و يكرس هذا الفصل محاولات الفتح الأولى ثم الفتوح الإسلامية فى ليبيا و تونس و الجزائر، أما الأخير فيدرس عصر الولاة وخاصة ولاة المغرب فى العصر الأموى ، كما يعنى بتوضيح سياسة الانفصال فى المغرب الإسلامى .

وينتصب الباب الثانى (قيام الإمارات و الدول و أحوالها و علاقاتها السياسية و الإدارية) على ثمانية فصول، تتقدم فى الفصل الرابع منها دراسة إمارة بنى مدرار فى المغرب الأقصى، قيامها و تأسيس عاصمتها سجلماسة ثم علاقاتها السياسية بالخلافة العباسية و بالرستميين و الأدارسة، وفى الفصل الخامس بحث عن إمارة بنى رستم فى المغرب الأوسط و تتصدره محاولة عبد الأعلى بن السمح المعافرى لإقامة إمارته فى منطقة غربى طرابلس يُعرف باسم " الصياد " غير أن جهوده فشلت و لم تستطع الحركة الأباضية التى كان يتزعمها أن تصمد أمام الجيوش العباسية. و لكن عبد الرحمن بن رستم و هو أحد رجاله استطاع أن يؤسس إمارة .عُرفت بالإمارة الرستمية فى مدينة تاهرت التى شيدها و أصبحت قاعدة وعاصمة لإمارته. ويستكمل هذا الفصل بموضوع العلاقات السياسية بين الرستميين والأدارسة وأمويي الأندلس. إما إمارة الأدارسة فقد تخصص فيها الفصل السادس من حيث قيامها وبناء مدينة فاس حاضرةً لهم و علاقاتهم مع الخلفاء العباسيين التى تميزت بالطابع العدائى، و تضمن الفصل السابع دراسة عن إمارة الأغالبة فى المغرب الأدنى و اشتراطات الخلافة العباسية تنصيبهم و إقامة كيان لهم يكون حليفاً لها فى المنطقة و اتخاذهم القيروان عاصمة لهم و جهودهم العسكرية فى فتح جزيرة صقلية والتوقف عند علاقاتهم المتميزة بالخلفاء العباسيين.

أما قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب فقد تضمنها الفصل الثامن من حيث تصدره تمهيد عن الفاطميين و ظهورهم على مسرح التاريخ وسعيهم فى استكمال

قيام دولتهم بتأسيس مدينة المهدية و اتخاذها عاصمة و تطرق الفصل إلى علاقاتهم السياسية فى نطاق وجودهم فى المغرب الإسلامى و بخاصة مع دولة بنى العباس ،فشرح موقف العباسيين منهم و كذلك طبيعة المناوشات فيما بينهم حول جزيرة صقلية التى كانت تحت نفوذ الأغالبة ، و تطلعهم نحو البلاد المصرية و حملاتهم العسكرية التى توجت بانتقال دولتهم إليها. و تذيل هذا الفصل بالتحدث علاقات الفاطميين مع أمويى الأندلس. و فى الفصل التاسع من هذا الباب نقرأ دراسة عن دولة المرابطيين و أصلهم و تأسيسهم لمدينة مراكش التى أصبحت من أهم المراكز الحضارية فى المغرب الإسلامى وعلاقاتهم مع الخلافة العباسية التى تميزت بالإعتدال و التقارب ،و يلقى الفصل العاشر بعض الضوء على دولة الموحدين و تحول دعوتهم الدينية إلى حركة سياسية استهدفت إسقاط دولة المرابطيين و إقامة دولتهم على أنقاضها . كما شرح علاقات الموحدين بخلفاء بنى العباس حيث قطعوا الخطبة لهم و تلقبوا بلقب أمير المؤمنين و هو لقب الخلافة و لم يعترفوا بالتقليد والأعلام والشارات التى كانت ترسلها الخلافة لمن ينضوى تحت لوائها، و يهتم الفصل الحادى عشر بدراسة إمارة بنى مَرين التى خلفت الموحدين بعد أن قوضت دولتهم و كذلك مساهمتهم فى إنجاد أهل الأندلس من تعديات القشتاليين و الممالك الأسبانية الشمالية و دراسة الإمارات المحلية فى المغرب الإسلامى حيث أقتصر على إمارتى بنى عبد الواد و إمارة بنى حفص فضلاً عن الدور الذى كان يلعبه المغرب الإسلامى فى إحتضان العرب المسلمين المهاجرين من الأندلس بعد سقوط مملكة غرناطة.

واستوعب الباب الثالث الذى عقد لموضوع تلخيص حضارة المغرب الإسلامى فصليين، الفصل الثاني عشر منهما عن الحضارة الفكرية و الثقافية حيث أوضح اسهامات بنى رستم و بنى مدرار والأدارسة والأغالبة والفاطميين والمرابطيين و الموحديين و بنى مرين فى تشجيع العلم والمعرفة والأخذ بيد العلماء و الفقهاء و الشعراء و أصحاب الفكر والفلاسفة وإقامة المساجد والجوامع و دور العلم ومنشآته و المدارس والمكتبات وإحتواء الكتب و المجلدات و التصانيف وعقد المناظرات

العلمية حيث كان العلماء و المفكرون يتنافسون و يتناظرون و يتطارحون فى العلوم الدينية والعقلية واللغة والشعر و غيرها من صنوف المعرفة و الأدب .

أما الفصل الثالث عشر و الأخير فقد تعلق بـالنظم السياسـية والاجتماعيـة و الإقتصادية للإمارات و الدول التى احتواها المغرب الإسلامى فتحـدث عـن نظـام الوراثة فى الحكم و القوانين و الرسوم التى كانت تحكم سياستهم و إدراتهم طبقـاً لمبادئهم و مذاهبهم واتجاهاتهم و كذلك فيما يتعلق بالنواحى الإجتماعيـة داخـل حواضرهم وعواصمهم و مدنهم و مراكزهم و الوضع الإجتماعى لقبائل المغـرب الذى تشكل بعد قيام إماراتهم و دولهم و النفوذ الإجتماعى للفئات و العناصر التى كانت تدير النشاط الإقتصادى الذى كان يتمثل بالزراعة والصناعة والتجارة والنظام النقدى و السكة.

أما القول هنا، أن هذا الكتاب يقدم صورة ربما فيها من الوضوح مـا يسـاعد على الفهم الحضارى للتأثيرات التى تركها المغرب الإسلامى فى الجوانب الفكريـة والثقافية والعلمية في مجالات الحياة الإجتماعية والإقتصادية و فى جوانب الحضـارة الروحية والمادية التى اشادها المسلمون فى هذه المنطقة من العالم الإسلامي.

لقد تطلبت هذه الدراسة، الرجوع إلى مصادر و مراجع كثيرة ومتنوعة، عربية وغير عربية، مخطوطة ومنشورة، تاريخية وجغرافية، لغوية وأدبية، وموسوعات وقواميس وبيبليوغرافيات ومعاجم وفهارس وموارد وغيرها، ففى هذه المجموعات من الكتب مادة على قدر من الأهمية لموضـوعاتها، و خصوصـاً فيمـا يتعلـق بالأحوال و العلاقات السياسية والعسكرية، غير أن مهمتنا فيما يخص المسـاهمات و الجهود فى نطاق الحضارة الروحية والفكرية والمادية وفى النشاط الإجتماعى و الإقتصادى لبلدان المغرب الإسلامى و أهله، كانت صعبة، لأن المصادر التاريخيـة المعاصرة للحقبة التى نُعنى بدراستها قليلة ومنقودة و المعلومات فيما يتوفر منها مشتقة و موزعة بين هذه الكتب.

ولعل من أبرز المصادر التى استندنا عليها لتوثيق دراستنا و شكلت معلوماتها هيكلاً عاماً لبحوث الكتاب و فصوله يأتى فى مقدمتها، كتاب المالكي(المتوفى فـي

نهاية القرن الرابع الهجرى) الموسوم"رياض النفوس فى طبقات القيروان وأفريقية" وكتاب أبى عبيد البكرى(المتوفى فى 487 هـ) " المُغرب فى ذكر بلاد أفريقيةوالمغرب" وكتاب إبن عذارى (المتوفى فى695 هـ) "البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب " كما نقرأ فى كتاب القيروانى(المتوفى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى) " تاريخ أفريقية والمغرب " وكتاب محى الدين المراكشى(المتوفى فى 647هـ) " المعجب فى تلخيص أخبار المغرب " وكتاب إبن خلدون(المتوفى 808 هـ) " العبر وديوان المبتدا والخبر" و كتاب إبن أبى دينار(المتوفى1092 هـ) " المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس " وكتاب المقرى (المتوفى 1041هـ) "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " حقائق مكملة لمعلوماتنا عن بلاد المغرب الإسلامى. أما الشريف الأدريسى(المتوفى 558هـ)فى كتابه "صفة المغرب وأرض السودان" (وهو قطعة من كتاب نزهة المشتاق فى إختراق الآفاق)والمؤلف المجهول فى كتابه"الإستبصار فى عجائب الأمصار" وإبن شاهين الظاهرى (المتوفى 873هـ) "زبدة كشف الممالك و بيان الطرق والمسالك " والحميرى(المتوفى 960 هـ) فى كتابه "الروض المعطار فى خبر الأقطار" فإن هؤلاء المؤرخين يبرزون طبيعة بلاد المغرب وأفريقية من الناحيتين السياسية والإدارية. و تحدثت المصادر عن حواضر المغرب و مدنه وبخاصة مدينة فاس فقد ذكر إبن أبى زرع(المتوفى 720 هـ) فى مؤلفه المعنون "الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس" والجزنائى(المتوفى أواخر القرن الثامن الهجرى)فى كتابه "زهرة الآس فى بناء مدينة فاس" وكان لهذين المصدرين أهميتها فى إعداد دراسة مفيدة عن مدينة فاس التى كانت تمثل مركزاً حضارياً مهماً من مراكز المغرب. أما المصادر التى استقينا منها معلوماتنا عن تاريخ دول الخوارج فى المغرب الإسلامى فيتقدمها كتاب إبن الصغير المالكى (المتوفى فى نهاية القرن الثالث الهجرى) الموسوم "أخبار الأئمة الرسميين" وكتاب أبى زكريا(المتوفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) "السيرة وأخبار الأئمة "وكتاب الدرجينى(المتوفى منتصف القرن الرابع الهجرى) "طبقات

الإباضية"كما يقدم لنل كل من لسان الدين بن الخطيب(المتوفى 940 هـــ) ضـــمن كتابه "أعمال الأعلام "وهو مغربى،وابن الأثير(المتوفى 630هـ)فى كتابه "الكامـــل فى التاريخ " وهو من أهل المشرق، معلومات متفرقة عن أحـــداث مختلفـــة لهـــل مساس مباشر بأبواب الكتاب و فصوله.

ومن الكتب والمصنفات الجغرافية الإسلامية نقتبس معلوماتنا فى جغرافية بلاد المغرب، حدودها ومناطقها وتقسيماتها الإدارية و الإقليمية و سكانها و مواردها و على رأس هذه القائمة من الكتب، كتاب اليعقوبى(المتوفى 284هـــ) " البلـــدان " وكتاب إبن خرداذبه (المتوفى 300 هـ)" المسالك والممالك " وكتاب إبـــن حوقـــل (المتوفى367 هـ) "صورة الأرض " وكتاب المقدسى(المتوفى 375هـــ) "أحســـن التقاسيم فى معرفة الأقاليم " وكتاب ياقوت(المتوفى626 هـ) " معجـــم البلـــدان " وكتاب أبى(المتوفى732 هـ) " تقويم البلدان ".

أما الفصل الذى عقد لموضوع الفتح الإسلامى فى بلاد المغرب، فتوثقه كتـــب الفتوح و منها نذكر، كتابى إبن عبد الحكم(المتوفى276هـ) "فتوح مصر والمغرب" والآخر" فتوح أفريقية والأندلس"، وكتاب البلاذرى(المتوفى 279هـ) "فتوح البلدان" و ذلك ضمن المصادر التى إعتمدناها فى دراسة الفتوح الإسلامية فى ليبيا و فتوح البلاد التونسية(منطقة المغرب الأدنى) وفتوح الجزائر(منطقتى المغربين الأوســـط والأقصى).

وفى الدراسات الحديثة نجد بعض الآراء والتحليلات المفيدة لبحوثنا فى هـــذا الكتاب وخصوصاً لدى الكتور عبد العزيز سالم فى كتابه " المغرب الكبير" والدكتور الحبيب الجنحانى فى كتابه " المغرب الإسلامى "والدكتور محمود إسماعيل فى كتابه " الخوارج فى المغرب الإسلامى " وفى دراسة الدولة الفاطمية التى يُعـــد تاريخـــا مرحلة مهمة من تاريخ المغرب السياسى والإجتماعى و الحضارى، وكتب الدكتور حسن إبراهيم حسن، كتابه الموسوم "تاريخ الدولة الفاطمية " والـــدكتور موســـى لقبال وكتابه "دور كتامه فى تاريخ الدولة الفاطمية "حيـــث أوردا تمحيصـــاً دقيقـــاً للروايات و النصوص المتعلقة بهذا الجانب.

ونقرأ في كتاب المستشرق فاسيلي بارتلود المُعرب"تاريخ الحضارة الإسلامية "وكتاب المستشرق آدم متز المُعرب "الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى " معلومات عن الأنشطة الحضارية والمدنية للإمارات و الدول التى تقاسمت المغرب الإسلامى كما إننا وجدنا بعض الآراء المفيدة فىعدد من الكتب الأجنبية يمكن أن تعين فى إيضاح بعض المعلومات فى موضوعات مختلفة من بحثنا ومن هذه الكتب كتاب المستشرق مارسيه

Marcais .G."La Beris Musulane" et "Oriient aumagenage"وكتاب هيد

Heyed.W."Hostoire du Commerce du Levant au Mogen-age"وكتاب

بريسكوت W.Prescott History of Ferdinand and Isabella the catholic

ويجدر بنا قبل أن نفرغ من هذه المقدمة، أن نردد مع أنفسنا فى الأقل إننا بذلنا جهوداً غير قليلة فى تأليف هذا الكتاب و إعداده، ويمكن للقارئ أن يتلمس هذه الجهود من خلال تصفح الكتاب و استعراض أبوابه و فصوله بما يجعله يقتنع، إن اهتمامنا كان منصباً على السير نحو الهدف الذى كنا نسعى إليه، وهو تبيان الحقيقة و إظهارها بطريقة صحيحة و بأسلوب موضوعى و بمنهجية علمية، و الإبتعاد عن المبالغة فى وصف الماضى التى لا تجدى نفعاً، إذ إن معرفة هذا الماضى على حقيقته أقوم فى خدمة الإنسان المعاصر فى سعيه إلى غد مشرق وضاء. كما إن العرض التاريخى الذى اتسمت به مادة الكتاب، به من الوضوح والتميز، بحيث يتاح للمتخصص و المتتبع والقارئ، أن يستلهم تاريخ المغرب الإسلامى فى صفحاته المشرقة لحاضره و مستقبله.

ومهما يكن من أمر، فإنه ينبغى أن تحث موضوعات الكتاب، المتخصصين فى تاريخ المغرب والأندلس و القراء المتابعين و طلبتنا الأعزاء، على المزيد من الإطلاع على المصادر و المراجع المختلفة الأخرى التى لم يُتح لنا تناولها بغية الحصول على معلومات جديدة و لتحقيق التوثيق التاريخى و إجتناء أكبر قدر ممكن من الفائدة العلمية. ولكن يجب علينا أن لا نبالغ إلى الحد الذى يجعل من الصعوبات التى واجهتنا خلال العمل على إنجازه، عقبةً في إعداد بحث منهجى

يقوم على الموضوعية، فقد أمكن تخطى هذه الصعوبات، غير إنها هفوات سطحية لا تمس ما انتهينا إليه فى هذا البحث من نتائج على قدر من الأهمية التاريخية.

والله تعالى من وراء القصد،

الباب الأول

الأحوال العامة في بلاد المغرب

ثــلاثة فصــــول

الفصل الأول

جغرافية بلاد المغرب

1. حدود المغرب فى كتب الجغرافيين المسلمين
2. المناطق السهلية و الجبلية والواحات
3. التقسيمات الإدارية و الإقليمية
4. سكان المغرب الإسلامى
   أ. العرب
   ب. القبائل المغربية
5. الموارد المائية: الأنهار، الأمطار، العيون.

الفصل الأول

جغرافية بلاد المغرب

حدود المغرب فى كتب الجغرافيين المسلمين:

أصطلح على جميع البلاد التى تلى مصر غربا حتى المحيط الأطلسى بما فيها أفريقية الشمالية ، منذ أقدم العصور بأسماء مختلفة فكان الإغريق يسمون الجزء الشمالى منها الذى يسكنه العنصر الأبيض باسم " ليبو " أو " لوبيا "أو ليبيا فيما كانوا يسمون الصحراء ببلاد الأحباش السود. و لفظ أفريقية **Africa** أطلقه الرومان على الإقليم الذى يقابل اليوم الجزء الشمالىالشرقى من البلاد التونسية ،وهو يشتمل على قرطاجنة و ما حولها حتى نوميديا، وكان يعرف على عهد الرومان بولاية أفريقية القنصلية. الذى عُرب فيما بعد إلى كلمة أفريقية و قد أطلقه العرب فى بادئ الأمر على جميع بلاد المغرب فيما عدا طرابلس و برقة ثم اقتصر اسم أفريقية بعد ذلك على جميع البلدان التى تلى مصر غربا حتى بجاية و أطلق اسم المغرب على البلاد التى تلى بجاية غرباً حتى المحيط الأطلسى .

أن أصل كلمة أفريقية مشتق من كلمة أفرى **Aphri** التى أطلقها الفينيقيون على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون مدينتهم يوتكا **Utica** وعاصمتهم قرطاجنة ثم عممه اليونانيون على جميع سكان البلاد الذين يسكنون المغرب من حدود مصر الغربية إلى المحط الأطلسى .وقد أجمع المؤرخون و الجغرافيون العرب على أن بلاد المغرب تمتد من طرابلس شرقاً حتى المحيط الأطلسى غربا وإن من طرابلس إلى الشرق لا يدخل فى اصطلاح المغرب .

ومن الجدير بالذكر،أن الجغرافيين المسلمين تناولوا فى كتبهم وتآليفهم اصطلاح المغرب ، فيشير المؤرخون و الجغرافيون المغاربة ومنهم إبن عبد الحكم إلى أن المغرب هى البلاد التى تلى بجاية حتى بحر (الظلمات) المحيط الأطلسى [1]

---

[1] فتوح أفريقية والأندلسى ص34-42

ويحدد البكرى، أفريقية طولاً من برقة شرقاً إلى طنجة في المملكة المغربية غرباً[1]. أما الحدود التى رسمها ابن عذارى المراكشى لبلاد المغرب، فهى من تاهرت (عاصمة الرستميين) إلى مدينة سلا ويسميها بلاد طنجة و يدخل الأندلس فى هذا الإقليم [2]، ويذكر عبد الواحد المراكشى تحديدين لبلاد المغرب،الأول ويسميه أفريقية ويبدأ من إطابلس فى ليبيا شرقاً إلى قسطنطينية فى الجزائر غرباً،والثاني يسميه المغرب ويبدأ من قسطنطينية فى الجزائر شرقاً إلى مدينة طنجة غرباً [3]، ثم يقول: ما بعد قسطنطينية فهو من المغرب غير أفريقية [4]،ونجد في كتاب السلاوى تحديداً للمغرب ويبدأ من برقة فى ليبيا شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً بما فى ذلك إقليم طرابلس[5].

أما في كتب الجغرافيين المشارقة فهناك تعريفات مختلفة أحياناً، يذكر ابن حوقل،إن المغرب " من مصر وبرقة إلى أفريقية وناحية تنس إلى سبتة وطنجة "[6] ويجعل المقدسى حدود المغرب من مصر إلى السوس الأقصى وجزيرة صقلية و الأندلس "[7] أما ياقوت فيحدد أفريقية ويجعل ضمنها المغرب بقوله أفريقية إسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية و ينتهى آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس "، ثم يقول أيضاً: "وحد أفريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة و الأسكندرية إلى بجاية "[8].

---

(1) المغرب فى بلاد الأندلس و المغرب ص21.

(2) البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ج 1 ص5.

(3) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص .347-357.

(4) المصدر نفسه ص442

(5) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج1 ص33.

(6) صورة الأرض ص 062

(7) احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص216 .

(8) معجم البلدان ج1 ص228،229 .

المناطق السهلية و الجبلية و الواحات

ترتبط بلاد المغرب جغرافياً وأنثولوجياً بالإمتداد الطبيعي لجبال الأطلس المتفرعة من المجموعة الألبية التى تتوسط المغرب و تمتد من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق وذلك بسلسلتين:إحداهما شمالية وتسمى جبال الريف التى تمتد قريباً من السواحل الواقعة بين طنجة و مليلة، ثم جبال الأطلس التلى.وثانيتهما، جنوبية تمتد فى الصحراء الداخلية اعتبارا من جنوب وادى السوس عبر الصحراء إلى جبال أوراس وجبال زغوان التى تقع جنوبى تونس.إن سلسلة جبال الأطلس الشمالية، وهى السلسلة الأولى وتنقسم إلى مجموعتين: الأولى جبال الريف أو جبال أطلس الغربية وتظهر فيها جبال أطاس الساحل المتاخمة للنهاية الجنوبية الغربية لجبال سيرا نيفا و الإسبانية و يطلق عليها (جبال شلير)وهى قليلة الإرتفاع وأكثرها إرتفاعاً جبل بنى حسن الذى يبلغ إرتفاعه ما يقرب من ألفى متر،وتكون هذه الجبال شكلاً أقرب إلى القوس يحتضن الساحل الشمالى الممتد من سبتة إلى مليلة، ويترك سهلاً ضيقاً فى هذه المنطقة.أما المجموعة الثانية فهى جبال الأطلس التلى وهى سلسلة تمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى إستمراراً لجبال الريف الساحلية،وتمتاز هذه السلسلة بإرتفاعها وانحدارها الشديد نحو السواحل الشمالية وكذلك نحو أحواض الأنهار الجنوبية المنعزلة بين جبال الأطلس التلى وأطلس المتوسط وخصوصاً فى القسم الغربى من منطقة المغرب الأوسط . أما الجزء الشرقى من هذه المجموعة فأقل إرتفاعاً وأكثر تقطعاً ثم تستمر جبال الأطلس التلى

فى الإمتداد شرقاً حتى تنتهى بجبال خمير فى منطقة المغرب الأدنى.

أما السلسلة الثانية فهى جبال الأطلس الجنوبية أو الأطلس الصحراوى ويسميها إبن خلدون(جبال درن)[1] وتبدأ من منطقة المغرب الأقصى وتسمى جبال الأطلس الكبرى وهى أكثر جبال الأطلس إرتفاعاً، كما إنها عديمة الممرات، مما تركت تأثيرها فى منطقة المغرب الأقصى عن سائر بلاد المغرب، ونجد فى هذه السلسلة

---

[1] العبر وديوان المبتدا والخبر ج6 ص100.

(جبال القياشى)الذى يتراوح إرتفاعه بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف متر، ثم تستمر جبال الأطلس الكبرى بإمتدادها إلى المغرب الأوسط،وهى تشتمل على (جبال القصور)و(جبال العمور)و (جبال أولاد نابل) وجبال الزاب) و(جبال أوراس) وتنتهى بـ(جبال زغوان) فى المغرب الأدنى، و أغلب هذه الجبال تكسوها الغابات و تتوجها الثلوج. و يلاحظ أن الهضاب أو السهول المرتفعة تنحصر بين هاتين السلسلتين حيث يشتغل فيها السكان برعى الماشية، وإن أغلب هذه الهضاب تقع بين جبال الأطلس التلى و الأطلس الصحراوى فى المغرب الأوسط،كما تقع إلى شمال سلسلة جبال الأطلس الكبرى سلسلة جبال الأطلس الوسطى وتسمى أحياناً الأطلس الصغرى ولكن يغلب عليها طابع الهضاب أكثر من الطابع الجبلى وبخاصة فى الجنوب الغربى منها ، وتبدو واضحة المعالم فى حدودها الجنوبية الغربية حيث تشرف على سهل تادلا وكذلك حدودها الشرقية حيث يجرى هناك نهر ملوية، أما فى الشمال فيقع ممر تازة وهو المدخل الوحيد إلى منطقة المغرب الأقصى، ونتيجة لالتصاقها بجبال الأطلس الكبرى فانه من الصعب تمييزها عنها فى حدودها الجنوبية.

وتعد جبال الأطلس الوسطى، المصدر الدائم لمياه الأنهار والعيون ونلاحظ أن الهضاب المغربية تمتد بين جبال الأطلس الكبرى والوسطى حتى المحيط الأطلسى، ففى منطقة المغرب القصى توجد(هضبة المزيتا) وفى منطقة المغرب الوسط تمتد"هضبة الشطوط" التي تتميز ببحيراتها وبينها يقع ممر تازة .

أما المناطق السهلية فأغلبها يقع على ساحل المحيط الأطلسى و ساحل العدوة والبحر المتوسط، وفى ساحل البحر المتوسط تظهر السهول بمناطق محدودة وأشهر سهول المغرب الأقصى " سهل شاوية "و" سهل دكالة "و" سهل عبدة " أما سهولالمغرب الأدنى الساحلية فتكاد لا تذكر لضيقها وذلك بسبب إقتراب الجبال من الساحل التونسى .

وقد تكونت بعض السهول حول وديان صغيرة تجرى فيها النهار ومنها"سهل ماكتة" و" سهل زيق " في منطقة مدينة وهران بالجزائر و(سهل وادى شليف) فى

منطقة المغرب الأوسط و" سهل وادى مجردة "في منطقة المغرب الأدنى و" سهل وادى مجردة " في منطقة المغرب الأدنى و" سهل وادى ملوية " و" سهل مكناس" في منطقة المغرب الأقصى وكلا هذين السهلين مرتفع.

كما أن هناك مجموعتان من السهول الداخلية:

الأولى تمتد من مصب نهر تنسيفت إلى وادى ملوية ويضمها السهل المطل على المحيط الأطلسى و(سهل سبو) و(سهل ممر تازة) و(سهول ملوية الدنيا) التى تتشكل فيها الطرق الطبيعية الممتدة بين جبال الأطلس ومنطقة المغرب الأوسط؛ والمجموعة الثانية تشتمل على (سهل الحوز) الذى يخترقه نهر تنسيفت ثم منخفض تادلا. أما سهول المغرب الأدنى في البلاد الليبية والتونسية فتشتمل على سهول داخلية يقع أغلبها حول الواحات، وقد أشار إليها ابن خلدون، فذكر منطقة الجريد جنوب المغرب الأدنى، وهى (نفطة وتوزر وقفصة) وهذه جميعاً تسمى بلاد قسطيلية .[1]

---

[1] المصدر السابق ج6 ص101 .

التقسيمات الإدارية و الإقليمية

بدأت منذ القرن الثانى الهجرى،تظهر فى مسميات العرب لبلاد المغرب مفاهيم وإصطلاحات، تدل على تقسيمات إدارية وأقليمية ثلاثة لهذه البلاد

أولاً:المغرب الأدنى:

وكان يسميه العرب فى كتابتهم وتآليفهم" أفريقية " فيذكر البكرى أفريقية تعنى "صاحبة السماء " كما إنها سميت كذلك لأن أفريقشى بن أبرهة ابن الراتشى غـزا نحوالمغرب حتى أنتهى إلى أرض طنجة فبنى أفريقية فسميت باسمه؛ وقيل سميت بأفريق بن إبراهيم عليه السلام من زوجته الثانية قطورى. وقال آخرون،إنما سُموا "الأفارقة " لأنهم من ولد فارق بن مصريم،وقد زعموا أن إسم أفريقية امرأة ليبيـة سميت ببنت يافوه بن يونش الذى بنى مدينة منفيس بمصر،وقد ملكت هذه المرأة ملك أفريقية أجمع فسمى بها.[2]

لقد أطلق اسم المغرب الأدنى على هذه البلاد لأنها أقرب إلى الإدارة المركزيـة للدولة العربية الإسلامية ودار الخلافة فى بلاد الشام أو العراق. ويمتـد المغـرب الأدنى من طرابس شرقاً حتى بجاية أو مدينة تاهرت غرباً، وأحياناً يحددها بعض المؤرخين والجغرافيين من خليج سرت شرقاً حتى المحيط الأطلسى غرباً. ويمكـن القول إستناداً إلى بعض المصادر إن مركز المغرب الأدنى هو مدينة " القيروان ".

أما فى الوقت الحاضر فإن هذا المفهوم يشمل ليبيا وتونس وبعض الجزاء الشرقية من الجزائر .

ثانياً: المغرب الأوسط:

ويمتد من مدينة تاهرت شرقاً حتى وادى نهلر ملوية وسلسلة جبال تازة غرباً. ومركز هذا الإقليم مدينة تاهرت عاصمة الدولة الرستمية الإباضية وبـالقرب مـن تاريت Tiatat فى وهران Oranفى بلاد الجزائر.

---

[2] المسالك والممالك ج2 ص671.

ثالثاً: المغرب الأقصى:

ويمتد من وادى نهر ملوية شرقاً حتى المحيط الأطلسى غرباً، كما لأنه إمتداد للمغرب الأوسط، ويفصل بينهما نهر ملوية، وتتمثل مناطق المغرب الأقصى اليوم بالمملكة المغربية. كما إن بعض المؤرخين المسلمين يجعل الأندلس ضمن المغرب الأقصى وبعضهم الآخر يعده ضمن المغرب الإسلامى عامة، وإن أفريقية كانت تشمل المغرب الأدنى وليبيا وإقليم تونس حتى مدينة قسطنطينة شرق الجزائر.أما مفهوم المغرب الإسلامى الذى تكرر فى كتب المؤرخين والجغرافيين والبلدانيين فيطلق على جميع المغرب الأدنى و الأوسط والأقصى وربما الأندلس إعتباراً من خليج سَرت شرقاً أو برقة حتى المحيط الأطلسى أو شبه جزيرة إيبيريا. وهناك من يقول إن لفظ المغرب إسم إضافى على مكان فى جهة الشرق وتحديداً على مصر. وقد اكتسب اللفظ مفهوماً جغرافياً وسياسياً خلال التاريخ الإسلامى والتعريف الذى نعنى به بلاد المغرب الإسلامى يستند إلى ثلاثة أسس، أولها الحواجز الطبيعية مثل الجبال والسهول والأنهار أو المناطق الصحراوية وثانيها التركيب البشرى و السكانى الذى يتحدد فى الأقاليم التى تشكل هذا المفهوم وثالثها، الوضاع الإدارية والظروف السياسية التى تسود خلال الحقب التى مرت منذ الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة، ومهما يكن من أمر فإن مفهوم المغرب الإسلامى، هو سياسى يختلف من عصر إلى آخر. ونقرأ اصطلاح " شمال أفريقية " الذى يشير إلى جميع المناطق التى تقع ضمن كل من تونس والجزائر و المغرب باستبعاد ليبيا وهذا الاصطلاح يتضمن حسب المصادر العربية لفظة " أفريقية " التى كانت تختلط أحياناً بالمفهوم الكلى لكلمة المغرب التى لابد أن تتضمن جميع الدول الواقعة شمال أفريقية ابتداء من ليبيا حتى سواحل المحيط الأطلسى.

سكان المغرب الإسلامي

يتألف سكان المغرب، بعد توطد الفتوحات الإسلامية فيه من عناصر مختلفةوأهمها:

أولاً:العرب

يشكل العرب اليمانيون المضرين الغالبية فى مجموع العرب الساكنين فى بلاد المغرب، وكان يطلق عليهم "عرب المغرب"أو "العرب البلديون" أو "العرب الأفارقة" وأكثرهم من اليمن وأهل الحجاز ويمثلون الأكثرية الساحقة من سكان المغرب.
والظاهر أن هؤلاء العرب هم أنفسهم الذين كانوا التحقوا فى الحملة المتوجهة من مصر إلى شمال أفريقيـة لغرض الفتح فاختطوا لهم خططاً فى مدينة القيروان وصاروا خلال القرن الأول الهجرى يؤلفون جزءاً كبيراً من سكانه فى القرون التالية ...

ويمكن القول، إن العرب الأفارقة هو فى الواقع من أقدم بيوت العرب المحررين الذين إستقروا بأفريقية منذ تأسيس مدينة القيروان على يد القائد العربى عقبة بن نافع الفهرى، وكان معظم هؤلاء العرب يقيمون فى مدينة "بلزمة" التى تعرضت فيما بعد إلى هجوم بعض القبائل المغربية التى استهدفت الوجود العربى هناك حيث أُبيد أكثر من سبعمائة من وجوه العرب وأبطالهم مما أثار حفيظة عرب أفريقية عامة وفى مقدمتهم عرب تميم وعرب الجزيرة العربية وقبائل عرب الأربس(والأربس قرية كبيرة تقع شمال مدينة تونس) وكذلك بنى باجة حيث انجدوهم ضد هجمات القبائل وتعدياتها.

ولما حل موسى بن نصير والياً للمغرب آزره العرب اليمانيون حتى سنة 96 هـ حيث برز بعد ذلك العرب القيسيون على مسرح الأحداث يقودها الوالى محمد بن يزيد القيسى، غير إن نفوذ العرب اليمانيون لم يلبث إن عاد من جديد فى عهد ولاية يزيد بن أبى المسلم سنة(101-103 هـ) ولكن مع ذلك فان نفوذ العرب القيسيون ازداد انتشارا في البلاد ولم يسدل الستار عنهم إلا بعد أن تولى بشر بن صفوان اليمانى، ثم استمر العرب اليمانيون يسودون فى البلاد حتى سنة

116هـ،حيث ولى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب الذى كان قيسياً،فأعاد سيادة العرب القيسيين. ومن المفيد القول أن العلاقات بين اليمانية والقيسية فى بلاد المغرب هى فى الحقيقة بين البلدين من عرب المغرب وبين العرب الطارئين عليه من المشرق وهم الشاميون سواء من القيسية أو اليمانية معاً.

والعرب الشاميون هم من القيسيين ومعظمهم كان يناصر أو يقف إلى جانب العباسيين فى صراعهم على السيادة النهائية فى المغرب، وقد انضم اغلبهم للجيش العباسى وأصبحوا فيه من العناصر المهمة التى يمكن الإعتماد عليها فى قمع الحركات والثورات المضادة للنفوذ العباسى هناك، وقد لعب عرب تميم الذين استقروا فى تونس دوراً حاسماً فى الوقوف ضد السيادة غير العربية أما قبيلة صدف العربية فى كهلان التى كانت تقيم هناك وبالقرب من القيروان فقد لعبت هى الأخرى دوراً مؤثراً فى الصراع نتج عنه الموقف المعروف بالميل نحو العرب بصورة عامة فى بلاد المغرب الإسلامى.

ولعل معظم العرب فى بلاد المغرب هم جند أو مقاتلة يمكن استنفارهم فى ظروف معينة وبخاصة فى أوقات الحروب أو التعبئة لها، وعُرف عن هؤلاء الجند أنهم يفضلون أن يقودهم من هو أرفع منزلة ونسباً وبدون ذلك فلقد طالما أعلنوا ثوراتهم وتمردوا بوجه الأمراء أو الولاة أو العمال الذين لا يشدهم اى شعور بالولاء نحوهم.

والعرب فى بلاد المغرب ينقسمون إلى فريقين، الأول وهم الأكثرية الذين يشكلون سكان المغرب وأغلبهم من أعقاب العرب الفاتحين للمغرب الذين كانوا قد سكنوا هذه البلاد وينضم إلى هؤلاء جماعات العرب الذين وفدوا من المشرق فى العصرين الأموى والعباسى واستقروا فى أفريقيا واصبحوا أهل البلاد. أمل الفريق الآخر فهم من العرب الوافدين على المغرب فى العصرالعباسى ومن الذين كانوا قد اشتركوا فى الجيوش التى جردها الخلفاء العباسيون لاستكمال فتح هذه البلاد وكان

هؤلاء ألفوا طبقة متميزة عُرفت "بطبقة الجند" وكانت تستقر حيثما تشاء فى أنحاء المغرب وتتمتع بامتيازات كثيرة .

أما فيما عَرف فى تاريخ المغرب الإسلامى " بالطوالع العربية " فإن أول طالعة هى طالعة موسى بن نصير وتتمثل بالجيش الذى قاده هذا القائد وأغلبه من عرب الحجاز الذين عرفوا فيما بعد "بالبلديين" لاختلاطهم بأهل البلاد. وكان هـؤلاء قـد فضلوا ترك بلادهم والهجرة إلى المغرب للابتعاد عن الإضطهادات الدمويـة التـى كانوا يتعرضون لها،وقد بدأت هذه الإضطهادات في موقعة (الحرة) وهـى منطقـة قرب المدينة فى الحجاز حيث استمرت بعد هذه الموقعة وخلال الأحداث التى رافقت حركة عبد الله بن الزبير سنة 63 هـ .

أما الطالعة الثانية فتتمثل بالجيش الشامى الذى كان يقوده كلثوم بـن عيـاض القشيرى لفتح المغرب، ويتألف هذه الجيش من عرب الشام ولعل هذه الطالعة لـم تلق ترحيباً من العرب الحجازيين أو اليمانيين وذلك بسب خشـيتهم بـأنهم ربمـا يشاركونهم فى الإمتيازات التى أو الحصول على الأراضى والمناطق التى كانوا قد استحوذوا عليها.

وكان يقود الطالع الثانية بلج بن بشر القشيرى،وقدرت هذه الطالعة بحـوالى التسعة آلاف رجل أكثرهم من عرب الشام مع أقلية من الجند المصـريين. ومـن الملاحظ أن هذه الطالعة لم يسبق لها الاستقرار فى بلاد المغرب، بل تهيـأت لهـا الظروف المناسبة للعبور إلى بلاد الأندلس حيث أتيح لها السكنى هناك .

ومن الجدير بالذكر،إن عرب تميم المستقرين فى تونس ينتسب أكثـرهم إلـى الأغالبة،وقد حازوا لأنفسهم إمتيازات وافرة، غير أن حكام الأغالبة إنقلبوا علـيهم وجردوهم من امتيازاتهم وقتلوا جماعة منهم ولابد أن يكون السبب فى ذلك تمويه الأوضاع لصالحهم والخروج عن طاعة الأغالبة وعدم الإمتثال لأوامرهم وخاصـة فيما يتعلق بالموقف من العباسيين،حيث إن أغلب عرب بنى تميم من يقف موقفـاً مناوئاً للسلطة العباسية والنظر بعين العداء للجيوش العباسية فى المغـرب خـلال هذه الحقبة ومعروف أن وقوف الأغالبة ضد العنصر العربى فى المغرب كان بسبب

ما أضرموا من فتن وتمردات وثورات مستمرة على المراء والعمال والجباة من بنى الأغلب مما كان يشكل خطراً يهدد كيان دولتهم وأصبحوا بمرور الزمن "يظنون سوءاً بالعرب ويستخفون بهم و يمعنون أحياناً فى الفتك بهم وسفك دمائهم "[1].

ثانياً: القبائل المغربية

وتتوزع هذه القبائل فى جميع أنحاء المغرب الإسلامى من برقة شرقاً حتى المحيط الأطلسى ويؤلفون العناصر السكانية الأصلية لهذه البلاد، وكان الرومان أطلقوا على سكان إقليم موريطانية(منطقة طنجة) اسم مور Maures وما لبث هذا الاسم، أن أطلق على سائر سكان المغرب، ويشير ابن خلدون إلى أن أفريقشى بن قيس بن صيفى هو الذى حدد العلاقات بين القبائل المغربية بعد أن فتح المغرب[2]، ومن المرجح إن هذه القبائل تنقسم إلى مجموعتين أولاهم الحضرية التى كانت تسكن المدن والحواضر والقرى الكبيرة وتمتهن الزراعة وتربية الحيوان وبعض الصناعات اليدوية، وثانيهما القبائل الرحل الذين كانوا ينتشرون فى الصحارى ويعيشون على الرعى.

وكانت القبائل المغربية تتفرع إلى بطون وعشائر وتتصف بالشجاعة والخشونة وحب القتال وحدة الخُلق كما انقسموا إلى جذمين كبيرين،الأول قبائل البرانس الذين استقروا فى المدن وتحضروا بالحضارة اللاتينية، والثانى جذم متبدٍ يسكن البادية ويسمون قبائل البتر ومنها قبيلة زناته، ولعل هذا التقسيم لا يمكنالأخذ به ،لأن هذه القبيلة من أكثر القبائل حضارة وعمراناً على حد قول ابن خلدون[3]، مما يجعلها فرعاً مستقلاً عن سائر القبائل الأخرى، ثم إن المتحضرين كانوا قلة ضئيلة بالنسبة للمبتدين الذين يؤلفون السواد الأعظم من سكان البلاد .

---

(1) ابن عذارى،البيان المغرب ج1 ص130 .

(2) العبر وديوان المبتدا والخبر ج6 ص88 .

(3) المصدر نفسه ص90 .

أما التفسير اللغوى لكلمتى البرانس والبتر، فتعنى الأولى القبائل المتدثرون بالبرنس والثانية بانهم العارون من الثياب، ولكن هذا التفسير لا صحة له فليس لزاماً على البترى أن يكون عارياً من البرانس كما أنه ليس شرطاً أن يكون البرانس مرتدياً له.

والقبائل البرانسية سبع قبائل: أوربة وصنهاجة وكتابة ومصمودة وعجيسة وأريفة وأزدواجة، وقيل عشرة فيضاف إليها لمطة وهكسورة وجزولة [1]. وتعد صنهاجة بنو زيرى ابن مناد والملثمون(المرابطون) وقد غلب على صنهاجة طابع البداوة فتفرقت فى أنحاء المغرب. وأكبر قبائل صنهاجة قبيلة زناجة التى كانت تتخذ من جبال الأطلس المتوسط جنوبى تازة حتى منطقة بنى حلال موطناً لها، كما احتلت بعض قبائل صنهاجة جزءاً مهما من إقليم الريف، واحتضنت قبائل أخرى من صنهاجة بمنطقة آزمور .

أما قبيلة كتامة فقد لعبت دوراً مهماً فى القيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب، كما تعد قبيلة مصمودة من أهم قبائل البرانس حتى إن بعض المؤرخين يجعلها فرعاً قائماً بذاته. ومن قبيلة مصمودة تخرج قبيلة غمارة التى تحتل منطقة العدوة من الريف وقبيلة برغواطة وهم سكان تامسنا وأهل جبل درن، ومن مصمودة، المستقرون فى السهول ومنهم قبيلة دكالة التى تنزل جنوبى وادى أم الربيع وقبيلة رجراجة على وادى نهر تنسيفت وإن جميع المصامدة متحضرون قد تعودوا حياة الإستقرار فى المدن.

وتنقسم قبائل البتر إلى أربع قبائل هى: ضريسة ونفوسة وأداسة ولواتة وتتفرع ضريسة إلى قبيلتين هما:مكناسة و زفاتة ويخرج من قبيلة زناتة قبائل:جراوة ومغراوة وبنو يفرن وبنو زيات وبنو مرين .

أما من حيث الجنس فهناك نوعين مختلفين لهذه القبائل، الأول وهو الأغلبية من سكان البلاد يتميز بلونه الأسمر وشعره الأسود ورأسه المستدير وخديه البارزين وأنفه القصير وجبهته المقوسة وهى الصفات نفسها التى تتوفر فى سكان

---

[1] إبن خلدون، المصدر السابق ص 90.

جنوبى أسبانيا وإيطاليا وفرنسا، والثانى ويقتصر على سكان الريف والشلوح فى منطقة المغرب الأقصى وسكان جبال جرجرة فى منطقة المغرب الأوسط ويتميز بشقرة لون الشعر وزرقة العينين واستطالة الرأس ودقة الأنف ورقة الشفتين وتسطح الجبهة[1].

ومن الجدير بالذكر أن العداء كان مستكماً بين قبائل البرانس والبتر فقد حالفت قبيلة زناتة البترية المسلمين الفاتحين لبلاد المغرب منذ وطأت أقدامهم أرض هذه البلاد، فيما تولت بعض القبائل البرانس مهمة مقاومتهم والحيلولة دون إنتشار الإسلام بين قبائل المغرب، كما حالفت قبيلة كتامة البرانسية الفاطمين فى المغرب وخدمت مصالحهم فى حين عقدت قبيلة زناتة البترية تحالفاً مع أمويى الأندلس الذين كانوا يشكلون الحزب المعارض للعباسيين؛ وبعد ظهور العلويين فى المغرب ممثلاً بالأدارسة، نشطت صنهاجة البرانسية لمحالفتهم.

ومن الممكن من أمر فأن قبائل البرانس كانوا يتميزون بنشاط سياسى أكثر وذلك بمحاولتهم الظهور ممثلين فى صنهاجة للتغلب على المغرب كله وتاسيس دولة اللمتونيين (المرابطين) كما ظهروا فى دولة الموحدين بقيادة قبيلة المصامدة حيث لعبت كلتا الدولتين دوراً رئيسياً على المسرح السياسى فى المغرب والأندلس، ولا غرو فإن كثيراً من المؤرخين، يعللون تاريخ المغرب وأحداثه على ضوء الصراع السياسى و الإجتماعى والدينى بين قبائل البرانس وقبائل البتر [2].

أما انتشار الإسلام بين القبائل المغربية فيصح أن نشير إلى الدور الذى قام به والى أفريقية عقبة بن نافع الفهرى حيث مهد الطريق أمامها للدخول إلى الإسلام فأبتنى مدينة القيروان سنة 50هـ/675 م لتكون مهداً لبعض القبائل واتخذ من مسجدها الجامع مركزاً لبث الإسلام وتعميقه بين صفوفهم ثم استمر الولاة العرب

---

[1] د.السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص20-21 ،نقلاً عن:
Andre Julien,Hisoire " Afrique du Nord,P.50-53, Tevrasse(Henri) I,art Hispano Mauresque des orginines au ,p.17

[2] ابن عذارى، المصدر السابق ج1 ص37؛ إبن الأثير، الكامل فى التاريخ ج3 ص34؛ د.السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج2 ص 248.

بعده يواصلون سياسة نشر الإسلام وقد توج ذلك بدخول قبيلة أوربة وأصبحوا قوة فى الجيش الإسلامى. وتذكر المصادر المتوفرة أن بعض الولاة فى المغرب ومنهم حسان بن نعمان انتهجوا سياسة المؤاخاة بين القبائل فجندوا منهم أجناداً فى الجيش الإسلامى وعهدوا إلى ثلاثة عشر فقيهاً من كبار النابغين بتعليم بعض القبائل القرآن ومبادئ الإسلام واتخذوا من المساجد مراكز لهذا النشاط[1] كما أسسوا مدينة تونس حيث ضمت العلماء والفقهاء والمعلمين لتثقيف القبائل بالعلوم الدينية وأصول الشريعة ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى غلب الإسلام على المغرب.

ومن المفيد أن تذكر أن قبائل البرانس الرئيسية وهى أوربة وصنهاجة ومصمودة وكتامة قد حققت لها دوراً سياسياً كبيراً فى ظل الإسلام سواء بأسيسها الإمارات مستقلة تمتاز بالأصالة أو بموالتها للحركات السياسية والفكرية التى تهيأ لها تأسيس أنظمة سياسية فى المغرب، إن هذا الدور الذى مثلته قبائل البرانس جعلها فى مصاف القبائل المغربية الرائدة فى صنع الشخصيات والزعامات القديرة فى الحياة السياسية سواء فى بلاد المغرب أو على نطاق العالم الخارجى[2]،كما يلاحظ أن هناك حضوراً ملموساً لقبائل البرانس دون البتر فى الحروب والمعارك والثورات التى شهدها المغرب وذلك على اغلب الأحتمال بسبب كثرتهم حيث أشار إلى ذلك ابن خلدون من طرف خفى قائلاً " أن البرانس أوفر القبائل و أكثرهم عدداً فلا يكاد قطر من القطار يخلو من بطن من بطونهم فى جبل أو بسيط حتى زعم الناس انهم الثلثان من مجموع القبائل" [3]

غير أن بعض القبائل المغربية أصيبت بخيبة أمل عندما صدموا بتعسف بعض الولاة من الأمويين أومن العباسين وتسلطهم على ممتلكاتهم ورقابهم وإرهاقهم

---

[1] ابن عذارى، المصدر نفسه ص37، البلاذرى، فتوح البلدان ج2 ص273؛ ابن كثير، البداية والنهاية فى التاريخ ج9 ص 185.

[2] د.موسى لقبال، دور كتامة فى تاريخ الخلافة الفاطمية ص67.

[3] العبر وديوان المبتدا والخبر ج6 ص152.

بالضرائب والجبيات والمغارم؛ وفى هذا الصدد يمكن أن نشير إلى ولاية عبيد اللى الحجاب على أفريقية سنة 114 هـــ التي تمثل قمة الإسراف فى هذه السياسة [1].

ولكن فى خلافة عمر بن عبد العزيز تم التحول إلى سياسة جديدة تقوم على إقامة العدالة واستبعاد الولاة والعمال والجباة الذين عرفوا بالظلم والتعسـف، كمـا تـم تعيين عدد من كبار الفقهاء المشارقة للاستهداء فى فهم أصول الـدين وفروعـه والسير والتوحيد والشريعة إلى جانب علوم اللغـة والفلـك والعلـوم الإسـلامية وأصبحت المساجد فى القيروان وتونس وتلمسان وأغمات هيلانة ومسجد الرباطى وجامع الزيتونة مراكز متآلفة ومعاهد للدراسة والتحصيل فى العلوم الدينية وعلوم العربية وسائر صفوف المعرفة، وهكذا يمكننا مجاراة ما ذهب إليه الدكتور/ موسى لقبال، أن الفتح الإسلامى كان فى جوهره إعترافاً بالسيادة للدولة العربية الإسلامية ولم يكن يعنى فى حقيقته دخولاً فى الإسلام ولا تقريباً، فاعتناق الإسلام سيكون من عمل القبائل المغربية أنفسهم، أمل التعريب فإنه يستوجب الإنتظار قروناً لكى يـتم ويكتمل[2].

---

[1] الرقيق القيروانى، تاريخ أفريقيا والمغرب ص109، ابن الأثير، الكامل ج5 ص69؛ ابن عذارى، البيان المغرب ج1، ص52.

[2] دور كتامة ص 88.

الموارد المائية، الأنهار، الأمطار، العيون

يتحدث اليعقوبى الذى كان يتجول فى منطقة المغرب عامة وفى منطقة المغرب الأقصى بصورة خاصة عن النهر العظيم الذى يقال له نهر(فاس) وهو" أعظم من جميع أنهار الأرض"[1] وربما تكمن أهميته فى الإعتماد عليه فى الإرواء الزراعى. ويؤكد ابن حوقل أن هذا النهر "كبير غزير المياه"[2] مما ساعد إلى تحويل منطقة فاس إلى أراضٍ خصبة صالحة للإنبات الزراعى. كما يقول البكرى فى معرض حديثه عن مدينة فاس "وعلى دار الرجل فيها رحاه وبستانه بأنواع الثمر وجداول الماء تخرق داره " [3].

يبدو مما جار به هؤلاء المؤرخين أن منطقة مدينة فاس حاضرة الأدارسة كانت وفيرة المياه حيث يزودها نهر فاس فضلاً عن كثرة " العيون التى تزيد على الستين عينا، فكانت مياهها تفيض على الأرض الفسيحة فتروى الغياض ذات الأشجار الملتفة المطردة العيون والأنهار" [4].

أما النهر الآخر فهو نهر ملوية الذى يسميه اليعقوبى نهر "زيز" فتقوم الزراعة على المياه التى يوفرها هذا النهر والذى تقع على منحنياته مدينة سجلماسة عاصمة إمارة بنى مدرار فى منطقة المغرب الأقصى وأن جميع المناطق التى تحيط بالمدينة هى سهول فيضية صالحة للزراعة، إلى جانب ذلك فقد كانوا يحفرون الخلجان ويشقون القنوات ويهيئون الأحواض وخصوصاً عندما يفيض هذا النهر بفرعيه الشرقى والغربى، لذلك شهدت المنطقة تقسيماً إلى أحواض زراعية تملؤها الفروع والقنوات والجداول التى يغذيها النهر طوال موسم الأمطار.

---

(1) البلدان ص357.
(2) صورة الأرض ص 90.
(3) المغرب فى بلاد أفريقية والمغرب ص117 .
(4) البكرى ،المصدر نفسه ص118 .

وفى منطقة المغرب الأوسط يشاهد الأصطخرى وهو من أهل القرن الرابع الهجرى، مدينة تاهرت وقد أحدق بها الأنهار ونبضت حولها الأعين.[1]

كما يشير ابن حوقل إلى أن أهل تاهرت "لهم مياه كثيرة تدخل بيوتهم على أكثر دورهم "[2] ، أما البكرى فهو أكثر إطلاعاً فيقول عن تاهرت إنها " تقع على نهر يسمى " مينة " ونهر آخر يجرى من عيون تجتمع يسمى "تاتش" ومنه شرب أهلها وأرضها " [3].

وإذا استعرضنا وديان الأنهار التى كانت تخترق المناطق التى تقع تحت نفوذ إمارة الرستميين فى المغرب الأدنى والأوسط فإننا سنقرأ أهم هذه الوديان ومنها "وادى نهر شلف " الذى يتفرع منه نهر " مينة " حيث يمتد مجراه حتى يصل إلى مدينة تاهرت من جهة الجنوب، ووادى نهر" سوفجج "الذى يتجه شرقاً فيلتقى بوادى نهر"الفرعة " ثم بوادى نهر " الوحش " كما إن كمية الأمطار التى كانت تسقط بغزارة، تؤثر فى تكوين السهول الخصبة. فيذكر النفوس إن موقع تاهرت فى مكان" جيد الهواء كثير المياه، وقد افادو كثيراً من هذه المياه فشقوا القنوات للزراعة " [4].

وأهتم المرابطون بتوفير المياه اللازمة لشرب الناس والدواب فأنشأوا الصهاريج الكبيرة وعملوا السقايات واستغلوا العيون وخصوصاً فى منطقة مدينة مراكش، كما بدأ الموحدون عهداً جديداً بعد المرابطين فى استكمال جلب المياه وصناعة الأسقيات واستغلال العيون والآبار إلى مدينة مراكش والمدن الأخرى. وفى مدينة " قابس " احدى المدن التونسية فى المغرب الأوسط، ويذكر البكرى أن فيها الماء من عين خرارة(أى أنها تشكل شلالاً يصب الماء من أعلى الجبل)وفى مدينة "القصرين" فى المنطقة نفسها،عين ماء ثرثار تتشعب منه أنهار تسقى زرعهم ونخلهم وثمارهم"[5].

---

[1] المسالك والممالك ص34.

[2] صورة الأرض ص 86.

[3] المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص 66-67 .

[4] المسالك والممالك ج2ص663.

[5] المصدر نفسه ص666.

الفصل الثانى

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

1-محاولات الفتح الأولى

2-الفتوح الإسلامية في ليبيا"المغرب الأدنى"

3-الفتوح الإسلامية في تونس"المغرب الأدنى "

4-الفتوح الإسلامية في الجزائر "المغرب الأوسط والمغرب الأقصى"

الفصل الثاني

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

محاولات الفتح الأولى:

لم تدخل بلاد المغرب فى حوزة الدولة العربية الإسلامية، دفعة واحة بل مـرت بسلسلة من المعارك والحروب، استمرت حوالي السبعين عاماً متوالية بدأت مـن عام 21هـ/642 م وذلك فى السرية الأولى التى قادها عقبة بن نافع الفهرى،الذى يُعد من أكابر التابعين وأفاضلهم ، بعد اشتراكه فى فتح بلاد مصر مع القائد العربى المعروف عمرو بن العاص، وانتهت بالحملة التى قادها موسى بن نصير واخضع فيها جميع المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسى عام 90هـ /708 م .

غير أن هناك بعض المعلمات تشير إلى أن المسلمين، بفتح المغرب عقب فـتح مصر بعامين، أى فى عام 22هـ /643 م ،حيث سار عمرو بـن العـاص غربـاً متوجهاً إلى برقة فدخلها وصالح أهلها على الجزية ، ثم دخل طرابلس الغرب بعد حصار دام شهراً ثم أوعز لقائده عقبة بن نافع لاستكمال الفتح إذ سار إليها علـى رأس حملة استطلاعية من برقة حتى لوبيا (ليبيا) وأفريقية فأفتتحهما [1] وبـذلك تكون ليبيا قد تم فتحها على يد القائدين العربى عمرو بن العاص وعقبة بن نـافع عام 22هـ/643 م. وفى خلافة عثمان بن عفان (رض) دخلت الجيوش الإسلامية فى قفار أفريقية وذلك عندما عبد الله بن أبى سرح ، عمرو بن العاص، حيث سار إلى أفريقية فى نحو عشرين ألف مقاتل[2]، وسارت معه حامية بقيادة عقبـة بـن نافع، وكان عمرو بن العاص قد ولاه على تلك الأنحاء[3] .

ولعل من المفيد أن نستعرض من محاولات المسلمين فى فـتح بـلاد المغـرب وتخليصها من السيطرة البيزنطية، حيث كللت بالإنتصار، وانضواء هذه البلاد تحت

---

[1] ابن الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ص71 .

[2] ابن عذارى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ج1 ص 8 .

[3] ابن الحكم ، المصدر السابق ص 187 .

لواء الدولة العربية الإسلامية. وقد بدأت هذه المحاولات منذ الربع الأول من القرن الأول الهجرى بانتشار جيوش عمرو بن العاص فى برقة ومشارف طرابلس الغرب، إذ تُعد الباب للدخول و التوغل فى بلاد المغرب، فقد استطاع عمرو بن العاص أن يكسب تأييد بعض القبائل المغربية إلى جانبه ويدخلها الإسلام فضلاً عن جهود عقبة بن نافع فى هذا الصدد حيث كسب هو الآخر عدداً من هذه القبائل التى لأصبح لها دور مهم فى إسناد الجيش الإسلامى، ولدينا تفصيلات مهمة أوردتها المصادر[1] عن وصول الجيوش الإسلامية إلى مناطق واسعة من ليبيا وتونس، غير أننا يجدر بنا أن نشير إلى الانتصار الحاسم على البيزنطيين عند مدينة "سبيطلة" عام 28 هـ/648 م ،حيث فتح جميع المناطق من برقة شرقاً حتى سبيطلة غرباً.

ولعل من المفيد أن نخلص إلى تفصيلات عن الفتوح الإسلامية فى البلاد الليبية حتى دواخل المغرب الأقصى:

---

[1] يمكن الرجوع إلى المصادر والمراجع الآتية للتوسع :

أ- ابن أبى الحكم، فتوح أفريقية والأندلس ص 34 .

ب- البلاذرى، فتوح البلدان ص 224-226 .

ج- أبو عبيد البكرى، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص 123 .

د- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ج1 ص 8 .

هـ-ابن عذارى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ج1 ص 10-12 .

و-ابن أبى دينار، المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس ج1 ص 122 .

ثم المراجع الثانوية:

1-د.حسين مؤنس ، فجر الأندلس .

2-د.السيد عبد العزيز سالم ،تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس .

3-محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام فى الأندلس .

4-نص جديد عن فتح العرب للمغرب نشره المستشرق ليفى بروفنسال فى مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد (المجلد الثانى -1954) .

1- الفتوح الإسلامية فى ليبيا " المغرب الأدنى "

انتشرت الجيوش الإسلامية فى ليبيا يقودها عمرو بن العاص فحين وصوله برقة صالح أهلها على الجزية ثم شرع يعد العدة لفتح مدينة طرابلس بغية التمهيد للدخول إلى أفريقية، وكان لزاماً عليه أن يزحف إلى طرابلس من الساحل والداخل، ففيما يتعلق بدواخل البلاد بعث إليها قائده عقبة بن نافع حيث بلغ مدينة فزان ومنها وصل إلى مدينة زويلة ، وفى غضون أشهر قليلة أصبحت جميع المناطق التى تقع بين برقة وزويلة ،ضمن النفوذ الإسلامى وبذلك ضمن عمرو بن العاص إخضاع الواحات الداخلية التى كانت مصدر تهديد للإستحكامات العسكرية والمواقع الإسلامية فى المدن والمناطق المفتوحة وخصوصاً الساحلية منها. وكانت مدينة طرابلس أخذت من إهتمام عمرو بن العاص ففى عام 22 هـ حاصرأسوارها شهراً ولم يظفر بها ولكنه إرتد إلى المدن المجاورة لها وخصوصاً مدينة صبراته [1]وكان البيزنطيون قد احكموا سيطرتهم عليها ،مما جعله يعاود الكرة على طرابلس باتخاذه خطة تقوم على مباغتهم عن طريق الساحل مستغلاً إنحسار المياه عن سواحلها وبذلك حقق الإستيلاء على الجزء الشرقى منها ، وخلال وقائع فتح طرابلس جرد عمرو بن العاص كتيبة من الفرسان لمعاودة الهجوم على مدينة صبراته مرة أخرى حيث تحصن أهلها داخل الأسوار بعد فرار الحامية البيزنطية التى كانت تدافع عن المدينة، عن طريق البحر فحاصرها المقاتلة المسلمون وما لبثوا إن دخلوا المدينة فى غفلة من أهلها الذين كانوا قد فتحوا أبوابها لتسرح بها ماشيتهم "فلم ينج منهم أحد واحتوى عمرو على ما فيها " [2]

ثم أعد عمرو بن العاص، كتيبة بقيادة " بشر بن أرطاة " لفتح مدينة ودان فأفتتحها سنة 23هـ وبذلك تم لعمرو بن العاص الإستيلاء على برقة والجزء الشرقى من طرابلس، وعندئذ بادر البيزنطيون إلى تحصين المدن وإقامة الحاميات

---

[1] ابن عبد الحكم، فتوح أفريقية والأندلس ص28 ،ويقول البكرى:أن إسمها " صبرة " وهى بلد معمور تسكنه قبيلة زواعة (المسالك والممالك ج2 ص 665) .

[2] ابن عبد الحكم،المصدر السابق ص 28 .

فيما يلى مدينة صبراته إلى الغرب خوفاً من الزحف الإسلامى وكتب عمرو بن العاص كتاباً إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فتح أفريقيا باتجاه الغرب، وقد جاء فيه: " إن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين أفريقية إلا تسعة أيام " ولكن الخليفة رفض الإستمرار فى فتح أفريقية فاضُطر عمرو بن العاص على العودة إلى مصر بعد أن ثبت قائده عقبة بن نافع على المناطق الداخلية المفتوحة فى البلاد الليبية، وقد استطاع هذا القائد أن يستقطب إليه بعض القبائل المغربية مثل قبيلة لواته وقبيلة نفوسة وقبيلة نفزاوة وهى أكبر القبائل حيث دخلت الإسلام وأصبح معظم رجالها ضمن المقاتلة فى الجيش الإسلامى.

وفى عام 49 هـ خرج عقبة بن نافع وبصحبته من القواد العرب: بشر بن أرطاة وشريك بن سحيم المرادى، فنزل بغدامس ثم تابع سيره إلى مدينة ودان فأعاد فتحها بعد أن ترك فرقة من جيشه بقيادة زهير بن قيس البلوى فى منطقة سرت، ومضى عقبة بن نافع إلى قصور فزان وافتتحها قصراً قصراً ثم افتتح قصور كوار واستولى على قصر جاوان ومن هناك انصرف إلى مدينة زويلة التى كانت تُعد منطلقاً للفتوح الإسلامية فى الأراضى الليبية.

وبعد الإخفاقات التى منى بها المسلمون لتثبيت الفتوحات الإسلامية فى المغرب نتيجة المقاومة التى إنخرطت بها القبائل المغربية بمساعدة البيزنطيين الذين كانوا يسيطرون على المدن والمناطق، درج حسان بن نعمان الغسانى قائد الجيوش لإسلامية عام 81هـ على إقامة أكبر قاعدة عسكرية فى مدينة برقة استغرق تأسيسها أربع سنوات ،ثم بدأ يترقب وصول النجدات التى وعد بها الخليفة عبد الملك بن مروان لتعزيز هذه القاعدة ،وقد أشاد هناك قصوراً سميت قصور حسان . ولما وصلته الإمدادات وتوافد عليه فرسان العرب ورجالهم زحف بجيوشه لمقاتلة الكاهنة التى يقال لها " داهية بنت ماتية ابن تيغان " ملكة جبال أوراس التى رفعت لواء العصيان ضد المسلمين ،وقد بعثت الكاهنة بابنيها إلى حسان بن نعمان ليطلبا الأمان لنفسيهما فأمنهما، أما هى فقررت أن تحارب المسلمين ،وفى عام 82 هـ إلتقى حسان بن نعمان بجيوش الكاهنة عند منطقة البئر بالقرب من

جبال أوراس فهزمها هزيمة نكراء وسحق أتباعها وقتلهـا، وبـذلك اسـتطاع أن يستأصل جميع أوكار المقاومة ضد المسلمين فى بلاد المغرب الإسلامى عموماً .

2- الفتوح الإسلامية فى تونس " المغرب الأدنى "

بدأت طلائع الجيش الإسلامى تنتشر فى مناطق تونس سنة 28 هـ بقيادة عبد الله بن أبى سرح وذلك لفتح المناطق وصولاً إلى طنجة، وفى طريق زحفها التقت مع جيوش البيزنطيين التى يقودها الحاكم البيزنطى " كريكوريوس " الذى تطلـق عليه المصادر العربية " جرجير " بالقرب من المدينة التونسية " سبيطلة " حيـث قُتل كريكوريوس وتفرق جيشه وتم الإستيلاء على حصن سبيطلة، ثـم تحركـت جيوش عبد الله بن أبى سرح نحو حصن الأجم فحاصرته ثم دخلته، ولم يلبث هذا القائد أن عاد إلى مصر مكتفياً بما حققه من فتح معظم البلاد التونسية .وخصوصاً الخط الممتد من سبيطلة إلى مدينة سوسة فى الشمال ثم من سبيطلة إلى مدينـة قفصة من الشرق والشريط الساحلى الضيق فيما بين قابس[1] وشط الجريـد مـن الجنوب. ويبدو إن هذه المناطق قد انتفضت على الحاميات الإسلامية أيام الخلافة الأموية،مما جعل معاوية بن حديج الكندى يقود جيشاً عدته عشرة آلف مقاتل وقد استصحب معه عدداً من قواد العرب منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبـد الله بن الزبير بن العوام وعبد الملك بن مروان ويحيى بن الحكم بـن العـاص حيـث وصلوا بكتائبهم جنوبى قرطاجنة التى لا تبعد عن مدينة تونس إلا بضـعة كيلـو مترات، وهناك واجهوا البيزنطيين بالقرب من مدينة سوسة إذ دخلها المسـلمون بقيادة عبد الله بن الزبير بن العوام بعد الهزيمة التى ألحقوها بالبيزنطيين. كـذلك استطاعت فرقة أخرى من المسلمين بقيادة عبد الملك بن مروان الإستيلاء علـى مدينة جلولا .ثم اتجه معاوية بن حديج بأسطوله فى البحر المتوسط إلـى جزيـرة

---

[1] وهى مدينة جليلة مسورة بالصخر من بنيان الأول ذات حصن وارباض وأسـواق وفنـادق وجـامع وحمامات كثيرة وقد أحاط بها خندق كبير يجرون إليه الماء عند الحاجة(البكرى ج2ص666).

صقلية عام 46 هـ وافتتحها ومضى فى فتوحاته فدخل مدينة بنزرت ثم عرج والمسلمون نحو جزيرة جربة[1] فدخلها .

وفى عام 49هـ تابع عقبة بن نافع فتوحاته فهاجم مدينة قفصة وسقطت بيده واتبعها بقسطيلية واختتم هجومه بموضع القيروان الذى كان أقامه معاوية بن حديج فلم ينل إعجابه وانتقل منه إلى موضع المدينة الكبرى التى عرفت فيما بعد بالقيروان جنوبى مدينة قرطاجنة. وكان عقبة بن نافع قد ابتنى مدينة القيروان سنة 50 هـ بعيدة عن الساحل استجابة للضرورات العسكرية لكى لا يدركها العدو البيزنطى على حين بغتة عن طريق البحر .

والمدينة أشبه بمعسكر حيث اختط عقبة بن نافع دار الإمارة وأقام الناس الدور والمساكن ثم اختط المسجد الأعظم وعمرت المدينة بمختلف أنواع الأبنية والمنشئات والعمائر وشد الناس إليها الرحال واتسعت بالأسواق والمرافق وأصبحت القيروان مركزاً وقاعدة توجه منها الحملات العسكرية الإسلامية على جبال أوراس المواجهة لها.وقد اجتذبت هذه المدينة عدداً كبيراً من القبائل المغربية التى دخلت الإسلام. وفى عام 55هـ تولى قيادة الجيوش الإسلامية فى بلاد المغرب،أبو المهاجر دينار بعد أن عزل معاوية بن أبى سفيان، عقبة بن نافع وكان أبو المهاجر قد نزل فى موضع غير القيروان حيث اختار موضعاً يبعد بمقدار ميلين عن المدينة واختط بها مدينة أخرى وأمر بحرق القيروان، وبدأ بالزحف على المدن التونسية التى لم تُفتح بعد أو التى تمردت على المسلمين فتم له الإستيلاء على مدينة تلمسان ثم شن هجوماً كبيراً سنة 59هـ على مدينة قرطاجنة، ثم تركها بعد أن تخلى له البيزنطيون عن الجزء الواقع جنوبى قرطاجنة. وفى سنة 60 هـ استعاد عقبة بن نافع قيادة الجيوش الإسلامية فى المغرب فعاد إلى القيروان وهو أشد عزماً وقوة فى الفتح ثم أمر بتخريب المدينة التى أقامها أبو المهاجر دينار وأعاد الناس إلى القيروان وترك بها جنداً من

---

[1] وتسمى جزيرة قرقنه فيها آثار بنيان ومراجل للماء وارباض وارضها خصبة (البكرى المصدر نفسه ص 669).

المسلمين استخلف عليهم قائده زهير بن قيس البلوى وأعاد فتح قرطاجنة ثم حاصر المنستير وهى أعظم مدن أفريقية واستولى عليها. وفى خلافة عبد الملك بن مروان سار زهير بن قيس البلوى بجيوشه فى حملة لاسترجاع القيروان بعد أن احتلها البيزنطيون وكذلك لمواجهة كسيلة بن لمزم الذى كان يقود المقاومة ضد المسلمين فى الساحل التونسي والمتحصن فى مدينة قرطاجنة، ولكن، لما بلغ كسيلة، قدوم زهير بن قيس إليه، رحل عن القيروان بجيشه إلى موضع يعرف "ساقية ممس" يقع بين القيروان وتبسا وذلك لحصانته ومناعة موقعه، إذ تقع ساقية ممس هذه على مرتفع من هضبة تتصل بجبال أوراس أما القوات الإسلامية، فقد تمركزت مشارف القيروان ثم بدأت بالزحف نحو العدو وذلك بعد أن عقد القائد زهير بن قيس هدنة مع البيزنطيين الذين اشتركوا معه لكى يعزل كسيلة بن لمزم ويتفرغ لقتاله، وعلى وادى ممس دارت رحى معركة فاصلة أحرز الجيش الإسلامى فيها انتصاراً ساحقاً وقُتل كسيلة ومضى المسلمون يتعقبون فلول جيشه فقتلوا منهم عدداً كبيراً وطاردوا ما بقى منهم حتى نهر وادى ملوية ثم عاد زهير بن قيس إلى القيروان ونظم إدارتها ثم عاد إلى برقة وفى طريقه وبالقرب من طبرق نصب البيزنطيون كميناً له ودارت بين الطرفين معركة غير متكافئة استشهد وفيها زهير ،كما قتل عدد من المسلمين .

وبغياب زهير بن قيس توقفت الفتوحات الإسلامية فى المغرب لمدة أربع سنوات ولكن الخليفة عبد الملك بن مروان، أمر بإعداد جيش كبير مسلح بكل أنواع الأسلحة والمعدات وجعل على رأسه قائداً قديراً هو حسان بن النعمان الغسانى؛ وقد اتبع هذا القائد سياسة تقوم على استمالة القبائل المغربية فانضم إليه عدد كبير من هؤلاء، فزحف إلى القيروان التى كان البيزنطيون قد احتلوها بعد مقتل زهير بن قيس، ثم أعد عدته لمقاتلة ما سمى بملك قرطاجنة البيزنطى فوضع خطة تقوم على الدخول إلى هذه المدينة التى لم تلبث فى كل مرة يدخلها المسلمون يعاود عليا البيزنطيون ويستردونها، ونجحت خطته فقد دخلها، وهربت فلول الجيش البيزنطى إلى مدينة صطفورة وبنزرت فلحقت بهم القوات الإسلامية وهزمتهم. ثم أصبح حسان بن النعمان أمام مشكلة جديدة وهى اجتماع بعض

القبائل المغربية المعادية للمسلمين والتى كانت منضوية تحت إمرة الكاهنة التى سبق أن أطيح بها فى مناطق جبال أوراس وقُتلت،وقد أسرت جيوش هذه القبائل عدداً كبيراً من المقاتلة المسلمين

،فتراجع الجيش الإسلامى إلى برقة،ولم تكتف بذلك بل عمدت القضاء على جميع مظاهر العمران فى منطقة تونس لكى تمحى كل أثر من آثار الفتوحات الإسلامية ، وانتهز البيزنطيون هذه الفرصة فأغاروا على الحامية الإسلامية فى قرطاجنة وقتلوا عدداً من رجالها وسلبوا وغنموا، بيد أن الإمدادات التى كان وعد بها الخليفة عبد الملك بن مروان وصلت إلى حسان بن النعمان فسخرها فى الإستمرار فى الفتوحات فى تونس، فاتجه لتطهير قرطاجنة من الحامية البيزنطية التى اضطرت على الفرار بحراً، فاسترد المسلمون المدينة، ولكن المسلمين كانوا يخشون أن يفاجئهم البيزنطيون من البحر فرأى أن يؤسس مدينة أخرى تجاه قرطاجنة فى موقع البحر تشرف على قرطاجنة، فبنى تونس على بعد كيلو مترات شرقى قرطاجنة.

وكانت تونس قبل ذلك مدينة قديمة يطلق عليها " تنيس " ولم تكن عند بنائها إلا قرية صغيرة[1]فحولها حسان بن النعمان إلى قاعدة بحرية تقلع منها الأساطيل، وأنشأ بها داراً لصناعة السفن حيث عول على الصناع الأقباط فى صناعة المراكب، ثم شيد بها مسجداً جامعاً وداراً للإمارة وثكنات وحاميات للجند. وقد قدر لهذه المدينة الصغيرة فى بدايتها أن تكون أعظم ثغور أفريقية بعد مرور ثلاثة عقود من الزمن على يد والى أفريقيا عبيد الله بن الحبحاب، حيث نمت واتسعت وأقبل الناس إليها من جميع الآفاق وأقيم فيها أعظم جامع بالمغرب الأدنى وهو جامع الزيتونة ثم بدأ حسان بن النعمان يوجه عنايته لتنظيم البلاد من الناحية الإدارية فدون الدواوين ونظم الخراج وعمل على نشر الإسلام واللغة العربية. وهكذا يمكن القول، إن حسان بن النعمان، فتح بلاد المغرب عسكرياً وثقافياً واجتماعياً فى آن واحد.

---

[1] ذكر البكرى، أن تونس كانت تسمى قد يما "ترشيش"ويقال لبحرها بحر "رادس" ويسمى مرسى "رادس" (المغرب فى ذكربلاد أفريقيا والمغرب ص37).

الفتح الإسلامي في المغرب الأوسط والأقصى:

انطلق عقبة بن نافع بجيوشه مكتسحاً شمال أفريقية كله ووهو يطارد البيزنطيين ويدمر معاقلهم حتى دخل المغرب الأقصى سنة 62هـ حيث اترب من مدينة طنجة واستمر مندفعاً بقواته حتى مدينة وليلة أو"وليلى" كما دأب على مطاردة القبائل المغربية التى ساندت البيزنطيين حتى مدينة درعة ثم واصل هجومه الكبير حتى وطئت قدماه ارض السوس الأقصى وانتهى به المطاف إلى مدينة " إيغيران يطوف " التى تقع على ساحل المحيط الأطلسى، وكان قد افتتح فى طريقه مدن أغمات وريكة ووادى نفيس وإيجلى القريبة من مدينة دركالة ثم انتشرت جيوشه فى مدينة ماسه الواقعة أيضاً على المحيط الأطلسى، غير إنه عاد إلى القيروان ماراً بإيغيران يطوف وتارنا ومنها إلى رباط شاكر فدخل إقليم دركالة حتى بلغ طنجة ومنها إتجه نحو المغرب الاوسط فلما بلغ مدينة طبنة أمر بتفريق جيشه والمسير فى طرق أخرى وسار هو فى منطقة جبال أوراس ولكنه ما كاد يقترب منها حتى اعترضه كسيلة بن لمزم مع قبيلة أوربو البرانسية بجموع جيشه الذى يقدره المؤرخون بخمسين ألفاً وقطع على عقبة بن نافع خط الرجعة ثم دارت معركة عند مدينة تهودة سنة 63هـ واستشهد فيها عقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار واستشهد معهما عدد كبير من المسلمين وأُسر الباقون ولكن صاحب قفصة افتداهم وبعث بهم إلى زهير بن قيس البلوى الذى عاد هو الآخر إلى قصره فى مدينة برقة وأقام فيها حتى أيام عبد الملك بن مروان واستولى كسيلة على مدينة القيروان سنة64هـ وأسفر ذلك عن خروج أفريقية من أيدى المسلمين وضاعت بذلك جهود أربعين عاما قضاها المسلمون فىالجهاد والفتوح، غباير أن المسلمين لم يفقدوا كل شئ، اذ تركوا كثير من القبائل المغربية كانت قد تحولت إلى الإسلام فوقفوا ضد كسيلة بن لمزم.

ولما تولى موسى بن نصير المغرب خرج فاتحاً من أفريقية إلى طنجة فتتبع بعض القبائل التى لا تزال معادية للفاتحين المسلمين ومنها قبائل هوارة وزناتة وكتامة. وفى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك عظمت منزلة موسى بن نصير لدى

الخليفة، فأول عمل عسكرى له هو الدخول فى مدينة طنجة إذ فتحها وترك فيها حامية كبرى على رأسها القائد طارق بن زياد، ثم واصل فتوحاته فاجتاز نهر درعة وأرسل حملة تأديبية إلى مدينة سجوما التى خرجت على المسلمين وكان إلى رأس هذه الحملة أولاد عقبة بن نافع وهم عياض وعثمان أبوعبدة ، وهكذا استكمل موسى بن نصير فتح الجزائر وبلاد المغرب الأقصى ولم تستعص عليه سوى مدينة سبتة لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من أسبانيا القوطية عن طريق البحر وكان يحكمها من قبل القوط فى أسبانيا حاكم إسمه خوليان **Julian** ويسميه العرب يوليان وقد اختلفت المصادر فى شخصيته فبعضها يذكر أنه قوطى والآخر يزعم أنه بيزنطى وربما كان حاكماً على إقليم موريطانيا الطنجية الخاضعة للإمبراطورية البيزنطية فلما عجز البيزنطيون عن حمايته طلب الإنضمام إلى أسبانيا القوطية .

وأغلب الظن، أن انصراف موسى بن نصير عن فتح سبتة وكان بمستطاعه ذلك بسبب ما أستجد من أفكار لهذا القائد الإسلامى فى فتح بلاد الإندلس ووضع الخطط والإعداد لها بالإستعانة بيوليان ورجاله ومعداته.

الفصل الثالث

عصر الولاة

1-ولاة المغرب فى العصر الأموى

أ-موسى بن نصير

ب- محمد بن يزيد

ج- اسماعيل بن عبدالله بن أبى دينار

د-يزيد بن أبى مسلم

هـ- بشر بن أبى صفوان

و- عبيدة بن عبدالرحمن السلمى

ز- عبيد الله بن الحبحاب

ر-عقبة بن قدامة

ح- كلثوم بن عياض القشيرى

خ-حنظلة بن صفوان

2- سياسة الإنفصال فى المغرب الإسلامى

الفصل الثالث

عصر الولاة

وبعد أن توطد الفتح العربى الإسلامى ورسخ الإسلام فى بلاد المغرب وتبددت آمال المقاومة على يد القائد العربى موسى بن نصير وانتهى آخر صوت لها، أصبحت هذه البلاد فى عداد الدولة العربية الإسلامية وتولاها عدد من الولاة منذ أن فُصلت عن ولاية مصر وجعلها ولاية تابعة للخلافة العباسية بصورة مباشرة.

ولاة المغرب ابتداءاً من موسى بن نصير:

1-موسى بن نصير:

وبعد أن عُزل حسان بن النعمان من قيادة الجيوش الإسلامية فى بلاد المغرب تولى موسى بن نصير على أفريقية بأمر من عبد العزيز بن مروان والى مصر ولاشك فى أن موسى بن نصير هو من أقدر رجال الدولة الأموية وأكثرهم كفاءة وأخلصهم لها، وكان الخليفة عبد الملك بن مروان قد عينه عاملاً على العراق ثم ولاه على أفريقية فأفتتح ولايته بفتح قلعة زغوان وهى من المواقع التى استعصت على الفاتحين الأوائل. ويصح القول إن فتح بلاد المغرب الإسلامى قد تم أغلبه على يد هذا القائد ولم يبق منه سوى المغرب الأقصى لذلك وضع خطة تقوم على تتبع القبائل التى لاتزال تقف ضد الإسلام وخرج على رأس جيش مؤلف من وجوه العرب فأخضع قبائل هوارة وزناتة وكتامة . ولما توفى الخليفة عبدالملك بن مروان سنة 86هـ وولى الخلافة بعده ولده الوليد عظمت منزلة موسى بن نصير لديه واشتد عجبه به مما أتاح لهذا الأخير المضى فى تنفيذ خطته لاستكمال فتح المغرب الأقصى حتى بلغ مدينة طنجة حيث ترك فيها حامية كبرى على رأسها قائده طارق بن زياد، وكان عدد جند هذه الحامية يتجاوز تسع وعشرين ألفا أغلبهم من القبائل المغربية التى أسلمت وحسن إسلامها. ولأول مرة فى تاريخ المغرب يجتاز موسى بن نصير بجيشه نهر درعة ويقوم بإرسال حملة تأديبية إلى مدينة سجوما التى تسكنها بعض القبائل المغربية التي اشتركت في المعركة ضد عقبة بن نافع التى أدت إلى مقتله. وكان قادة هذه الحملة أبناء عقبة بن نافع (عياض وعثمان وأبوعبدة) فانتقموا لأبيهم من قتلته شر إنتقام، وهكذا نجح موسى بن نصير فى إخضاع بلاد المغرب للإسلام ولم تستعص عليه سوى مدينة

سبتة لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطية عن طريـق البحـر. ولكن بعد أن تطلع موسى بن نصير إلى فتح الأندلس تـم إحتـواء حـاكم سـبتة "خوليان " ويسميه العرب يوليان فتكون سبتة حينئذ قد أصبحت ضـمن المغـرب الإسلامى .

2- محمد بن يزيد

تولى الخليفة الآموى سليمان بن عبدالملك الخلافة بعـد وفـاة أخيـه الوليـد فاستشار بعض رجال حاشيته فيمن يصلح لحكم ولاية المغرب وذلك بعد عزله لعبد الله بن موسى بن نصير الذى ولاه أبوه، فقيل له: "محمد بن يزيد " مولى قريش، فاستدعاه إليه وعهد له بالولاية قائلاً: " قد وليتك أفريقية والمغرب كله ".

وبعد أن استقر محمد بن يزيد بأفريقية قام بالإصلاحات الآتية:

أ- عُرف بسيرته الحسنة فى ولايته حيث ساد السلم و الأمن جميع أنحاء المغرب فنعم السكان خلال حكمه بالإطمئنان والعدل.

ب-كما أتاحت له الظروف إستكمال فتح المناطق الداخلية فى المغـرب الأقصـى وإرسال البعوث والسرايا إلى الثغور البعيدة والجزر المجاورة لنشر الإسلام أو تثبيته فى النفوس، ومن بين من أرسلتهم الخلافة بعض التابعين ومنهم عبـد الرحمن بن يزيد المعافرى وسعيد بن مسعود التجيبى واسماعيل بن عبـدالله الأنصارى وعبدالرحمن رافع التنوخى [1].

ج- إن السياسة التى ساد عليها محمد بن يزيد، كان لها أكبر الأثر فـى نفـوس سكان المغرب والجند، فقد استجابوا لإجراءاته الإداريـة والسياسـية والماليـة والعسكرية.

3- اسماعيل بن عبدالله بن أبى دينار:

ولاه الخليفة عمر بن عبدالعزيز سنة 100هـ، ويؤكد المؤرخون علو منزلـة هذا الوالى وعدوه أحسن ولاة بنى أمية فى المغرب، فقد ورث جده القائد الإسلامى بن أبى دينار صفات الحزم والشجاعة والحكمة وحسن التدبير، إلى جانب ورعـه وتقواه، ونقرأ من اصلاحاته:

---

[1] ابن عذارى، البيان المغرب ج1 ص44، المالكى، رياض النفوس ص64-76.

أ- نشر الإسلام والثقافة العربية بين سكان المغرب حتى إن المؤرخين أجمعوا على أن سكان المغرب وأفريقية أسلموا جميعهم فى أيامه.

ب- استمراره في سياسة التعريب التى كان ساروا عليها، وقد سارت هذه العملية جنباً إلى جنب مع انتشار الإسلام لذلك امتاز الفتح العربى للمغرب بانه فتح ثقافى، إذ حمل الفاتحون معهم اللغة والدين ممثلين فى القرآن الكريم الذى هو قوام دين ودستور سياسة وبحر أخلاق و قاموس لغة و ديوان ثقافة ، وقد رسخ هذا الإتجاه فى عهد هذا الوالى .

ج- بناء المساجد والجوامع ودور العلم فى مختلف أنحاء المغرب ومنها مسجد تلمسان و أغمات هيلانة و المسجد الرباطي و جامع الزيتونة. وكانت هذه المساجد بمثابة المدارس والمنشآت العلمية والجامعات لنشر العلم والثقافة اللغة العربية إلى جانب الطب وعلم الفلك والعلوم الدينية والشرعية.

4- يزيد بن أبى مسلم:

ولى سنة 102هـ بعد وفاة الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وقد عزم على تطبيق سياسة مغايرة لسياسة سلفه الوالى اسماعيل بن عبدالله بن أبى دينار ولكن لم يلبث هذا الوالى إن قُتل بعد شهر واحد من ولايته.

1-محمد بن يزيد (الولاية الثانية):

لم تستمر ولايته سوى عدة أشهر.

2-بشر بن صفوان الكلبى

ولاه الخليفة الأموى يزيد بن عبدالملك، حيث قدم من مصر إلى القيروان واصطنع مع السكان سياسة تقوم على العدل والمساواة وحسن المعاملة، وقد نجح فى تمهيد بلاد المغرب وتسكين أرجائه من الفوضى والإضطرابات بحسن سيرته ولينه فساد فى عهده السلم والهدوء.

3-عبيدة بن عبدالرحمن السلمى:

قام فى ولاية المغرب فى سنة 110هـ ولم يستجب للسياسة التى كان الولاة الآمويون يسيرون عليها فى معاملة السكان بالتعسف والإضطهاد.

4- عبيد الله بن الحبحاب:

أخفق فى سياسته تجاه المغرب وأفريقية، حيث أساء معاملة السكان ونشر الأضطهاد والظلم والتعسف مما أثار حفيظتهم وسخطهم فتسبب فى الإنقسامات

والفوضى المر الذى جعل الخليفة هشام بن عبدالملك يعزله. غير أن المؤرخين يقررون إنه أثبت مهارة كبيرة فى ادارة شئون مصر وهو والياً عليها .

5- عقبة بن قدامة:

تولى سنة 114هـ فجرد حملة عسكرية بحرية لفتح جزيرة صقلية ولكنها أخفقت ولم تمض على ولايته سوى عدة أشهر.

6- كلثوم بن عياض القشيرى:

وصل إلى أفريقية سنة 123هـ فأفتتح ولايته بارسال جيش للقضاء على المنتفعين والخارجين على سلطة الخلافة الأموية وتوجيه بعض الكتائب إلى المدن والمراكز لتعزيز السلطة المركزية فيها ومن هذه المدن القيروان وتلمسان وطنجة وقابس، وكان من نتيجة ذلك أن حصلت بعض الاشتباكات فقتل على أثرها سنة 124هـ.

حنظلة بن صفوان:

وكان عاملا من عمال الخلافة الأموية فى مصر. وقد درج هذا الوالى على سياسة سلفه كلثوم بن عياض فى التصدى للإضطرابات والثورات التى قامت فى نعض مناطق المغرب وأفريقية إذ استطاع أن يخمدها حتى وصلت أخبار انتصاراته على أعداء الخلافة إلى الخليفة هشام بن عبدالملك وهو على فراش الموت سنة125هـ وبعد وفاته غزل عن الولاية.

والمعروف أن هذا الوالى وضع حداً للإنقسامات والفوضى وبذل ما بوسعه للمحافظة على وحدة الدولة العربية الإسلامية. غير أن تولى عدد من الولاة من بعده وصفهم المؤرخون بأنهم ضعاف لم يرتفعوا إلى المستوى إلى مستوى الأحداث التى وصلت إليها الخلافة الأموية فى بلاد الشام، وفى الوقت الذى كان الأمويون يواصلون فيه سياسة التصفية ضد خصومهم فى المشرق الإسلامى مما جعل الخلافة الأموية تترك بلاد المغرب وأفريقية لمصيرها فانقطعت العلاقة بين دمشق وهذه البلاد التى كانت تشكل إقليماً مهماً من الناحيتين السياسية والاقتصادية بين أقاليم الخلافة مما أفضى فى نهاية المطاف إلى إنتقال أمر المغرب إلى الخلافة العباسية فى العراق والتى قامت على أنقاض الخلافة الأموية، فوضع العباسيون سياسة جديدة تجاه المغرب و أفريقية تقوم على أسس وقواعد مختلفة عما كان فى عهد الأمويين.

سياسة الإنفصال في المغرب الاسلامي

ليس من شك في ان مصير المغرب الاسلامي قد تحدد بالتحولات السياسية التي تشكلت في المشرق الإسلامي بعد قيام الخلافة العباسية ومركزها في العراق اذ بدأت تعصف رياح التغيير بظهور الحركات الانفصالية ذات الطبيعة المتذبذبة بين التأييد والاستنكار للخلافة من بعض الأقوام والقبائل الذين دخلوا الإسلام وصاروا في عداد رعايا الدولة العربية الإسلامية مثل القبائل الغربية والأفارقة وربما كان هؤلاء يشعرون بخيبة الأمل بسبب خضوعهم للسلطة المركزية ولأنظمتها وقوانينها ورسومها وهي خارج حدود بلادهم مما اعتبروه تجاوزا واجحافا لحقوقهم فأوجد لهم متنفسا في الانجرار لهذه الحركات الانفصالية تحت ستار الإسلام فضلا عن امتداد الإسلام في رقعة شاسعة ومترامية تقع بين الصين والمحيط الأطلسي ودخول الأقاليم ذات الطبيعة المتباينة من حيث البيئة والموقع الجغرافي في حوزته جعل هذه الأقاليم ومنها المغرب الإسلامي تدين للسلطة المركزية ردحا من الزمن لن تلبس بعدها أن تعود وتنتظم في حركات مستقلة وانفصالية نتيجة للتصور الإداري والسياسي والعسكري للدولة العربية الإسلامية وعدم سيطرتها وبسط نفوذها وبسبب تنائي هذه البلدان عن مركز الحكم ولا ريب في أن ظهور المغرب الإسلامي بشكله المنفصل قد تمثل بصورة واضحة بقيام إمارتي الخوارج الأباضية والصفرية في المغربين الأوسط والأقصى وكذلك في إمارة الأدارسة في المغرب الأقصى حيث شغلت هذه الإمارات الامتداد السياسي من البحر المتوسط شمالا حتى أواسط أفريقيا الوسطى جنوبا ومن (تونس) شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا مضافا إليها مناطق المغرب الأدنى وبعض المغرب الأوسط الشرقية التى امتد فيها نفوذ إمارة الأغالبة الموالية للخلافة العباسية وكانت السياسة التي اختطها المغرب الإسلامي في بداية القرن الثاني الهجري هي سياسة إقليمية انفصالية تمثل في واقعها المصالح الإقليمية للأقوام التي كانت منضوية تحت لواء الخلافة الأموية

والظاهر أن هذه الأقوام قد حققت أهدافها الاستراتيجية بظهور كياناتها السياسية المتمثلة بالإمارات والدويلات التي تبنت سياسة تخالف تماما سياسة إمارات المشرق الإسلامي التي ظلت موالية للخلافة العباسية أن قيام الإمارات المستقلة في المغرب الإسلامي هو صورة جديدة للأوضاع السياسية وقد أوهنت كثيرا في نفوذ الخلافة العباسية وقلصت من مواردها البشرية والمدية إلي حدود قصوى مما أضعفها ومهد إلي أحداث رهيبة ومفجعة للعالم الإسلامي بأسره وذلك بعد مضي ما يقرب مكن ثلاثة قرون من قيام هذه الإمارات حيث تدفقت علي العالم الإسلامي سيول الصليبيين لتعبث في المشرق الإسلامي وخصوصا في بلاد الشام وفلسطين ثم الارتياح المغولي لحواضره ومدنه وبث الرعب والهلع من المسلمين مما أدي في النهاية إلي إسقاط الخلافة العباسية وتدمير بغداد قلب العالم الإسلامي ومحور تمدنه وحضارته ولكن علي الرغم من ذلك وانشغال هذه الإمارات في الصراع السياسي والعسكري فيما بينهم فقد كانت لها جهود مثمرة في نشر الإسلام وتقديم ما هو جديد للحضارة العربي الإسلامية وخصوصا الأغالبة والأدارسة والرستميين الذين ساهموا في ترسيخ بعض المفاهيم الحضارية وكذلك الفاطميين والمرابطين والموحدين وورثتهم من بني مرين وبني عبد الواد وبني حفص حيث يمكن أن ناكد دورهم في تعزيز مكانة الحضارة العربية الإسلامية في المغرب والأندلس.

وهكذا توزع ولاء العناصر التي كان يتكون منها سكان المغرب وخصوصا القبائل المغربية والاندلسيين والأفارقة بين الخوارج [1] والعلويين [2]

---

[1] للأستزادة عن الخوارج انظر المبرد – أخبار الخوارج(للكتاب الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف) يوليوس في الهاوزن – الخوارج والشيعة عمر أبو النصر – الخوارج في الإسلام د/ سهير القلماوي – ادب الخوارج في العصر الاموي د/ محمود اسماعيل الخوارج في المغرب الإسلامي د/ نايف محمود – الخوارج في العصر الاموي.

[2] الطبري وتاريخ الرسل والملوك – الاسفهاني – مقاتل الطالبيين – بن الاثير – الكامل في التاريخ – د/ فاروق عمر فوزي – العباسيون الأوائل، طبيعة الدعوة العباسية، د.حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية.

وموالي بني أمية [1] الذين تلقاهم المغرب عن المشرق فظهرت اتجاهاتهم وتبلورت علي شكل حركات ثلاث الأولي حركة العلويين وأنصارهم قد بنت هذه الحركة ادعائتها بحقها الشرعي في الخلافة لانهم أئمة ورثو علم النبوة وتحملوا عبئ الدعوة لإسقاط الحكم الأموي[2] وقد جعلوا من المغرب ميدان لمقاومة السلطة المركزية والانفصال عنها.

أما الحركة الثانية فهي حركة الخوارج الذين تبنوا المبادئ الحرة التي كانت تنزع إليها القبائل العربية حيث كان اغلب الخوارج من العرب ولعل البوادر الأولي لأفكار الخوارج ظهرت في منطقة الجزيرة الفراطية بين دجلا والفراط شمال العراق وجنوب بلاد الشام اذ كانت مضارب للقبائل العربية النازحة من الجزيرة العربية وكان الخوارج يفضلون الالتجاء إلي مناطق التي تتفق روح أهلها مع مبادئ الحرية لأنها الأساس الذي يقوم عليه مبدأ الخوارج في تبرير الانفصال عن الخلافة ومقاومتها حيث يا كدون أن الإمامة(الخلافة) هي حق متاح لكل مسلم والظاهر أن ذلك يتفق مع نزعة القبائل المغربية الذين حرموا من المساواة.

ونتيجة للإتصال الذي حصل بين الخوارج وبعض القائل المغربية في المغرب بدأت تظهر روحية جديدة لهذه القبائل تغلب عليها النزعة الانفصالية عن الدولة الأموية وتعبر عن نفسها بالتمردات والحركات والثورات ضد عمال الدولة وولاتها هناك وقد استمر الحال حتى خلال العهد العباسي حيث عامل بعض الولاة السكان معاملة دفعت البعض منهم إلي تقبل الآراء الانفصالية ولهذا فما دامت حركات القبائل هذه قد اكتسبت الطابع الانفصالي فهي تلتقي مع أفكار الخوارج في وقوفها ضد الأمويين وولاتهم لأن هذه الأفكار تتسم بالوضوح وعدم الميل إلي الفلسفة

---

[1] وهم الأمويون ومناصروهم الذين أموا المغرب اختيارا أو قسرا هروبا من السبطش العباسي وملاحقاتهم.

[2] من الحركات العلوية في العصر العباسي الأول حركة المدنية سنة 144هـ التي قادها محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس الذكية وهي من اشهر حركاتهم ولكن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور قمعها كما اخمد ثورة إبراهيم أخي محمد النفس الذكية في العراق سنة 145هـ(الاصفهاني-مقاتل الطالبيين-الطبري تاريخ الرسل والملوك-بن الاسير-الكامل في التاريخ)

والتأويل[1] وهي تتلاءم مع عقليتهم وطبيعتهم التي أشار إليها صاعد الاندلسي بتمسكهم بالشريعة وأخذهم بأحكام الملة ونصرهم للدين[2] وقد أكد السلاوى أن مبادئ الخوارج تتلاءم مع الطباع الفطرية لبعض القبائل في المغرب وتتمشي مع أهدافهم السياسية و تخدم شعورهم. فقال: " وحسن موقعها- أي مبادئ الخوارج- لديهم بسبب ماكانوا يعانون من وطأت الخلافة القرشية وجور بعض عمالها فلقنهم أهل البدع- أي الخوارج – أن الخلافة لا يشترط فيها القرشية ودسوا إليهم مع بعض تشديدات الخوارج وتعمقاتهم واروهم ما هم عليه إنما هو من اثار الخشية لله والخوف منهم وان ذلك هو عين التقوى المأمور بها شرعا "[3]

ويتبين لنا، أن القيروان كانت مركزاً لدعاة الخوارج حيث كانوا يتصلون بالمغاربة فانتشرت أراء الأباضيين[4] والصفريين[5] بينهم فضلاً عن جماعات الأفارقة وجماعات السودان القاطنين جنوبى الصحراء ولم تمضي إلا فترة قصيرة حتى تغلغل الخوارج في سائر أرجاء المغرب الأقصي وبعض نواحي أفريقيا

---

[1] فخر الدين الرازي اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص 40

[2] طبقات الأمم ص 12.

[3] الاستقصا لأخبار المغرب الاقصي ج 1 ص 123 (أن قول الخوارج بالاستعراض ورفض اتقية والامر بالمعروف والنهي عن المنكريقابلها لدي قبائل اغلمغرب شدة الميراس وقوة الباس والميل للتطرف) الاسفرائيني التبصر في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرة الهالكين ص 142.

[4] الاباضية فرقة من فرق الخوارج تنسب الى عبد الله بن أباض ألمري التميمي وكانت لهم في مدينة البصرة في العراق مقرات سرية يجتمع فيها دعاتهم وانصارهم لدراسة المذهب وقد اصبحت لفهم التنظيملت دقيقة مبنية علي اسس مدروسة ويعد جابر بن زيد الازدي العماني المؤسس الحقيقي لهذه الفرقة وكان من اعظم علماء عصره بالشريعة والفقة الإسلامي وكان خليفته أبو عبيده مسلم بن أبي كريمة أدرك صعوبة نجاح الاباضية في المشرق فرأي إن ينطلق الدعاة إلي بلاد المغرب انظر للاستزادة: د. سوادي عبد محمد – اباضية البصرة وتأثيراتها الفكرية والسياسية في اباضية المغرب في القرن الثاني الهجري بحثه في مجلة كلية التربية العدد8 – 1982.

[5] تنسب إلي عبد الله بن صفار مؤسسها وان أول من جاء يطلب مذهب الصفرية بقيروان افريقية عكرمة مولي بن عباس حيث قدم من العراق ومعه سلمة بن سعيد يدعو إلي الاباضية (أبو ذكريا- السيرة الورقة 12 وإخبار الائمة).

والمغرب الأدني وقد أكد ذلك بن خلدون بقوله:" أن الصفرية قد فشت مقالاتها في سائر القبائل بافريقية " [1] .

كما ظفرت بلاد المغرب باهتمام الاباضين حيث أصبحت ميدانا لتحركات الخوارج فمنذ أوائل القرن الثاني الهجري اجتهد الاباضيون لنشر أرائهم بين المغاربة فاكتسبوا كثيرا من الأنصار و المؤمنين في إقليم طرابلس و جبل نفوسة حتى أصبحت منطقة هذا الجبل (دار هجرة) للأباضين في المغرب عامة [2] و لعل رسوخ المبدأ الإباضي في جبل نفوسة مهد الطريق لانتشاره بين قبائل، هوارة و لماية و زناتة و سدراتة و زواغة و لواتة و بين كثير من القبائل المغربيين الأدني والأوسط و هكذا أصبحت بلاد المغرب في أقل من ربع قرن، معقلا لنشاط الخوارج وبدأو أحقبة جديدة في تاريخ هذه البلاد حيث عملوا علي انفصالها عن الدولة العباسية و بذلك استطاع الأباضيون و الصفريون إقامة إمارتين قدر لهما أن تلعب دورا مهما في تاريخ العالم الأسلامي.

غير أن حركات الخوارج كانت تعاني من السلبيات المتمثلة بعدم التعاون بين الأباضيين و الصفريين في المجالات السياسية و الدينية فضلاً عن الخلافات فيما بينها وبخاصة فيما يتعلق بالموقف من الخلافة العباسية كما عانت تنظيماتهم وحركات من الانشقاقات بسبب سوء فهمهم لمبادئ بعضهم البعض الأخر و إسرافهم في تطبيق تعاليمهم وعدم وجود أي تنسيق بين حركاتهم في المغرب مع ما يشابهها في المغرب مع يشابهها في المشرق الاسلامي من حركات وثورات أما الحركة الثالثة التي كان من المقدر أن يشهدها المغرب الاسلامي فتتمثل ببعض الجماعات من أمويي الشام الذين نجحوا من مطاردة العباسين مع موالهم و فلولهم إذا التجؤا إلي هذه البلاد ملتمسين إعادة مجد دولتهم في هذا الطرف البعيد عن مركز الدولة العربية العباسية بكونهم يمتلكون سابقة في الحكم و لهم تراث فني

---

[1] العبر وديوان المبتدا والخبر ج4 ص189.

[2] ابن حوقل صورة الأرض ص 68.

يستندون إليه في قواعد الحكم غير أنهم لم يلبثوا أن اتجهوا بأنظارهم نحو الأندلس بسبب ظروف المغرب غير المواتية لهم في استقطاب القبائل المغربية التي لاقت الأمرين من المؤيدين والأنصار و كان عبد الرحمن بن معاوية الداخل يتزعم هذه الحركة فكان ينتقل في ربوع المغرب مستترا بواسطة قبيلة نفزة الذين هم أخواله[1] لعلة يجد له موطأ قدم و ذلك قبل أن يمهد لنفسه و لأتباعه للعبور إلي الأندلس.

ولا شك في أن عبد الرحمن بن معاوية وأنصاره من الأمويين ومواليهم لم يقتنعوا بدورهم في افريقية ولم يجنوا منها ربحا، حيث صدموا بواقعها الذي لا يخدم طموحهم و لا يحقق أهدافهم في إقامة دولة الأمويين هناك فكان المغرب بقبائله و فصائل ينظرون إلي الأمويين، نظرة شك فلم يلقوا منهم التأييد حيث كان بعض ولاة الأمويين قد عاملوا السكان معاملة فيها كثير من الازدراء والاضطهاد و زعموا أن قبائل المغرب تمثل فيئا للمسلمين.

---

[1] علي الرغم مما كان يربط بين قبيلة نفزة و الأمويين من أواخر النسب و القربى فقد كانت أم عبد الرحمن و اسمها راح أو ردان من سبي هذه القبيلة ولكن لم تنفع محاولات أخواله في إقناع أهل المغرب بإقامة امارة مستقلة هناك الأمر الذي جعل الأمويين يتجهون صوب الأندلس علي أية حال فإن المعلومات قليلة جدا عن النشاط الذي ابداه الأمويون في المغرب لإقامة دولتهم 0 مجهول أخبار مجموعة ص 55 ابن عذاري البيان المغرب ص 61، 71

الباب الثاني

قيام الإمارات والدول وأحوالها وعلاقاتها السياسية و الإدارية

ثمانية فصول

الفصل الرابع

إمارة بني مدرار في المغرب الاقصي

1- إمارة بني مدرار وتأسيس مدينة سجلماسة

2- العلاقات السياسية:

أ- بنوا مدرار والخلافة العباسية

ب- بنوا مدرار وبنوا رستم

ج- بنوا مدرار والإمارات

الفصل الرابع

إمارة بني مدرار في المغرب الاقصي

(140- 354هـ / 757- 965م)

انتشرت أراء الخوارج الصفرية في بلاد المغرب في بداية القرن الثاني الهجري علي أيدي الدعاة العرب الخوارج الذين لجؤا إلي هذه البلاد وقد اتجهت الدعوة الصفرية إلي القبائل المغربية العنارية في المغرب الاقصي و من زعماء القبائل الذين تيسر لهم الاتصال بهؤلاء الدعاة المشارقة ميسرة المطفري زعيم قبيلة مطفرة الذي كان قد تلقي العلم علي يد عكرمة بن عبد الله المغربي مولي عباس أحد فقهاء مكة وتابيعها وكان عكرمة بن عبد الله من أصل مغربي مما أتاح له نشر أرائه في هذه الربوع بأسلوب منظم قائم علي الدعوة السرية ومن الزعماء الآخرين الذين اتصلوا بعكرمة في القيروان أبو القاسم سمغو بن واسول المعروف بمدرار شيخ قبيلة مكانسة الذي تبحر في دراسة أراء الخوارج الصفرية و أصوله وفروعه حتى وصف بأنة من مشاهير حملة العلم وانتشرت أراء الخوارج في قبيلة برغواطة علي يد طريف بن شمعون الذي إلتقي هو الآخر بعكرمة بن عبد الله في القيروان و في قبيلة زناتة التي ساهمت في الحركة السياسية التي قامت فيما بعد.

ويرد ما يشير إلي أن بعض المشارقة المقيمين بأفريقيا دانوا بآراء الصفريين، وكان هؤلاء قد تسربوا إلي بلاد المغرب بصحبة الجيوش القادمة من المشرق بهدف الفتح ولكن لم يكن لهم علي ما يبدوا أي تأثير فكري أو سياسي يذكر.

ونتيجة لانتشار أفكار الخوارج الصفرية ومبادئهم في المغرب الأقصى لم تحجم جماعات الأفارقة الذين اختلطوا بالروم عن اعتناقهم لها علي يد زعيمهم عبد الأعلى بن جريج الذي تتلمذ علي يد عكرمة بن عبد الله في القيروان وكان هؤلاء الأفارقة أكثر تحضرا من غيرهم من السكان لكنهم أخذوا علي أمرهم مما ترتب علي تحولهم للصفرية نتائج مهمة في الصراع مع الولاة الأمويين الأواخر و الولاة العباسيين كما امتدت تعاليم الصفرية و أفكارها إلي جماعات من بلاد السودان

الذين كانوا يقطنون جنوب السودان و قد ارتضوا مباديء شـيخ قبيلـة مكانسـة سمغو بن واسول التي كانت تدعو إلي المساواة السياسية.

ويلاحظ مما عرضته المصادر، أن آراء الصفرية تغلغلت فـي جميـع أرجـاء المغرب الاقصي وبعض مناطق المغرب الأدنى وافريقية والسودان في مدة قصيرة إذا قورنت بآراء الأباضية في المغرب الأوسط. و قد اتخذت حركـاتهم السياسـية طابعا عمليا إذا اتجهوا إلي المناطق الصحراوية النائية فـي المغـربين الأوسـط والاقصي وعولوا علي إقامة إمارتهم في جنوب المغرب الاقصي وفي منطقة إقليم " تافيللت " بأقصى الصحراء من قصبة سجلماسة مركزا لهم سنة 140 هـ/757م.

إمارة بني مدرار و تأسيس مدينة سلجماسة

عَوّل الخوارج الصفرية علي تأسيس مركز سياسي وعسكري لهم يكون بمثابة عاصمة ومعسكراً يستجمعون فيه قواهم الموزعة في مناطق مختلفة من المغرب و كان لابد لهذا المركز أن ينأى بعيدا عن سلطة الولاة العباسين وعمالهم فاتجهوا إلي قصبة سلجماسة علي وادي نهر ملوية الذي يقع في إقليم (تافيللت) بأقاصي الصحراء الكبرى.

وكان أبوالقاسم سمغو بن واسول المكناسي المعروف بمدارار، قد حشد قبائل مكناسة وصنهاجة وزويلة وبعضا من زنوج السودان والاندلسيين للإلهام في بناء مدينة سلجامة و إقامتها غير انه قبل الشروع في العمل بادر إلي مبايعة عيسي بن يزيد المكناسي الذي كان من اصل سوداني ومن زعماء الصفرية البارزين في هذه المنطقة و حمل قومة علي طاعته لتمكينه في المشروع بتخطيط المدينة و بنائها و القيام بمهمة التجميع السياسي و العسكري المنشود و منذ سنة 138 هـ شرع في العمل و بعد سنتين اكتمل بناؤها و أتقنت أسوارها و قسمت مياهها من خلجان و غرست بالنخيل و كان سمغو بن مأمول في الأصل صاحب ماشية كثيرة ينتجع موضع سلجامة و يتردد إليها و لذلك فهو يدرك أهمية موقعها من الناحيتين الاستراتيجية و الاقتصادية.

إن مبايعة قبائل الصفرية ليس بن يزيد المكناسي يمثل في حقيقته قوة عناصر السودان في داخل الحركة الصفرية في إقليم تافيللت و قد حدث ذلك في السنة التي اختطت فيها سلجماسة لتكون حاضرة للإمارة و مركزا لقبائل الصفرية سياسيا و اجتماعيا لقد حرص الصفريون علي إنشاء مدينتهم في مكان حصين، اذ أقاموها وسط الصحراء جنوب تلمسان و في موضع التقاء فرعي نهر ملوية ثم أقاموا حصناً داخل المدنية أطلقوا عليه اسم" العسكر" كما أسسوا المسجد الجامع و دار الإمارة ثم بني الناس دورهم حول الحصن فاتسع العمران حتى جاورت المدينة فرعي نهر ملوية.

ومن الجدير بالإشارة إلي أن معماري الأندلس أسهموا في بنائها. أما ســورها فقد ابتنى سنة 205 هــ و له اثنا عشر باباً، أهمها الباب القبلي والباب الغربــي وباب غدير وباب الجزارين وباب موقف زناته و قد اصبحت سجلماسة بعد اكتمال بنائها ملجأ لجموع الصفرية و لجميع اللائذين بها والهاربين إليها من أرجاء العالم الاسلامي، سواء من المغرب والمشرق و بذلك حققت أهدافها المرسومة لها سابقا علي يد زعيم مكناسة سمغو بن واسول في تجميع القبائل الموالية له و خلق كيان موحد لهم. غير أن أبا القاسم سمغو بن واسول لم يتول الحكم، بل عهد بــه إلــي عيسي بن يزيد المكناس وقد حكم هذا الأخير خمسة عشــر عامــاً، لــيس لــدينا معلومات كافية عنها و الموجود منها يتسم بالإبهام وأكثره يجمع علي انه نتيجــة لسياسته فقد سخط عليه أهل سجلماسة وانتفضوا ضده وقتلوه[1] وذلــك لمآخــذ انكروها عليه لا يتطرق المؤرخون إلي ذكر تفصيلات مهمة عنها ولعل انحرافــه وإسرافه والاشتراط في أحكامه كان من الأسباب التي أدت إلى قتله بطريقة قاسية تنم عن التطرف والميل إلي العنــف.

ويبدو أن عيسي بن يزيد لا يرقي إلي منزلة سمغو بن واسول من حيث السابقة في اعتناق الآراء أو الأفضلية في العلم، فتولي أمر سجلماسة و عكف طوال مــدة حكمة 155-168هــ -772هــ-784م علي إرساء قواعد إمارته ورأي انه ليس من الحكمة الوقوف من العباسيين وولاتهم و مالهم في المغــرب موقفــا يتســم بالعداء، و ذلك و ذلك بغية انصرافه إلي حل المشكلات التي كانت تواجه إمارته و لضمان سلامتها وأمنها وتحقيق استقراها في المنطقة، مما اضطره علي مســالمة الولاة العباسين وربما وعدهم بتبعية اسمية مع الاحتفاظ بالاستقلال السياسي عن السلطة الخلافة وتأثيراتها؛ وأثمرت سياسة سمغو بن واسول و ساد الاستقراء في إمارته غيران ابنه الياس الملقب بالوزير الذي خلفه حاد عن أبيه فثار عليه أهــل

---

[1] و جاء أهل سجلماسة قبضوا علية و شدوا وثاقه إلي اصل شجرة في سفح جبل ثم طلوه بالعســل و تركوه حتى قتله النحل والحشرات (ابن عذاري البيان المغرب ج 1 ص 152).

سجلماسة سنة 173هـ وخلعوه ونصبوا أخاه إليسع الملقب بأبي المنصور 208/173 هـ.

ويمكن القول، أن اليسع بن سمغو المدراري هو المؤسس الحقيقي لإمارة بني مدرار فقد استطاع هذا الأمير أن يرسي دعائم إمارته ويكرس السلطة الكاملة لبني مدرار في سجلماسة التي اصبحت في عهدة مركزا سياسيا مهما حيث أتم بناءها و تشيدها واختلط بها المصانع و القصور[1] و اتبع سياسة شديدة إزاء القبائل المعارضة لحكمة كما أولي اهتمامه إلي الحركة العمرانية في المدينة إلي إحياء لكل قبيلة حيها مما كان له اثر مباشر علي الأمن والاستقرار فيها كما ترتب علية ازدهارها وتقدمها فأصبحت حاضرة و مركزا من مراكز الحكم القوية في بلاد المغرب الاسلامي.

وتولى بعد اليسع ابنه مدرار الذي لقب بالمنتصر وللأسف فان المصادر لا تمدنا بمعلومات عنه سوي ما يتعلق بالصراع الذي نجم عن تولية ابنه ميمون "من زوجته أروى وهي ابنة عبد الرحمن بن رستم أمير الإمارة الرستمية المعاصرة لهم ".

وكان ميمون هذا قد استبد بالأمر وأساء السيرة في رعيته فخلعة أهل سجلماسة ونصبوا أخاه الأخر ميمون " من زوجته تقية " ومكث الأخير يحكم الإمارة حتى سنة 263هـ وفي عهد ابنة محمد بن ميمون تفاقم خطر الفاطميين علي إمارة بني مدرار وبدأ يهددها بالقضاء عليها ولكن في عهد عمة اليسع بن مدرار حال دون قيام الفاطميين بتحقيق أهدافهم حيث استطاع اليسع بن مدرار القبض علي عبيد الله المهدي منظم الدعوة الفاطمية ورأسها وابنة القاسم في مدينة سجلماسة وإيداعها السجن إلي أن زحف أبو عبد الله قائد الجيوش الفاطمية نحو سجلماسة و أسقطها و حررهما من السجن سنة 290هـ.

---

[1] ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدا و الخبر ج6،ص 268 .

غير إن السلطة في مدينة سجلماسة عادت مرة أخري إلي بني مدرار حيث ثار أهل سجلماسة علي عامل الفاطميين و قتلوه و قدموا علي أنفسهم الفتح بن ميمون بن مدرار الملقب بالرسول سنة 298هـ ثم خلفه أخوه أبو العباس احمد سنة 300هـ و لكن الفاطميين أطاحوا به سنة 309 هـ ثم استمر الصراع حول السلطة بين أسرة بني مدرار إلي أن تولي محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار سنة 332هـ و تلقب بالشكر لله وقطع العلاقات مع للفاطميين و نبذ أراء الصفرية الخوارج وأخذ بمذهب أهل السنة وتسمي بأمير المؤمنين وكان الشاكر لله عادلا حسن السيرة و لكنة كان يمثل خطرا علي النفوذ الفاطمي في المغرب الاقصي وعلي الرغم من الحملة العسكرية التي جردها الفاطميون بقيادة جوهر الصقلي في خلافة المعز لدين الله و دخولها سجلماسة سنة 347هـ و قتلها الشاكر بالله فان السلطة السياسية في سجلماسة استمرت في بني مدرار حتى سنة 354هـ فقد حكم ولدا الشاكر وهما المنتصر بالله 347-352هـ و المعتز بالله 352-354هـ

العلاقات السياسية

بنو مدرار والخلافة العباسية:

لقد انصرف اهتمام الخلافة العباسية وولاتها في القيروان إلي الاحتفاظ بأفريقية فأسقطوا أقاصي بلاد المغرب التي ينتشر فيها نفوذ بني مدرار من حسابهم بعد أن انسلخت فعلا عن نفوذهم و ذلك بفضل النضال القاسي الذي قام به الخوارج الصفرية مع ولاه بني عباس و الذي استمر روحا من الزمن تعرضوا فيه إلي التنكيل من المطاردة والبطش ما أفضي بهم إلي الانطواء داخل بلادهم النائية ولم يكلفوا أنفسهم مشقة إعداد الجيوش من سجلماسة لخوض حروب مع الجيوش العباسية ربما تكون غير مأمونة العواقب ومن الناحية المبدئية فقد اتخذت العلاقات شكل عداء لم يصل إلي درجة معقدة يتطلب معها قيام الحروب بين المدراريين و العباسين، وذلك لان كلا منهما شغل بمشكلاته الذاتية عن مناجزة خصمه وبمرور الزمن فإن الموقف العباسي اخذ يتسم بالاعتدال إزاء المدراريين.

ويخيل إلينا أن السبب في عزوف بني مدرار عن مناجزة العباسيين، ربما يقوم علي أساس أن الأمراء سجلماسة هم بمثابة عمال للعباسيين وهم يعترفون بالتبعية لهم و يدعون إليهم أو انهم كانوا يدخلون في علاقات التبعية للعباسين رويداً رويداً، أو كانوا يتبعون بغداد اسمياً و لعل المداريين إنما وقفوا هذا الموقف بسبب التهيب المشوب بالخوف من ولاة الخلافة في المغرب الاسلامي من أمثال يزيد بن حاتم [1]و خلفائه ممن عرفوا بقوه البطش و ملاحقة حركات الخوراج إن قدام سمغو بن ماسول في إقامة الخطبة للخليفة أبي جعفر المنصور و ابنة المهدي من بني العباس في بلادة يدخل في إطار مبدأ (التقية) الذي تجيزه أراء الخوارج و تحاشيا لأخطار محدقة بإمارته و هي ما تزال بعد فتيةً.

ولكن ما دام العداء تقليديا و مستحكما بين العباسين و الفاطميين فإن أية قوة في العالم الاسلامي تفادي احدي هاتين القوتين، لابد وأن يفهم إن موقفها من الطرف الأخر ودي وأن المصادر في الأقل توحي إلي هذا الفهم، إن بوضوح أو من طرف خفي، ولما تبين موقف بني مدرار المعادي للفاطميين، أوحى أن علاقاتهم كانت ودية مع العباسين حتى أوصلتها بعض المصادر إلي حد التحالف بين الطرفين.

من المحتمل تقرب الشاكر لله لحد أمراء المداريين من العباسين ربما كان لغرض التأليب ضد الفاطميين و بخاصة عندما اخذ هذا الأمير بمبدأ أهل السنة و ضرب العملة باسمة و لقب نفسه بأمير المؤمنين و لكي لا يصح أن نؤكد التعميم حتى ولو أشار القلقشندى إلي أن الشاكر لله " دعا لنفسه مموهاً بالدعاء لبني العباس"[2]

---

[1] وهو يزيد بن حاتم بن قصيبة بن المهلب بن أبي الصفرة و هو أول وال في بلاد المغرب الاسلامي (انظر ابن عذاري – البيان المغرب ج 1 ص 87 ابن الخطيب أعمال الأعلام ج 3 ص 8-9 .

[2] القلقشندى، صبح الاعشي في صناعة الانشاج ،ج5 –ص167 .

أما حادثة وقوع عبيد الله المهدي [1] رأس الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب و معه ابنه أبو القاسم [2] في قبضة اليسع بن أبي القاسم بن مدرار و إيداعه السجن في مدينة سجلماسة لا يعرف فيما إذا كان بإيعاز من الخلافة العباسية أو وفقاً لمشيئتهم أو ترضية لهم أو كان الحادث عرضيا كما أنه لا يمكن أن تعتمد بعض الروايات المضطربة كذريعة للقول بأن العلاقات كانت ودية بين بني مدرار و بني العباس، لان أمير سجلماسة اليسع بن أبي القاسم بن مدرار كان علي مذهب أهل السنة بما تدين به الخلافة في الوقت الذي كان هو علي مبدأ الخوارج[3].

ومهما يكن من أمر، فلا يصح اعتبار حادثة سجن عبيد الله المهدي قرينة علي توطد العلاقات العباسية المدارية، فأجراء اليسع بن مدرار لا يستهدف "مرضاة الخليفة " لأنه كان علي طاعته و لكن يمكن القول أن عبيدالله المهدي كان يمثل خطراً على سائر كيانات المغرب فضلاً عن أن أليسع بن مدرار كان معروفا بالحذر والقوة وكان يستريب من أي داخل إلي حاضرته أو مستجير بها أو لائذ إليها، فلا بد أن يستوقفه فيما يقوم به عبيد الله المهدي من التجوال في بلدان المغرب الاسلامي وإغداقه الأموال والهدايا علي حكامها.

وفيما يتعلق بالخطر الذي يمثله الفاطميون علي مسرح الأحداث في المغرب يجعل بني مدرار في حذر تام منة و خصوصاً في عهود أواخر أمرائهم و لكن بالنسبة للخطر العباسي فقد فات أوانه فهو الآن لا يشكل تهديدا مباشرا لإمارة بني مدرار و للمبدأ الصغرى الخارجي كما هو الحال في المشرق الاسلامي حيث عمد العباسيون إلي استئصال شأفة الخوارج الصفرية في مدينه قنسرين و منطة

---

[1] و هو أبو محمد عبيد الله بن جعفر بن اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ابن عذاري، البيان المغرب ج 1 ص 158 - 159 ؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام ق 3 ص 50 .

[2] و قد أصبح يعرف بالخليفة القائم بأمر الله بعد أن حكم بعد أبيه.

[3] أورد بن خلدون روايتين في هذا الصدد اولاهما أن الخليفة العباسي المعتضد بالله هو الذي أوحي إلي بن مدرار بالقبض علي عبيد الله المهدي فيما يذكر في الرواية الثانية أن اليسع استجاب لطلب الخليفة العباسي المكتفي بالله كما أن هاتان الروايتان لا تحددان ما إذا كان الخليفة العباسي أم الأمير الا غلبي هو الذي بعث ليبحث اليسع علي القبض علي عبيد الله المهدي(العبر و ديوان النبأ أو الخبر ج 2 ص 350-351)

الموصل و بلاد الجزيرة الفراتية وأرض السواد في العراق فأبادوا جموعهم وقتلوا زعماءهم وبطشوا بجيوشهم ولكن هل أن علاقات بني مدرار المبنية علي العداء مع الأغالبة الذين كانوا يدينون بالولاء السياسي و التبعية للعباسين ينعكس سلباً مع علاقاتهم مع الخلافة أم إن ذلك ينحصر في السياسية التي كان يتبعها الأغالبة بعيدا عن التأثير العباسي؟ إننا نقرأ عن تعرض فقهاء الصفرية و أتباعها لاضطهاد الأغالبة ووصمهم بالزندقة و المروق عن الدين و تشتيت اجتماعاتهم أثناء الصلاة في المساجد وتبديد حلقاتهم في مدينه القيروان ومنعهم من مزاولة مهنه تعليم الصبيان وتأديبهم وملاحقة المخالفين منهم وتعريضهم لمزيد من البطش والتعنيف.

علاقة بني مدرار مع بني رستم:

كانت العلاقات بين الطرفين قد اتسمت بطابع ودي ربما كان ذلك بسبب مواجهتهم عدواً مشتركاً واحداً هو الخلافة العباسية التي كانت تنظر إلي الخوارج بصوره عامة -صفرية أو اباضية، أعداءاً تقليدين لها كما أن الرستميين ربما في هذا الموقف أوتوا مرونة وبعد نظر سياسى فضلاً عن استيعابهم للظروف التي كانت تلف المنطقة بأسرها فقد غضوا الطرف وتحاشوا الخلافات مع جيرانهم المدراريين بخاصة الذين شعروا بانهم يرتبطون وإياهم بوحدة المصير المشترك فكانا دوماً يظهرون مودتهم لبني مدرار ورغبتهم في السلام والموادعة الأمر الذي جعل بني مدرار يستجيبون لهم وذلك علي الرغم ما كلف الرسمتين كثيرا من التغاضي و التضحيات والظاهر إن السبب الذي دفع بني رستم إلي هذه السياسية مع المدراريين ربما يكمن في إن عدة ألاف من الخوارج الاباضية كانوا يقيمون في سجلماسة قد لعبوا دوراً في مناهضة أمرائها وإنهم كانوا موالين لرؤسائهم من مشايخ الاباضية أكثر من ولائهم للإمارة التي كانوا يعيشون في كنفها، وقد درجوا علي إرسال زكاة أموالهم إلي مشايخهم في تاهرت ليصرفوها حيث شاؤا[1]. وعندئذ فلابد للرستمين من تولية الظهر لكل شقاق و الإحجام عن إذكاء الفتن التي كانت تبرز من خلال احتكاك أنصار المبدئين أو الأقليات في كلتا الأمارتين كما أن

[1] د. محمود اسماعيل -الخوارج في المغرب الاسلامي ص 159.

المصاهرة السياسية التي عقدت أواصرها بين الرستميين والمدراريين [1] خففت كثيرا من غلواء تطرف بعض الفئات التي لم يكن يروق لها أن تري الرستميين يوادعون بني مدرار ويسالمونهم [2] وساهمت علي تحقيق التضامن والوئام بين إمارتي الخوارج وعزوف كل منهما عن التدخل في الشؤون الداخلية للطرف الأخر [3] .

علاقة بني مدرار مع الأدارسة:

كان طابع العداء هو الغالب علي العلاقات السياسية بين المدراريين و الأدارسة و لعل السبب يكمن بالدرجة الأولي في الخلافات المبدئية فالمعروف أن الخوارج عموما و الصفرية بصورة خاصة كانوا يضمرون عداءا تقليديا للعلويين و للأدارسة لزيد بين علي وجه الخصوص كما أن العامل التاريخي في رسم العلاقات بهذا الإطار يمكن استقراؤه بوضوح من خلال عوامل قيام ادارة الأدارسة في المغرب الاقصي سنة 172هـ-789م الذي كان علي حساب الخوارج الصفرية ونفوذهم في هذه المنطقة حيث اكتسح الأدارسة كل وجود للقبائل التي تدين بالمبدأ الصفري و عرضوها للبطش و التنكيل وأصبح لا مناص للطرفين من خوض الصراع ضد بعضهما ومن المرجح أن الأدارسة كانوا وضعوا خطة لتصفية الخوارج الصفرية و لكنهم علي ما يبدوا عزفوا عن تحقيق ذلك بسبب صراعهم الحاد و تفاقمه مع الأغالبة الذين سخرتهم الخلافة العباسية لمناهضة الأدارسة فقد نجحوا في إثارة القلاقل وحيك المؤامرات في وجه أمراء بني مدرار و العمل علي القضاء عليهم و تصفيتهم [4].

---

[1] تم تزويج (اروي)ابنة عبدالرحمن بن رستم من (مدرار)الذي تغلب علي أخيه(ميمون)من امرأة أخري بويع أميرا على سجلماسة.

[2] يقول النفوسي: (و قبل الإمام رغم اعتراض المعترضين و المنكرين) الإزهار الرياضين ج2،ص92 .

[3] د. محمود اسماعيل، المصدر نفسه ص 105 .

[4] اغتالوا إدريس بن إدريس (الأول)173-177هـ بإيعاز من الخليفة هارون الرشيد اغتاله سليمان بن جرير المعروف بالشماخ .ثم اغتالوا إدريس الثاني 187-213هـو كذلك مولاهم ارشد الذي كان صحب إدريس الأول من المشرق الاسلامي (البكرى-البيان المغرب ج 1 ص 210-211- لسان الدين بن الخطيب – أعمال الأعلام ص 192-194-202 .

وعلي الرغم من أن المدراريين كانوا يسعون في الخفاء للقيام بالـدور نفسـه الذي كان يقوم به الأدارسة ولكن ظروف المنطقة لم تكن تسعفهم لتحقيق مسعاهم حيث تصاعد الخطر الفاطمي وبات يهدد الجميع فعلـيهم أن يتـدبروا و سـائلهم لتنادي هذا الخطر في الوقت الذي لم يكن وصفهم يسمح لهم في الوقـوف أمـام الزحف الفاطمي المتفاقم في جميع أنحاء المغرب الاسلامي و افريقية.

والظاهر أن الطرفين لم يعدما وسائل المكائد والدسائس ضد بعضهم البعض فقد اتخذ العداء السياسي بينهما مظاهر من الفعل ورد الفعل كان الأدارسة يمسـكون فيها بزمام المبادرة فيم كان بنو مدرار يلوذون بالصمت حيناً ويتصدون لمواجهته حين أخر وأوضح صوره لهذا الصراع ما قام به الادراسة من غـزو المـدراريين الذين كانوا ثلاثة أضعاف جيشهم ولكن رغم ذلك فإن الأدارسة أوقعوا فيهم الهزائم ووصلوا في غزوهم إلي مدينة تلمسان التي تضم قبائل موالية للمـدراريين ولـم يستطع المدراريون في مدينة سجلماسة من إنجاد إخوانهم في تلمسانة واستنقادهم من ضربات الأدارسة ويعزي ذلك إلي استحالة الاتصال بين سجلماسة وتلمسـان إلا عبر أراضي إمارة الأدارسة حيث كان الطريق إليها يمر بدرعة وفاس ومنهـا إلي تلمسان.

ومن المرجح أن بني مدرار كانوا يحرضون زملائهم من الخـوارج الصـفرية المقيمين في غاس ضد الأمراء الأدارسة يذكر البكرى معلومات حول قيـام عبـد الرزاق الصفري و هو من عدوه الاندلسيين داخل مدينة فاس بثورة ضد الأميـر علي بن عمر بن إدريس وفشلها، ولكن هذا المؤرخ لم يشر إلي أن هذه الثـورة كانت رد فعل من جانب بني مدرار وان عبدالرازق الصفري هو احـد صـنائعه[1] ولكن من المؤكد أن هذه الثورة أحدثت تصديقاً في إمارة الأدارسـة ممـا جعلـت المدراريين يعدون العدة لبسط نفوذهم واكتساح الأدارسة لكن جهودهم فـي هـذا الصدد باءت بالفشل وذلك بسبب تعرض بلادهم للخطر الفاطمي.

---

[1] ويسميه لسان الدين بن الخطيب (عبد الرازق الفهرى الخارجي)أعمـال الأعـلام ق 3 ص 208 و يضيف البكرى إلي أن هذا الثائر كان أصله من الإندلس ومن مدينة وشتة الواقعة فـي إقلـيم اراكـون بأسبانيا(المغرب ص 125).

الفصل الخامس

إمارة بني رستم في المغرب الأوسط

1-إمارة عبد العلي بن السمح المعافرى

2-الإمارة الرستمية وتاسيس مدينة تاهرت

3-العلاقات السياسية

ا-الرستميون والخلافة العباسية

ب-علاقات الرستميون بالأدارسة

ج-العلاقات بين الرستميين وأمويي الأندلس

الفصل الخامس

إمارة بني رستم في المغرب الأوسط

144-336هـ/761-947م

إمارة عبد الاعلي بن السمح المعافري 140-144هـ/757-761م[1] :

وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح، عربي من اليمن اختاره أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي البصري الذي كان من أبرز علماء الخوارج الاباضية لينضم إلي ما عرف بتاريخ الإباضيين "حملة العلم الخمسة"[2] لقيادة الثورة الاباضية في المغرب و لرئاسة الإمارة الاباضية المقبلة و ذلك لغزارة علمه وتفهمه العميق في الدين و مهارته في الاستنباط و للتأكيد علي تغليب العنصر العربي في هذه الحركة وإعطائها طابعاً عربياً في بلاد المغرب الاسلامي.

وقد استطاع عبد الاعلي بن المسح إعلان قيام إمارته في موضع غربي طرابلس يعرف باسم (صياد)ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى تمكن الإستيلاء علي طرابلس واتخذها مركزاً وقاعدة له مما ساعده علي بسط سيطرته علي المنطقة الواقعة من برقة شرقاً حتى القيروان غرباً وإلي فزان جنوباً.

غير إن الحركة التي كان يتزعمها عبد الاعلي بن عبد السمح المعافرى فشلت بسبب تخلي القبائل المغربية عنه في وقت عصيب كان قد تعرض له، ربما علي اغلب الاحتمال إن سياسته التي اتبعها في تنظيم الجيش باستبعاد بعض العناصر دفعت هذه القبائل لهذا الموقف، حتى إن بعضهم من الإباضيين علي حد قول ابي

---

[1] انظر الفصل الثالث "عصر الولاة " ص 15.

[2] تركزت دعوة الاباضية في المغربيين الادني و الأوسط و تحمست لها بعض قبائل المغرب ورغبوا في التعمق في دراسة مبادئها ولكن لم يكن لهم أن يحققوا ذلك الا في المشرق فرحل فريق من علمائهم إلي البصرة للأخذ علي ابي عبيدة مسلم بن ابي كريمة وكان قد رحل إلي هناك خمسة أطلق عليهم "حملة العلم الخمسة" في مقدمتهم عبد الرحمن بن رستم من القيروان وعاصم السدراتي من غرب الاوراس وأبو داود القبلي النفزاوي من قبيلة نفزة جنوبي افريقية واسماعيل بن ضرار الغدامسي من غدامس جنوبي طرابلس (سليمان الباروني مختصر تاريخ الاباضية ص 35).

زكريا بعد مقتل عبد الاعلي " انتقموا وتشفوا بالجند الموالين لأبي الخطاب وأخذوا يمعنون في البطش فيهم "[1] أما العامل الأخر الذي أودي بالحركة الاباضية السياسية والعسكرية التي كان يقودها عبد الاعلي بن السمح فهو الموقف الذي اتخذه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور حيث أوعز إلي عامله محمد بن الاشقت الخزاعي بتجريد جيش سنة 142هـ لاجتياح طرابلس و سحق الجيوش الاباضية غير إن الجيش العباسي بقيادة عمرو بن الاحوص القجلي هُزم أمام الجيش الإباضي في منطقة "مغمداس"[2] وربما هي غدامي الحالية، مما جعل الخليفة يهتم بمعالجة توسع الحركة الاباضية و تهديدها للنفوذ العباسي في المغرب و مصر وحتى في بلاد الشام فأوعز إلي والي مصر محمد بن الاشعث مرة أخري بتولي افريقية التي كانت وليت إلي عبد الرحمن بن رستم قاضي طرابلس الذي ولاه إياه رفيقه في العلم عبد الاعلي بن السمح[3] .

لقد أعد العباسيون في هذه المرة جيشاً يقول عنه بن عذاري بأن عدته أربعون ألف مقاتل [4]عهد بقيادته إلي ثمانية وعشرين من القواد في مقدمتهم الأغلب بن سالم التميمي [5]والمحارب بن هلال [6]والمخارق بن غنار الطائي [7]وقد زحف هذا الجيش بعدته نحو مدينة برقة واتخذ من مناطقها القريبة قواعد لعساكره يترقب الفرصة للانقضاض علي الإباضيين وإبادتهم وتخليص النفوذ العباسي وسطوته من

---

[1] السيرة و أخبار الأئمة الورقة 12.

[2] وجاء عند مزاري مقداس علي شاطئ البحر البيان المغرب 1 ص 71.

[3] ومعروف أن اختيار عبد الاعلي لرفيقة عبدالرحمن بن رستم و هو من حملة العلم الخمسة ليكون قاضيا في طرابلس كان له أهمية كبيرة في التاريخ اللاحق للحركة الاباضية و نجاحها في إقامة الإمارة علي اسس صحيحة بعيدة عن الأخطار المحتملة التي كانت تسببها له الجيوش المعادية من حين لأخر.

[4] البيان المغرب ج 1 ص73.

[5] وهو أبو عقال بن خفاجة التميمي اشتهر بالرأي و الشجاعة قدم المغرب مع محمد بن الاشقت الذي ولاه علي طنبة قاوم الخوارج إلي أن أصيب بسهم بالقرب من تونس فقتلة سنه 150هـ و هو والد إبراهيم مؤسس امارة الأغالب (السلاوى-الاستقصا لأخبار المغرب الاقصي ج 1 ص 129-130.

[6] انظر ترجمته في بن خلكان وفيات الأعيان ج 4 ص 101-102

[7] انظر ترجمته في ابن شاكر الكبتي، فوات الوفيات، ج2 ص216.

التهديد؛ فيما حشد الإباضيون جيشا لا يبالغ المؤرخون كثيراً في تعداده بقولهم في انه يزيد عن مائتي ألف مقاتل وقد عسكروا بهم في منطقــة "ســرت"[1] ونتيجــة للخطة العسكرية الذي وضعها محمد بــن الأشــعث الخزاعــي[2] فقــد سحـــق الإباضيون وهُزموا وقُتل الكثير منهم، حتى أن عبد الرحمــن بن رستم لم يستطع أن يقوم بإنجاد رفيقه عبد الأعلى، بل آثر الانســحاب من المغــرب الادنى بعيــداً عن الضربات المتــوقعة التي قد يقوم بها العباسيــون في المستقبل والاحتماء في منطقة المغرب الأوسط.

---

[1] سرت مدينه ذات سور صالح كالمنيع من طين و طابية و فيها قبائل لهم مزارع تقصــد نواحيهــا إذا أمطرت و تنتجع مراعيها و هي علي سيف البحر -عذبة طيبة و أصلها من احسن خلق الله خلقا (أبــو عبيد البكري- المسالك والممالك ج 2 ص 651 -بن حوقل).

[2] تظاهر محمد بن الاشعث بالانسحاب من ملاقاة الاباضيين في ساحة المعركة و في محاوله الالتفاف عليهم كما انه استغل النزاع الذي نشب بين أهم عناصر الجيش الاباضيين من قبيلتي زناتة و هوارة حيث اتهمت زناتة أبا الخطاب عبد الاعلي ميله مع هوارة مفارقة جماعة فهم (ابن عذاري - البيان المغرب ج 1ص 73).

الإمارة الرستمية وتأسيس مدينة تاهرت

144-283هـ/ 761-896م

استطاع عبد الرحمن بن رستم، أن ينأى بعيد عن متناول الجيوش العباسية و حلفائها من القبائل و بدأ يعد العدة لوضع الأسس الكفيلة لإقامة كيان سياسي مستقر علي غرار ما كان سائد في المغرب الادني و بعد سنتين من الفشل الذي مني به الإباضيون بإقامة امارة مستقلة هناك توصل إلي ما يفيد بقيام إمارته و إحكام عوامل بقائها و توسيع نفوذها و توطيد أركانها واستقطاب القبائل الأخرى لمناصرتها واغلب الظن إن الاباضيين والقبائل الموالية لهم لم تعد سهلة الانقياد كما كانت في السابق، حيث هدرت دماء رجالها بسخاء أمام الجيوش العباسية و لم تحتفظ بالكيان التي ناضلت من اجله فقد انتزعت قاعدتهم طرابلس منهم لذلك شرطوا مبايعتهم لعبد الرحمن بن رستم بتأسيس قاعدة يمكن الدفاع عنها فدأب علي اختيار موضع يبني عليه مدينة تاهرت لتكون مقرا لإمارته و علي سفح جبل جزول المرتفع القريب ممن منطقة " تياريت " الحالية في ولاية وهران غربي الجزائر شرع بتخطيط المدينة وحفر الأسس لأسوارها سنة 144هـ، وبعد أن شيدت وأصبحت معقلا عمرانيا و سياسيا وحضاريا و توطدت أسس الإمارة و أركانها و ترسخت دعائمها و قواعدها بايعت القبائل عبد الرحمن بن رستم بالإمامة سنة 160هـ مما أتاح للإمارة القدرة للدفاع عن نفسها و كانت قبيلة نفوسة في مقدمة القبائل التي بايعته لذلك انصرف لتنظم تاهرت حاضرة إمارته و قاعدتها فاستقطب كثيرا من القبائل و مثلها في مجلس للشورى وجعل نفسه مسئولا أمام الدعاة و الاباضيين عامة عن تنفيذ كل ما ينص علية مبدأ الشورى، وليس لدية أية صلاحيات باتخاذ قرارات تمس المصلحة العامة بدون التشاور مع المجلس المستشارين الذي كان يتألف من الخوارج" الشراة " وشيوخ المذهب وزعماء القبائل ووجوهها وفي عهد عبد الرحمن بن رستم كان مجلس المستشارين مؤلف من سبعة من خيرة رجال الإمارة أصحاب الصلاح والزهد والعلم وهم مسعود الاندلسي و عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وعمران بن

مروان الاندلسي وأبو الوفق سعدوسي بن عطية وشكر بن صالح الكتامي ومصعب بن سدمان ويزيد بن فندين [1]

لقد عرف عن عبد الرحمن بن رستم إشاعته للعدل بين الرعية وعدم الاستئثار بالحكم كما انه استأصل عوامل الفتنة و الاضطراب فاستتب الأمن وأصبحت تاهرت دار أمان لمن يقصدها من المغرب أو المشرق و قد حرص الإباضيون أن تكـون مدينتهم في موقع "جيد الهواء كثير المياه خصب الأرض قابل للعمارة مأمون مـن العدو" [2] وفي مكان مرتفع وملائم للرعي ليكون منتجعا صيفيا للقبائل الرعوية في شمال الصحراء. وفي غصون سنوات قليلة اصبحت تاهرت مدينة عامرة تقوم فيها تجارة نشطة تعتمد علي مواني عديدة أهمها مرسي فروخ وميناء مرسـي تـنس وميناء مرسي ستغانم و ميناء مرسي وهران، وهـذه المـواني تـربط الإمـارة الرستمية بالإمارات و الدول الإسلامية في المغرب والأندلس ومن الجدير بالـذكر أن اليعقوبى[3] والمقدسي[4] و ابن حوقل[5] و البكرى[6]،وصاحب كتاب الاسـتبعاد في عجائب الأمصار[7] وياقوت[8] ذكروا معلومات مفيدة عن المدينة منـذ القـرن الثالث الهجري و حتى السابع مفادها أن المدينة تطورت منذ أن اختطها الإباضيون فأصبحت حاضرة للإمارة و قصبة لعديد من المدن الصغيرة والقرى ومركزا مـن مراكز العلم في العالم الاسلامي .

---

[1] النفوس، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية ج 2 ص 101 .

[2] م. ن ، ص 6 .

[3] قال عنها "المدينة العظمي و تسمي عراق المغرب، التاريخ ج 1 ص 153.

[4] ذكر لها أوصافا دقيقة ثم قال عنها بأنها بلد كثير الخير رحب رفق طيب رشيق الأسواق غزير الماء جيد الهواء (احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 228).

[5] وصفها في القرن الرابع الهجري من النواحي العمرانية والاقتصادية والاجتماعية (صورة الأرض ص86).

[6] تحدث عنها في القرن الخامس الهجري نذكر أبوابها الأربعة و موقعها و أشار إلى زراعتهـا و مناخهـا (المغرب فى ذكر بلاد افريقية و المغرب ص 66).

[7] مجهول يصفها في القرن السادس الهجري و قال عنها بأنها مدينة مشهورة قديمة كبيرة عليها سور صخر ثم يصف موقعها و أحوالها الاقتصادية وزراعتها (ص 178).

[8] قال عنها في بداية القرن السابع الهجري أنها مدينة جليلة و كانت قديما تسمى عراق المغرب (معجم البلدان ج 2 ص 8).

ويعقد الدكتور الحبيب الجحاني فصلاً مهماً في تطور الحركة العمرانية في تاهرت فيقول أنها في بداية أمرها كانت مدينة متقشفة متواضعة يسيطر عليها مظهران، مظهر المعسكر والمظهر الديني وقد غلبت عليها شخصية عبد الرحمن بن رستم الزاهد الورع الذي كان يدير بنفسه شؤون الإمارة و المدينة معا وقد جاء هذا التطور نتيجة لازدهار اقتصادها و لاسيما تجارتها و من المنشآت المعمارية في تاهرت، دار الإمارة ولكن ابرز اثر معماري في خطط المدينة هي القصبة المشرفة على السوق و تعرف "المعصومة " [1].

ونظراً للصلات الروحية و الترابط المبدأي بين إباضي البصرة في العراق وبين إباضي المغرب حيث تخرج حملة العلم الخمسة المقاربة من هناك، فقد إلتزم إباضيو البصرة بدعم الإمارة الرستمية الاباضية مادياً و روحياً فأرسلوا إليها الأموال وأفتوهم في مشكلاتهم السياسية والمذهبية وتدخلوا لتسوية خلافاتهم بإبداء النصح لهم وإرسال البعوث والرسل، وقد عبر إباضيو البصرة عن اعتزازهم بالإمارة الرستمية التى حققت آمالهم فى تطبيق مبادئهم وبعدم ترددهم عن مساعدتها بالأموال، فيشير بن الصغير المالكى إلى أن إباضيي البصرة جمعوا أموالاً عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم لتسليمها إلى عبد الرحمن بن رستم[2] وقد قرر المغاربة قبول مساعدة زملائهم لحاجتهم إلى كل ما من شأنه أن يقوى دعائم إمارتهم. وساهمت هذه المساعدة المالية فى توسيع نطاق العمران فشرعوا فى إجراء الأنهر و اتخاذ الأرجاء والمستغلات، ومن المحتمل أن السلاح

---

[1] المغرب الاسلامي ص 107-117.

[2] يذكر وصول الوفد البصري إلى تاهرت حيث دلهم الناس على دار عبد الرحمن بن رستم فوجدوه فى غاية البساطة فقد كان هو نفسه يقوم ببناء داره (سيرة الأئمة الرستميين ص15)ثم انظر تفصيلات مهمة عن ذلك عند الباروني، كتاب الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية ج2 ص85) د.السيد عبدالعزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص570-650 .

الذى ابتاعـوه كان بفضل أموال البصريين[1]، وقد ساهم في قوة تسليحهم ومكنهم في بسط سيطرتهم وسيادتهم على أكثر قبائل المغرب داخل حدود إمارتهم وخارجها كما أن هزيمة الجيوش المناوئة لهم سنة 151هـ وفر لهم ظروفا لإرساء إمارتهم وأقنعهم بضرورة تقوية مدينة تاهرت لتكون مركزاً يتمتع بالمنعة والقدرة على الصمود والبقاء.

لقد اصطبغت الأحوال السياسية وحتى أزمات الحكم التي كان يتعرض لها الإباضيون والمعارضة والثورات والانتفاضات بالطبيعة الدينية، حيث أن الإمارة قامت علي عصبية قبيلة، ولكن عبد الرحمن بن رستم نجح إلي حد ما بتأسيس رابطة مبدئية لقبائل المغرب من البتر التي وحدتها الدعوة الاباضية أما الأزمات السياسية التي واجهها نظام الحكم، فقد كانت علي الأغلب بسبب تصدع الدعوة واختلاف آراء الدعاة في الذود عن مبادئهم وحمايتها من أية انحرافات وانشقاقات.

والظاهر أن العلاقات التي كانت سائدة بين الخوارج المغرب عموماً و بين خوارج المشرق و لاسيما إباضيي البصرة، ذات طابع سياسي أكثر منه ديني نلاحظ من ذلك خصوصاً من التوجيهات التي كانت تصدر عن إمام الاباضية في البصرة ابي عبيد مسلم بن ابي كريمة إلي رفاقه إباضيي تاهرت ويمكن أن نستنتج من رسالة هذا الأخير التي أرسلها إلي دعاته في المغرب في أوائل القرن الثاني الهجري، أن الإمارة الرستمية الاباضية ظلت متصلة سياسياً وفكرياً ودينياً بالتنظيمات السرية في البصرة، ولعل أوضح ما يشير إليه بخصوص هذه العلاقات

---

[1] يعتقد فروخي، أن هذه الأموال كان قد بعث بها خوارج البحرين

Faghy, Dr.Persian, dansby in North Africa, the Rustamides, the Islamic Review,P14.

فيما تؤكد المصادر الإباضية أنها من خوارج البصرة وربما أن خوارج البحرين أرسلوا هذه الأموال إلى البصرة غذ يوجد مشايخ الاباضيين فأرسلوها بدورهم إلى المغرب(أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة الورقة 14).

الوطيدة قوله:" فلعمري لقد سرني ما انتهيتم إليه من أمركم وإن كان ذلك لم يخف عنا، غير أنا لم نظن الذي كتبتم به إلي ثم يقول: " أتانا كتابكم بمسائل فمنها ما رأيت أن أجيبكم فيها ومنها ما رأيت إلا نجيبكم فيها من غير هوان ولا تقصير إلا الذي رأيته أصلح لجماعتكم وأقوم بشأنكم وأرفق بضعيفكم وأعطف لقلوبكم وأجمع لأموركم "(1).

لقد انتهج عبد الرحمن بن رستم، سياسة تقوم علي المحافظة علي إمارته الناشئة من أية أخطار محتملة قد تتعرض لها، فعمل علي توطيد حكمة وتدعيم اسس إمارته، و إرساء نظمها في الحكم والإدارة، فكسب الأتباع والأنصار واسترضاءهم واستكمل إعداد جيشه بتعبئة جنده وتوفير الأسلحة والمعدات ليجعله علي أهبة الاستعداد للدفاع عن إمارته، والتزم بسياسة المهادنة مع القوي الخارجية فحرص علي أن تكون علاقاته مع ولاته العباسيين وعمالهم بأفريقية طبيعية ولا يشوبها ما يعكرها، ثم سعي إلي المصاهرات السياسية التي ربما تخدم أهدافه في تعزيز مكانه إمارته بين إمارات المنطقة وقبائلها، فحالف بني مدرار بمصاهرة احد أمرائها وهو اليسع بن ابي القاسم [2].

وفضلا عن ذلك، فقد اهتم عبد الرحمن بن رستم بالأمور الاقتصادية فأولي عنايته بشق القنوات والترع وإنماء العروس والبساتين وإقامة المطاحن وشجع الحركة التجارية فأوجد الفنادق والخانات للتجار وخطط الأسواق ورتبها ونسقها علي غرار أسوق المشرق، ووظف المحتسبين ونظم الاحتساب عليها لمراقبيتها والحفاظ علي نظامها، فأختلف التجار إليها من سائر أنحاء العالم الإسلامي وبخاصة من العراق ومصر وبلاد الشام والقيروان سجلماسة والسودان[3] .

---

(1) أبو عبيدة مسلم بن ابي كريمة، رسالة في أحكام الزكاة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 21582، الورقة 114.

(2) النفوسي و الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية ج 2 ص 101.

(3) بن الصغير المالكي سيرة الأئمة الرستميين ص 13 -16.

ويلقي بن الصغير المالكي ضوءا مفيدا علي التطور الاجتماعي والاقتصادي والعمراني الذي أصاب مدينه تاهرت خلال فترة حكم عبد الرحمن بن رستم، فيشير إلي الأسواق المزدحمة والمساجد المتعددة المنارات العالية و الحمامات المتقنة ويحيط بها بساتين متنوعة ومطاحن منتصبة علي الأنهار الجارية واتخذ أهلها الفروش والستائر المزخرفة والخيل المسومة وتنوعت الألبسة وتعددت اللغات والأزياء[1]. وهكذا ففي اقل من عشر سنوات خطت الإمارة الرستمية خطوات ملموسة إلي الإمام وأصبحت بمصاف الدولة القوية في منطقة المغرب الأوسط فاكتسبت مهابة جيرانها فطلبوا محالفتها و هاجر إليها الكثير من المشارقة والمغاربة والاندلسيين و نزلوا تاهرت كما قصدها التجار والكتاب والعلماء ورجال الصناعة والفن وأرباب الحرف والمهن من سائر أنحاء العالم الإسلامي فأصبح سكانها خليطاً من العرب والسودانيين والأوروبيين من صقلية وايطاليا وأسبانيا كما نزلها الوافدون من الكوفيين والبصريين والمصريين والخرسانيين إلي جانب الطوائف الإسلامية فقد ضم السكان عدد من اليهود والنصارى الذين كانوا يزاولون الأعمال الاقتصاديون والعلمية والفنية ونقرأ عند المؤرخ بن الصغير المالكي قوله: " واتت تيهارت الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار وليس احد ينزل بها من الغرباء إلا استوطن معهم وابتني بين أظهرهم حتى لاتري دار الا قيل لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي "[2]

ومن الجدير بالذكر أن أكثر المعارضين للعباسيين وجدوا في الإمارة الرستمية خير ملاذٍ لهم تخلصاً مما يلحق بهم في المشرق من الملاحقة الاضطهاد وبخاصة العلويين الذين نزلوا في مدينة الخضراء وسوق إبراهيم ومدينه تمطلاس وجميعها تقع شمال تاهرت علي نهر شلف اذ تعد هذه المدن من قواعد الإمارة وأكبر مدنها

---

[1] سيرة الأئمة الرستميين ص 14.

[2] م. ن . ص 12- 13.

فضلاً عن حسنها وخصوبتها حيثما رسوا هناك مختلف المهن و الحرف فضلاً عن التجارة وما يتصل بها من مظاهر الحركة الاقتصادية [1].

وهناك حقيقة يمكن أن نقررها وهي أن منطقة المغرب الأوسط وأغلب المغرب الأدنى شهدت نوعاً من الاستقرار وسيادة الأمن في عهد عبد الرحمن بن رستم، فيما كان المغرب الاسلامي عامة يضطرم بنار الفتن والإضطرابات والثورات المستديمة فالإمارة الرستمية في عهد هذا الإمام هي اقوي عسكرية واقتصادياً من إمارتي الأدارسة أو الأغالبة مما أتاح لها أن تفرض وجودها كقوة سياسية لها تأثيرها علي سلام المنطقة وأمنها.

لقد حكم عبد الرحمن بن رستم من 160-171 هـ وكان قد عهد إلي سبعة من رجاله كانوا يؤلفون مجلساً للمستشارين يدير دفة الحكم وعلية أن ينتخب احد أعضاءه ليكون إمام للإمارة في حالة وفاته، وقد انتخب ابنه عبد الوهاب خلفاً لأبيه و الظاهر أن حكمه كان استمرار لحكم أبيه وحيث استقر الأمر له فساد الهدوء فيما عدا بعض الانشقاقات الفكرية داخل الحركة الإباضية [2].

ولكن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم رأي انه من المناسب لاستتباب الأمن في بلاده محالفة قبيلة لواتة بمصاهرة سياسية، حيث تزوج ابنة رئيس هذه القبيلة فمنع القبيلة من التحالف مع هوارة التي كانت تقف في صف أعداء الإمارة

---

[1] خرج عليه يزيد بن فندين و هو احد أعضاء مجلس المستشارين مستندا إلي أن مبدأ الخوارج الاباضية كان يقضي بالشورى دون الوراثة وراح يثير الفتنة و يؤلب علي عبد الوهاب و يطالبه بإقامة هيئة استشارية يركن إليها في الفتوى وتكون قراراتها ملزمة للرئيس ثم أنكر علي عبد الوهاب إمامته بدعوى انه يوجد من هو اعلم منة و أجدر بالإمامة (النفوس-مختصر تاريخ الاباضية ص 39)و بذلك انقسم الإباضيون إلي فرقتين نكارية ووهبانية فالأولي تنكر إمامة عبد الوهاب والثانية تساندد و هي الأكثر الساحقة من الاباضيين و قد انضم إلي النكارية الواصلية المعتزلة (جماعة واصل بن عطاء) و كان المعتزلة من قبيلة زناتة يؤلفون حزبا قويا شمال تاهرت فقاموا بثورة ضد عبد الوهاب استطاع هذا الأخير القضاء عليها (ياقوت-معجم البلدان ج 2 ص 8 النفوس المصدر السابق ص 116 محمد علي دبور تاريخ المغرب الكبير ج 3 ص 481).

[2] انظر المصدر السابق.

الرستمية، كما انه دعي قبائل دمر الزناتية للانضمام إليه فاستجابوا لدعوته[1] ويبدو أن الظروف التي كانت تواجه قبيلة هوارة جعلتها في وضع حرج مما دفعها للاستغاثة بعبد الوهاب فلم يتردد في نجدتها.

وعلي أية حال، فان عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن علي الرغم مما تخللته انشقاقات و ثورات و حركات سياسية و فكرية، كان مرحلة ترسيخ الإمارة وتدعيم أسسها، ولكن بعد تولي افلح بن عبد الوهاب الإمامة علي اثر وفاة أبيه سنة211 هـ تأكد لدي الاباضيين استقرار مبدأ الوراثة في الإمارة، وهذا يمثل في نظرهم انتهاكا لتعاليم الخوارج الاباضية الذي كان يقوم علي مبدأ الاختيار والشورى في الحكم، ويذهب الدكتور الجنحانى إلي أن الإمامة الاباضية اصبحت تتنقل بالوراثة ولكنها تحاول أن تضفي علي نفسها مظهر الاختيار والشورى تغطية للتناقض الواضح بين مبدأ أساسي من مبادئ الدعوة والوضع الذي حالت إليه في تاهرت[2]. غيران خطراً جديدا بات يهدد كيان الإمارة الرستمية يتمثل في صراع العصبيات العنصرية والقبلية، ظهر إبان حكم افلح بن عبد الوهاب حيث استطاع في حينه بما أوتي من مرونة و حذق سياسيين أن يجنب إمارته منه وأن يتجاوز عواقبه بوسائل شتي، دلت علي براعته في الحكم والسياسة إلي جانب ما اتصف به من شجاعة نادرة. كما انه شرع بالتخلي عن مبدأ المركزية في الحكم وعودته إلي مبدأ الشورى فكان مقتنعا برأي مشايخ القبائل و رؤسائها و يأخذ بهما عند تعيين الولاة و العمال والجباة ولا يقع تحت تأثيرات المقربين إليه من أسرته واعتراضاتهم وكان يراقب هؤلاء العمال ويجنبهم من التمادي في ظلم الرعية و

---

[1] كانت قبيلة هوارة خاضعة لوالي افريقية العباسي ولكنها استقلت 196هـ و احتمت في مدينة طرابلس فأوعز العباسيون للاغالبة بإخماد ثورتهم وإحباط محاولاتهم في الانفصال عن نفوذ العباسيين فدخل الأغالبة طرابلس بيد أن الرستميين حاصروا المدينة لإنجاد القبيلة إلي أن خرج الأغالبة منها و عادوا إلي القيروان حيث كان الأمير عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب قد علم بوفاة أبيه فقرر العودة إلي القيروان لكي يظفر بحكم الإمارة قبل أن يستولي عليها احد من أخوته (النفوس المصدر السابق ص 144 ابن الأثير. الكامل في التاريخ ج 5 ص 156).

[2] المغرب الاسلامي ص 124

إرهاقها في فرض الضرائب والمغارم عليها ،في الوقت أتاح لهؤلاء الولاة والعمال و الجباه مزيداً من السلطات ضمن مناطقهم[1] ومن نتائج هذه السياسة، الاستقرار الذي اتسم به عهد افلح بن عبد الوهاب وتأييد الاباضيين له كما "لم يبق في أيامه منازع ولا اجمع جهاته إلا طائع"[2] في الوقت الذي " ألقي بيده يميناً وشمالا وتمكن في إمامته واطردت له الأمور"[3].

حتى بلغت الإمارة الرستمية في عهده أوج نضجها السياسي وازدهارها و تخطت الأخطار المتمثلة بالفتن و الثورات، ولكن بعد وفاته سنة 258هـ/873م أصبحت الإمارة تواجه مرحلة عصيبة في تطورها السياسي و ظهور النزعات القبلية والعنصرية حيث تفجرت علي شكل حروب دامية أضعفت نفوذ الأئمة وقلصت صلاحيتهم وأدت إلي فقدان هيبتهم بين الاباضيين والقبائل المغربية المتحالفة معهم.

وربما يكون من المفيد أن نلقي بعض الضوء علي طبيعة العلاقات بين القبائل والعناصر التي تكون النسيج العام لكيان الإمارة الرستمية فمن المعلوم إن هذه الإمارة كانت تضم قبائل متعددة مثل هوارة ونفوسة ونزاتة وسدراتة ولماية إلى جانب مجموعات من أعقاب العرب الفاتحين وبعض الجند المغاربة و كانت نفوسة " تلي عند تقديم القضاة وبيوت الأموال وإنكار المنكر في الأسواق والاحتساب علي الفساق "[4] أي أن منها القضاة والإشراف علي بيوت الأموال ومنها كذلك المحتسبين الذين يراقبون الأسواق فيمنعون المنكر، وهي وظائف لها أهميتها في الحياة العامة، كما أن بعض القبائل الأخرى ترغب في الانصراف إلي الزراعة أو

---

[1] يشار إلي انه اتبع شتي ضروب الجيل و اخذ بمبدأ " فرق تسد "فأوشي بين كل قبيلة و ما جاورها ثم" ألقي موجبات التحالف بين كل مقدم و أتباعه وبث الجواسيس بين القبائل (كفاه مؤونة القتال)ابن الصغير المالكي المصدر السابق ص 27 النفوسي، المصدر السابق ص 98-183

[2] الدرجيني، طبقات الاباضية ج 1 (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 12561 ح) الورقة 191.

[3] أبو زكريا، السيرة و أخبار الأئمة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 9030 ح الورقة 29)الشماخي السير ص 187.

[4] ابن صغير المالكي المصدر السابق ص 27.

التجارة أو اتخاذ المناطق القريبة من تاهرت مقرا لها وبعضها الآخر" اتخذ العين والخيول ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة " حيث زاولت الأعمال المالية واقتنت الخيول كما هو حال أهل المدن المتحضرون.

إن مكانة نفوسه وبعض هذه القبائل لدي الحكام الرستميين ومنزلتها في الوظائف العامة لا تقل أهمية عن مكانة العناصر الأخرى التي قيادة الجيش وتسيير الحياة الاقتصادية والسياسية، وكذلك بالنسبة لها عرف" بالرستمية" وهم أجناد من البيت الرستمي الذين تركزوا في بعض الوظائف الإدارية و" السمحية " أتباع عبد الاعلي بن السمح المعافري الموالين للرستمين والمقربين لهم، والظاهر أن هذه العناصر علي اختلافها بدأت تناضل من اجل السلطة ابتداء من الرستمية و السمحية والجند المغاربة والقبائل الضاربة حول تاهرت[1] ونتيجة للصراع بين هذه القوة السياسية من جهة و بينها وبين سلطة الرستميين من جهة أخري فقد استطاع أبو اليقظان محمد بن افلح 214-281هـ اخو الإمام الشرعي ابي بكر الذي نصب بعد وفاة أبية افلح بتأييد من قبيلة نفوسة التي كانت تتمتع بنفوذ سياسي كبير استطاع أن يستعيد مدينة تاهرت من الجند المغاربة ويفوز بالسلطة ويستأثر بها لنفسه ثم راح ينتهج سياسة معتدلة وينبذ التعصب لأي من القائل أو العناصر واتخذ مجلسا للشورى يضم شيوخ القبائل والنبهاء كما اتخذ سياسة

---

[1] علي أثر وفاة افلح بن عبد الوهاب نصبت قبيلة نفوسة ابنه الأكبر أبا بكر 211-240هـ غيران هذا الأخير كان زاهدا في الحكم و الإدارة فوطد صلاته بالجند المغاربة و صاهر زعيمهم محمد بن عرفه وسلمه مقاليد الإمارة فاستاءت القبائل من تسلطه و انضم أنصار الرستمية إلي نفوسه و لكن أبا اليقظان محمد بن افلح استطاع التخلص من محمد بن عرفة مما جعل هذه القوي تتحفز للخروج من الفوضى السياسية التي كانت قد عمت تاهرت فاستنكر الجند مقتل زعيمهم فيما وقفت الرستمية و السمحية إلي جانب الإمام أبي بكر و حاولوا الاستيلاء علي تاهرت عندئذ تضامن الرستمية مع الجند و الحقوا هزائم عدة فيهم و علي الرغم من انضمام الإمام و نفوسه إلي الطرف الأخر لكن الصراع أسفر عن انتصار الجند المغاربة و أرغم أبو بكر علي اعتزال الإمامة و لحق بأتباعه من الرستمية و السمحية مثل بني يقظان و لكن يالتبث قبيلة هوارة أن أقصت الجند المغاربة من السلطة و نصبوا أميرا علي تاهرت (للاستزادة انظر: د محمود إسماعيل الخوارج في المغرب ص 127).

التسامح إزاء أصحاب المذاهب و الفرق غير الاباضية[1]، وقد أجمعت المصادر الاباضية علي المصادر بسياسته وحسن سيرته وصلاحه[2] .

ويمتاز عهد أبي حاتم يوسف بن محمد بن ابي اليقظان 294/281هـ بالهدوء النسبي وذلك علي الرغم من قيام حرب أهلية في تاهرت سببها علي الأغلب تدخل الأمراء والحاشية في رسم السياسة العامة للإمارة وظهور الطوائف والفرق التي تخالف الاباضية وتغذي هذا الخلاف وتوجهه، ومن المحتمل أن اعتماده علي وجود القبائل ورؤسائها للقضاء علي مظاهر الفساد والفوضى قد أثمر في جعل الحياة العامة في مدينة تاهرت طبيعية لا يعكرها صدي الخلافات في البلاط الرستمي، و ربما كانت مبايعة مجلس الشورى بالإجماع في بداية حكمه قد مكنته من اتخاذ الإجراءات الكفيلة للقضاء علي مناوئيه السياسيين وإعادة الأمن إلي إمارته [3].

ولكن السبب في الهزيمة التي لحقت به و انتهاء عهده سنة 299هـ يمكن علي الأغلب بانتهاء دور القبيلة نفوسه واضمحلالها علي يد الأغالبة، فقد هُزم أهل جبل نفوسه هزيمة ساحقة ولم تعد هذه القبيلة توافي الرستميين بالإمدادات ونتيجة المؤامرات التي دبرتها عناصر من البيت الرستمي قتل أبو حاتم يوسف بن محمد فآلت الإمامة إلي اليقظان بن ابي اليقظان محمد، ثم بدأت بوادر نهاية الإمارة الرستمية التي أنهكها الصراع والتناحر القبلي حيث يشير أبو زكريا إلي نهايتها علي يد الفاطميين [4]،الذين ظهروا كقوة نشرت سيطرتها علي جميع

---

[1] ومن هؤلاء الكوفيين والصفريين و المعتزلة و المالكية (ابن الصغير المالكي المصدر نفسه ص 42).

[2] ابن الصغير المالكي المصدر السابق ص 48- 49 النفوس المصدر السابق ج 2 ص 240 الدرجيني مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 8456 ح)الورقة 192.

[3] في بداية حكمه خرج عليه عمه يعقوب بن افلح و بويع بالإمامة و نشبت الحرب بين أنصار الطرفين انتهت بانتصار ابي حاتم و بعد فترة وجيزة الطيب بن خلف الثورة ضد ابي حاتم فحاربه الأخير و انتصر عليه (النفوس. المصدر السابق ص 47-48، الأزهار الرياضية ج 2 ص 271-277.

[4] ومفاد روايته يتلخص إن بنت أبي حاتم و أخاها حرضا أبا عبد الله قائد الجيوش الفاطميين لدخول تاهرت للانتقام من قتلة أبيها و قد استطاع أبو عبد الله احتلال تاهرت سنة 297هـ و قتل بن أبي اليقظان و من ظفر به من بني رستم و استباح أموالهم ثم اتجه إلي المكتبة المعصومة و اخذ منها من كتب الرياضيات والفلسفة والصنائع والفنون واحرقها (السيرة وأخبار الائمة الورقة 36)وجاء أيضا أن احد الاباضيين من النكارية قام بمحاولة لإعادة الإمارة الرستمية بعد أن أسقطها الفاطميون و ذلك بعيد عن تاهرت في منطقة جبال اوارس سنة 916هـ ولكن لم يلبث أن سقط بيد الخليفة الفاطمي المنصور فقتله وسلخ جلده وأحشى تبنا واتخذ قفصا ادخل فيه قردين يلاعبانه(المصدر السابق الورقة 37).

المغرب الإسلامي باكتساح القوي التي كانت تتمثل بالإمارات و الدويلات و يبدو أن إسقاط الفاطميين لإمارة الأغالبة سنة 296هـ/908م مهد الطرق أمامهم للدخول إلي المغرب الأوسط و إحكام السيطرة علي الإمارة الرستمية حيث لم يواجه الفاطميون أية صعوبات عسكرية في إسقاطها و إنهاء دورها السياسي و نفوذها في المنطقة.

العلاقات السياسية

الرستميون و الخلافة العباسية:

وقف العباسيون من الخوارج وقفتهم التي نقرأ عنها تفصيلات غير قليلة في المصادر المشرقية أو المغربية، فقد عرفوا بعدائهم المستحكم للخوارج فكرياً وسياسياً وبذلوا جهوداً كبيرة لمكافحتهم واستئصالهم، وفيما يتعلق بالمشرق فقد تمت علي ما يبدو تصفيتهم من الناحية الفكرية و لم يعد أمام القلة من رجالهم إلا الاختفاء و العمل سراً بعيداً عن أعين السلطة، أو الرحيل إلي المغرب ليكون معقلا لنشاطهم الفكري و السياسي.

وكان الخلاف الفكري والسياسي بين العباسين والخوارج الاباضية عميقاً و متأصلاً وذلك منذ ظهور الحركة الاباضية سواء في المشرق أو في المغرب ولو استعرضنا ما لحق بالاباضين في المغرب الإسلامي من التعسف والاضطهاد علي يد بعض الولاة وملاحقتهم ابتداء من ولاية حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى سنة 127هـ وانتهاءً بولاية محمد بن الاشعث الخزاعي [1]، لأدركنا أبعاد التنكيل بالحركة الاباضية ومن المحتمل إن محاولات هذا الوالي الفاشلة في القضاء علي الاباضيين المغاربة عموماً وعلي عبد الرحمن بن رستم الذي فر إلي احدي المناطق الجبلية من المغرب الأوسط قد

---

[1] ولاه الخليفة أبو جعفر المنصور سنة 144هـ حيث تصدي للاباضين وزعيمهم أبي الخطاب عبد الاعلي بن السمح المعافري في منطقة طرابلس فأوقع فيهم الهزيمة (ابن عذارى المراكشي،البيان المغرب ج 1 ص 72- 73).

زودت هؤلاء الاباضيين بطاقة جديدة لمقاومة أعدائهم و الانتقام لما حل بهم من البطش و الاضطهاد وأقنعهم بضرورة إنشاء إمارة تكون ملاذا حصينا لهم من أية أخطار يتعرضون لها في المستقبل .

وأغلب الظن أن الهدنة التي عقدت بين والي العباسين روح بن حاتم بن مبيعة بن المهلب بن أبي الصفرة 171/ 179 هـ وبين إمارة عبد الرحمن بن رستم [1]والتي تراعي حسن الجوار، كانت تخدم الخطط التي وضعتها الخلافة العباسية في تعزيز نفوذها في المغرب الادني وبعض مناطق المغرب الاقصي.

ومن الملاحظ أن المصادر الاباضية وغيرها قد اختلفت فيمن طلب الهدنة من الأخر فالرقيق القيرواني يذكر أن روح بن حاتم رغب في موادعة الرستميين أصحاب تاهرت [2] فيما يشير لسان الدين بن الخطيب إلي أن الاباضيين هم الذين رغبوا في موادعته [3] ويطلع علينا بن خلدون برواية مفادها أن قوة الإمارة الرستمية في عهد عبد الرحمن بن رستم و منعتها أو جدت الاقتناع لدي الوالي العباسي بضرورة التهاون و حملته علي مواد عته و مهادنته سنة 171 [4] كما استمر بالسياسة نفسها ابنه و خليفته عبد الوهاب من بعده [5] .

ومهما يكن من أمر، فإن عبد الرحمن بن رستم آثر عدم مناجزة ولاة القيروان العباسين عسكرياً، لكي يتفرغ لمواجهة الأعباء التي واكبت قيام إمارته، وقد ظلت هذه السياسة قائمة في عهد عبد الوهاب بن رستم نتيجة للظروف الداخلية التي كانت تواجهها إمارته، ولما اتسم به حكمه من اضطراب وقلاقل بفعل الانشقاقات المبدئية والسياسية بين الاباضيين، وهذا يحتم عليه الإبقاء علي السياسة التي

---

[1] لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام ق 3 ص 9- 10 و يجعلها الرقيق القيرواني بين الوالي روح بن حاتم و بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (تاريخ افريقية و المغرب ص 173).

[2] تاريخ افريقية و المغرب ص 173.

[3] أعمال الإعلام ق 3 ص 10 .

[4] العبر و ديوان المبتدا و الخبر ج 6 ص 8.

[5] م. ن ج 4 ص 415.

اختطها إزاء الجيوش العباسية والبقاء بعيدا عن المواجهات العسكرية و لكن العباسيون كانوا يغتنمون الفرص لتوجيه ضرباتهم للرستميين حيث درجوا علي إثارة المتاعب لهم واستعداد القوي الأساسية في المغرب عليهم وتهديدهم بالقضاء علي حاضرتهم تاهرت وتجريد الجيوش إليها لدكها و تخريبها بل إن العباسيين كانوا يخططون لتصفية أئمتها وأمرائها، لأنهم كانوا يتوجسون خيفة من إتصالاتهم بزملائهم في المشرق الإسلامي لتنظيم الثورات وتحريكها ضدهم، فراحوا يكثرون من مراقبتهم بتجنيد الرقباء والجواسيس وبث العيون لتقصي أخبارهم وبخاصة في مواسم الحج[1].

وتبني العباسيون قيادة جميع الحركات المناوئة لحكم الرستميين وغذوها بالمال والرجال وتعهدوا منظميها وقادتها بالتعاون معهم علي إسقاط هذا الحكم ووصفوا لهم الخطط والتدابير الكفيلة بإنجاح حركاتهم، ففي منطقة جبل نفوسة ثار حليف العباسيين "فرج بن نصير " المعروف بنفاث، وهو عالم وفقيه متبحر في الاباضية ويشير الدرجيني إلي أن خروج فرج بن نصر علي الأمير افلح بن عبد الوهاب كان بسبب الإخلال بشرعية الإمامة والاستهانة برسومها [2]والسياسة في استعمال العمال والسعاة لجباية الحقوق الشرعية ومطالب بيت المال من الرعية [3]

وقد إتخذ فرج بن نصير من قرية قنطرارة منطلقاً له ولأعوانه وأنصاره ضد الإمارة الرستمية، غير أن سياسة افلح بن عبد الوهاب تجاه هؤلاء الثائرين قد

---

[1] يذكر أبو زكريا أن فقهاء الاباضيين برروا لعبد الوهاب بن عبد الرحمن إحجامه عن أداء فريضة الحج خشية الوقوع بيد العباسيين (وقالوا أيضا بعدم أمان الطريق و هذا شرعا من الشروط الواجبة في الحج (السيرة و أخبار الائمة الورقة 23 انظر النفوس الأزهار الرياضية ص 140 كما يذكر المؤرخون التفصيلات عن حادثة إلقاء القبض علي الأمير الرستمي أبي اليقظان محمد بن افلح في مكة أثناء ادائه الحج من قبل أعوان الوالي العباسي و إرساله إلي بغداد و إيداعه السجن هناك و هذا يدلل علي مراقبة العباسيين لوفود المغاربة ورصد تحركاتهم في المشرق (ابن الصغير المالكي، سيرة الأئمة 27-29 ، أبو زكريا ، السيرة و أخبار الأئمة الورقة 30- 31 الدرجيني،طبقات الاباضية ج 1 ص 37 النفوس ، مختصر تاريخ الاباضية ص 205 .

[2] طبقات الاباضية الورقة 38.

[3] النفوس، المصدر السابق ص195.

أثمرت في تثبيط عزيمتهم حيث انصرف أكثرهم عن هذه الحركة، ولم يكن أمام فرج بن نصر إلا اللجوء إلي بغداد [1] ويبدو إن هذا الثائر الذي لم يوفق في النيل من سلطات تاهرت بعد تأمره مع الخلافة العباسية، لكنه نجح في إحداث انقسام مذهبي و سياسي بين الاباضيين و تكوين فرقة عرفت "بالنفاثية " ظلت معادية للسلطة الحاكمة في تاهرت طوال عهد الإمارة الرستمية وذلك علي الرغم من وجود ما يشير إلي أن أنصاره قد وهنوا و تفرقوا لدي عودته من بغداد فتاب و رجع عن مسائله التي خالف فيها [2].

ويتضح العداء بين الخلافة العباسية و بني رستم بصوره أكثر جلاءاً بتحريض الحلفاء للمشارقة من الكوفيين وشيوخهم ورؤسائهم للعمل ضد الحكم الرستمي، فقد نجح هؤلاء في تأليب عامة المدينة ضد الأمير يوسف بن محمد بن أبي اليقظان ووضعوا خطة لاغتياله و قاموا بانتفاضة في المدينة بالاشتراك مع أهلها، اضطروا الأمير إلي التسلل من تاهرت مع خاصته وأهله وكان بعض قادة هؤلاء الثائرين و محرضيهم في بغداد قبيل وقوع تلك الأحداث ثم عادوا واشتركوا مع الثائرين مما يؤكد ضلوع العباسيين بالتآمر ضد الرستميين.

ومن الجدير بالتنويه إلي أن قيام امارة الأغالبة في منطقة المغرب الادني سنة 189هـ يمثل مرحلة جديدة في العلاقات السياسية التي تقوم علي العداء بين العباسيين و الرستميين، وذلك أن الأغالبة أول ما اتجهوا إليه هو نزاعهم مع الرستميين في منطقة جبل نفوسه، اذ يتركز نفوذ الرستميين وممتلكاتهم هناك حيث هددوها فاستغاثت بالأمير عبد الوهاب بن عبد الرحمن سنة 196هـ

---

[1] تذكر المصادر الاباضية أن فرج بن نصر وجد فرصته للإطلاع علي مصادر الذهب الإباضي فدرسها و استوعبها و قيل ان الخليفة أمر بالسماح له بالإطلاع علي المحظور من المصنفات و الكتب في مذهب الخوارج الاباضية (أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة الورقة 31،الرجيني،طبقات الاباضية ج 1 ص37

[2] د. محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي ص 125، لكنه يدلل علي تشككه بتوبة نفاث بوجود كثير ممن اعتنقوا آراءه في أواخر القرن الخامس الهجري.

فزحف إليها بحشوده الهائلة من رجال نفوسه مما اضطر الأغالبة علي قبول الهدنة معه[1].

وعلي الرغم من ذلك فقد استمر الأغالبة يناصبون العداء للرستميين نيابة عن العباسيين بيد إن الأغالبة لما عجزوا عن تحقيق أهدافهم في هذا الجانب عمدوا إلي إنشاء مدينة "العباسية" في جوار مدينه تاهرت و قد استهدفوا من إنشائها تحويل الأنظار عن حاضرة الرستميين التي كانت تجتذب عددا كبيرا من المغاربة و المشارقة من السياسيين و أصحاب الرأي و من العلماء و الفقهاء و التجار و أصحاب المهن و الصنائع و لكن الرستميين وثبوا علي مدينه العباسية فأجلوا سكانها و أحرقوها [2].

---

[1] النفوسي، الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الاباضية ج 2 ص 145.

[2] ابن خلدون، العبر و ديوان المبتدأ و الخبر ج 4 ص 429 و الظاهر أن الصراع بين الأغالبة و الرستميين الذي استمر حتى موقعة (نصر مانو) سنة 283 هـ قد استنفذ قواهما و مهد لسقوطها علي أيدي الفاطميين سنة 297هـ/ 909 م.

علاقات الرستميين بالأدارسة:

تقوم العلاقة بين الرستميين والأدارسة علي العداء المذهبي التقليـدي و ذلـك علي الرغم من موقفهم الموحد إزاء الخلافة العباسية الذي كان يتسم بالعداء كمـا أن غالبية القبائل التي انضمت إلي الأدارسة وهي "زناتـه و لمايـة و لواتـة و وسدراتة و نفزة " كانت تدين بالمبدأ الإباضي [1] فكان علي الرستميين أن يقلقـوا بشأن هذه القبائل التي كان من المفروض أن تستظل تحت لواء الإمارة الرسـتمية الاباضية لا أن تنضوي تحت نفوذ الأدارسة الذين واصـلوا سياسـتهم التوسـعية بمحاولة ضم بطون هذه القبائل في منطقة تلمسان وشلف إلي منطقة نفـوذهم و العمل علي استئصال الأفكار الاباضية المنتشرة هناك.

ومن المرجح أن طبيعة الصراع بين الرستميين والأدارسة كان يحدده موقـف القبائل من طرفي النزاع، لذلك اتخذ كلا الطرفين محاولات التوسع في مواطن هذه القبائل وكسب السيطرة عليها. وبمرور الزمن، فان الرستميين لم يقابلوا الأدارسة بالرد علي مؤامراتهم ولم يكن بوسعهم مجاراة الأدارسـة فـي تـدبير المكائـد وإحـداث الشقاق، وعزفوا نهائياً عن محاولة التحرش بهم علي الرغم مما آلـت إليه إمارة الأدارسة من التمزق السياسي والضعف ويبدو أن سياسة الرسـتميين بعدم مناجزة الأدارسة والرد عليهم بالمثل خلقت ما يمكننا تسميته بالعجز الرستمي أمام تدخلات الأدارسة في الشئون الداخلية لإمارة الرستميين وتحريض الخارجين و الثوار عليها وتزويدهم بما يتطلب لإسقاط نظام الخوارج الاباضية فـي تـاهرت مما أسفر عنه انتهاء الصراع بين الطرفين بتغلـب الأدارسـة و تقلـص نفـوذ الرستميين واستكانتهم[2].

---

[1] النفوسي، المصدر السابق ص 145.

[2] د. محمود إسماعيل: المرجع السابق ص 149.

العلاقات بين الرستميين وأمويي الأندلس:

نهج الرستميون في علاقاتهم مع أمويي الأندلس سياسة ودية ربما أوجبتها الضرورات السياسية بهدف توطيد العلاقات بينهما، إذ يتعرض الطرفان لعداء كل من الأغالبة والأدارسة وذلك علي الرغم من خلافاتهما المذهبية والتاريخية وقد بلغت العلاقات بين تاهرت وقرطبة إلي درجة التحالف السياسي وتبادل السفارات و الهدايا، كما قامت العلاقات تجارية فكانت السفن تتردد بين وهران والمرية حاملة المتاجر والعلماء والمسافرين، واستقبلت حاضرة الرستميين تاهرت كثيرا من أهل الأندلس حتى إنهم أصبحوا جالية أندلسية كبيرة [1].

ومن الجدير بالذكر، أنه لما كان الأمويون في الأندلس يتطلعون إلى تسقط أخبار المشرق الإسلامي، وخصوصاً بلاد الشام أرض آبائهم وموطن تراثهم ومجدهم والاتصال به ثقافياً وحضارياً واقتصادياً فلابد أن يحافظوا على منفذ المغرب الأوسط، لأن المغربيين الأدنى والأقصى كانت تقوم فيه علي التوالي أمارتا الأغالبة والأدارسة المعاديتان مبدئياً ومذهبياً لهم فالأولي موالية للعباسيين والثانية ترفع شعار العلويين، وجميع هؤلاء أعداء تقليديون لبني أمية، والظاهر أن العلاقات بين أمويي قرطبة و أصحاب تاهرت قد توطدت بعد تأسيس مدينة تاهرت وذلك باستعانة عبد الرحمن بن رستم بالمهندسين والمعماريين ومن لهم خبرة بإنشاء المدن وتعميرها من الاندلسيين، إذ تعذرت علاقاتهما واكتسبت رسوخاً ومودة حتى أن صاحب تاهرت أمر بتسمية احدي أبواب مدينته باسم " باب الأندلس " [2].

---

[1] ومن العلماء الذين اختلفوا إلي تاهرت،عمران بن مروان الاندلسي ومسعود الاندلسي اللذين أصبحا عضوي مجلس الشورى في عهد عبد الرحمن بن رستم (أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة،الورقة 104 ثم انظر :

marcais,G . la berberie musulane Et l orient au Mogen age (Paris, 1964)P104

[2] أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ص 66.

أما العلاقات العدائية التي سادت بين الطرفين فلم تكن إلا لفترة قصـيرة حيـث زالت الجفوة بعد وفاة الحكم المستنصر سنة 206هـ/821 م [1] وعادت العلاقات التقليدية بينهما فوصلت البعوث إلي "دار المغرب" و هي تاهرت كما اتخذ بعـض الأمراء الاندلسيين الوزراء والحجاب والقواد مـن البيـت الرسـتمي و بظهـور الفاطميين علي المسرح السياسي في بلاد المغرب تعرضـت القـوي السياسـية جميعها إلي التهديد الفاطمي سواء أكانت في المغرب أو في الأندلس مما استوجب القيام بعمل مشترك بين تاهرت وقرطبة لاتقاء هذا الخطر الذي بات وشيك الوقوع لكن شيئا من ذلك لم يحدث فقد سقطت إمارة الرستميين سنه 297هـ/909 م بيد الفاطميين ولم يقم حكام قرطبة لنجدتهم.

---

[1] بدأ انهيار العلاقات و ترديها منذ نزل الأمير الحكم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالحكم المستنصر إقليم الجزيرة الخضراء بالأندلس حيث كان يعج بالسـكان و اغلـبهم مـن الاباضيين فقتل أكثرهم (ابن القوطية القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس ص 71- 72).

الفصل السادس

إمارة الأدارسة في المغرب الاقصي

1- تمهيد

2- قيام إمارة الأدارسة

3- مدينة فاس حاضرة الأدارسة

4- العلاقات السياسية

5- الأدارسة وبنو العباس

الفصل السادس

إمارة الأدارسة في المغرب الاقصي

(172-375هـ / 788-985م)

تمهيد:

الأدارسة، نسبة إلي إدريس بن عبد الله بن الحسن الذي يرجع نسبة إلي علـــي بن أبي طالب (رض) وكان قد فر من الجيش العباسي علي اثر هزيمته في معركة "فخ" المنطقة الواقعة بين مكة والمدنية سنه 169هـ ونفذ إلي المغرب الإســلامي وهناك أقام مع أعوانه و أنصاره إمارة " الأدارسة" التي لعبت دورا مهما في تاريخ المنطقة أما أخوه يحيي بن عبد الله فقد توجه إلي بلاد الديم وقضي هناك ويشــير البكرى إلي أن إدريس بن عبد الله افلت من يد العباسيين بصــحبة مــولاه راشــد فألبسه دراعة وعمامة وصيره كالغلام يخدمه [1] وعن طريــق مصــر اسـتطاع إدريس بن عبد الله ومولاه راشد الوصول إلي القيروان ثم إلي مدينه تلمسان ثــم ارتحل نحو بلاد طنجة ونزلا في مدينة "وليلي"[2] سنة 172، واتخذت هذه المدينة

---

[1] المغرب في ذكر بلاد أفريقيا و المغرب ص 118 (و هناك روايتان في طريقة وصول إدريس بن عبد الله إلي المغرب الاقصي تتلخص الأولي في أن إدريس و مولاه راشد مرا بمصر بدار مشيده فجلسا علي باب الدار فرأهما صاحب الدار و عرف أنهما من الحجاز فقال له راشد: هذا إدريس بــن عبــد الله بــن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب خرج من موضعه فسلم من القتل و قد جئت بــه أريــد بــلاد المغرب لعله بأمن فيه و يعجز من يطالبه فادخلهما منزله وسترهما حتى هيأ لهما خــروج رفقــة إلــي افريقية فاكترى لهما جملا وزودهما وكساهما فدخل إدريس ومولاه راشد المغرب فأقاما بين ظهرانيهم (المصدر السابق ص 118-119) أما الرواية الثانية فيذكرها ابن عذاري علي أنهما نزلا و كان متــولي بريدها حينذاك " واضح المسكين " و كان يميل للعلويين و ينتصر لهم في الباطن و قــد بلغــه وصــول إدريس إلي مصر فساعده علي الفرار إلي المغرب (البيان المغرب ج 1 ص 63، وربمــا تكــون هــذه الرواية صحيحة واقرب إلي الحقيقية بدليل إن الخليفة الهادي بن المهدي العباسي قتل واضحا بما بلغــه الدور الذي قام به.

[2] وهي مدينه فولوبيلس colubillis الرومانية و تقع علي سفح جبل زرهون و كانت مركزا و مستقرا لقبيلة اوربة التي ناحرت إدريس بن عبد الله.

قاعدة ومنطلقاً لإدريس بن عبد الله لأعوانه من العلويين وأنصاره من قبائل أوربة ومغيلة وصدنية وقبائل زناته وهي زواوة ولواتـة وسـدراتة ونفـزة ومكناسـة وغمارة حيث عبأ منهم جيشاً كثيفاً أعده لغزو بلاد تامسنا ومناطقها التـي كـان سكانها من النصارى واليهود والمجوس والوثنين فأخضعها ونشر الإسلام فيها، ثم لم يلبث أن غزا في السنة التالية حصون فندلاوة و مديونة و بهلوله و قلاع غاثة التي كانت تتحصن بها هذه القبائل واستولي عليها ثم عاد لمهاجمة مدينة تلمسان وأخضع القبائل الضاربة حولها وهي مغراوة و بني يفرن[1].

ومن المفيد أن نذكر انه لم تعترض إدريس بن عبد الله صعوبات في إقناع قبائل المغرب لدعوته اذ كانوا ينزعون بطبيعتهم إلي الاستغلال والتخلص من حكم الولاة العباسيين ثم أن الخوارج الذين سبقوا العلويين إلي هذه البلاد مهدوا الطريق أمام دعوتهم فكأن المغرب قد حرثها الخوارج للعلويين وحين قدم دعاتهم كان سـلطان الخوارج قد زال فانتفعوا بغرسهم [2]. والظاهر أن العلويين قد زادوا علي دعـوة الخوارج ومعارضتهم بقولهم: إنهم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة لأنهـم آل بيت الرسول صلي الله عليه وسلم من ابنته فاطمة وقد ورثوا علم النبوة فاكتسبوا عطفهم، ومعروف عن هذه القبائل أنهم كانوا موقـرين لرجال الـدين ومعظمـين للأولياءالصالحين.

---

[1] ابن خلدون العبر و ديوان المبتدأ والخبر ج 4 ص 25.

[2] د. حسن احمد محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي ص 408.

قيام إمارة الأدارسة:

لقد نجحت حركة إدريس بن عبد الله بإقامة أمارته بفضل اعتماده سياسية الغزو المسلح وتنمية للمبادئ التي كانت قبائل المغرب تري فيها خير دليل لإقامة كيان مستقل لهم عن النفوذ العباسي. والحق أن الأدارسة كانوا يعبرون تعبيراً صحيحاً عن شعور هذه القبائل رغبتهم الحقيقية في الاستقلال ولا غرور إن ينهض الادراسة بأعباء قيام إمارة تكون القبائل المغربية وهم أهل البلاد الأصليين مادتها الأساسية حيث استمرت هذه الإمارة حتى سنة 375 هـ و ذلك علي الرغم من التحديات التي كانت تتعرض لها من الفاطميين في المغرب ومن أمويين الأندلس وقد أهلها ذلك علي ما يبدوا لتعمر أطول فترة من باقي إمارات المغرب الإسلامي.

وكان لقيام إمارة الأدارسة صدي عميق الأثر في جميع أنحاء العالم الإسلامي وخاصة بعد إن توطدت وتدعمت أسسها، اذ كان أعدائها يتدبرون الإيقاع بها وينسقون الخطط لإسقاطها، وأدرك العباسيون انه لم يعد بالامكان الاستمرار علي سياسة القوة التي اعتمدوها للقضاء علي حركة الأدارسة وإماراتهم بسبب تهديدهم لجميع افريقية ومصر و اغاراتهم علي أملاك العباسيين الواقعة إلي الشرق من أراضيهم[1] فلم يكن إمام العباسيين إلا اللجوء إلي وضع الخطط الكفيلة بايقاف زحف الأدارسة إذ عملوا إلي خلق كيان سياسي موالي لهم تمثل بإمارة الأغالبة لتكون حاجز بين أملاكهم وبين إمارة الأدارسة [2].

أما الإجراء الآخر الذي اتخذه العباسيون فيتمثل بمحاولة القضاء علي إدريس بن عبد الله و اغتياله و إخماد الحركة الانفصالية و رأسها إمارة الأدارسة في بلاد

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 6 ص 43-45.

[2] عهد الخليفة هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي بولاية توفي لتكون نواة لإمارة تقيد توسع الأدارسة و تمنع تغلغل نفوذهم في بلاد المغرب و تمنعهم من الاستحواذ علي أملاك العباسيين التي كانت تدر موارد غير قليلة لهم (ابن الأثير، المصدر السابق ص 56).

المغرب الاقصي فدس له هارون الرشيد من قتله بالسم سنة 177هـ [1] غير إن مقتل إدريس بن عبد الله لم يؤثر في مسيرة الحركة الانفصالية ولم يقضي علي إمارة الأدارسة فقد حافظ هؤلاء علي كيان إمارتهم ما يقارب العشر سنوات حتى تسلم إدريس الثاني الذي لم يكن قد ولد بعد [2]، دفة الحكم فبايعته القبائل والتفت حوله .

مدينه فاس حاضرة الأدارسة:

يمكن القول، أن إدريس بن إدريس (الثاني) هو المؤسس الحقيقي لإمارة الأدارسة فقد بايعته قبائل زناته و أوربة و صنهاجة و غمارة، فساعده ذلك علي استكمال قوته العسكرية بتعبئة جيشه و إعداده و كذلك علي توطيد حكمه و الظاهر أن قوه بلاده وصنعتها واستتاب الأمن فيها، اقنع الكثيرين من العناصر والأفراد من المغاربة والمشارقة للنزوح إليه والاستقرار في بلاده و أخذت مدينه وليلي، تستقبل الوافدين من جميع أنحاء المغرب و المشرق و الأندلس فأنشأوا الروابط بينهم وبنوا الأسواق والميادين، وأصبح لهم إحياء تعرف بأسمائهم ولكن

---

[1] استشار هارون الرشيد احد مستشاريه بأمر إدريس فأشار عليه إن يبعث إلي إدريس رجلا تتوفر فيه صفات الذكاء والمكر والدهاء مع البلاغة والجرأة فوقع اختياره علي سليمان بن جرير الذي كان يعرف بالشماخ وأمره بالانطلاق إلي بلاد المغرب فذهب و هو يتظاهر بالطب حتى وصل إلي دليلي فاتصل فانس إليه و اتخذه صاحبا و نديما فكان إدريس في هذا البلد يحي إلي مجالسة المشارفة و محادثتهم و اخذ الشماخ يترصد لاغتيال إدريس بالسم فلما واتته الفرصة بغياب مولاه راشد أعطاه قارورة طيب يتطيب بها و كانت مسمومة فلما شمها أصابه السم و توفي علي اثر ذلك و هرب الشماخ فطلبه راشد حتى أدركه بوادي ملوية فضربه بسيفه فقطع يده ولكن الشماخ استطاع عبور الوادي ثم واصل سيرة إلي بغداد فولاه الخليفة علي بريد مصر (انظر:السلاوي الاستقصا ج 1 ص 159 البكري المغرب ص 121 ابن عذارى البيان المغرب ج 1 ص 121 ابن عذارى البيان المغرب ج1 ص 299 ابن الأثير الكامل ج 5 ص 90) و قيل سمه بوضع ذر ور سموم في سن له موجوعة و قيل سمه في دلا عه (و هو فاكهة الرقي في العراق).

[2] توفي إدريس بن عبد الله دون ولد و لكنه ترك جارية له اسمها كنزة حاملا فانتظر أعوانه و أنصاره حتى وضعت الجارية غلاماً سمي ادريسا فبايعته جميع القبائل من زناته وأوربة وصنهاجة وغمارة (البكري المصدر نفوسة ص 22 الجزنائي زهرة الآسي في بناء مدينة فاس ص 19)

بمرور الزمن أصبحت المدينة تضيق بهم فعزم علي الانتقال إلـــي مدينـــه جديـــدة يؤسسها ويسكنها هو وخاصته من قومه [1]. وفي 192 هـ شرع ببنـــاء مدينـــة فاس [2]، ولما أتمها أمر الناس بالانتقال إليها وأشار عليهم ببناء الدور والمنـــازل وغرس الغروس والأشجار ثم أقام سورها وانزل الوافدين القيروان بالعدوة الغربية وسميت" بعدوة القرويين " وقد أصبح لهاتين العدو تين شأن كبيـــر فـــي تـــاريخ المدينة السياسي الاجتماعي، وتنفتح في سور عدوة الاندلسيين أبواب عدة أهمها باب القبلة وباب الكنيسة أو الخوخة وباب أبي سيفين وباب جراوة وباب الشيبوبة وباب المخفية أما أبواب سور عدوه القرويين فمنها باب افريقية وباب القلعة وباب الحديد وباب الفرج أو السلسلة وباب الفصيل أو النبقة [3].

ويقدم المستشرق المتأسبن ليفي بروفنسال نظرية جديدة في نشأة مدينة فـــاس وتقوم أساساً علي أن إدريس بن عبد الله، أسس المدينة سنة 172 هـ في الموقع التي تقع عليه عدوة الأندلس وان إدريس بن إدريس أسس عدوة القرويين ســـنه 192 هــ في غرب مدينة أبيه وعلي الضفة اليسري من وادي فاس و في الموضع المعروف " بدارالقيطون "[4] ومن المرجح أن تكون الآراء التي جاء بها بروفنسال في هذا الجانب صحيحة لأنه ليس من المعقول أن ينتظر الأدارسة 20 سنة لكـــي يؤسسوا لهم مدينة تكون مقراً ومركزاً لإمارتهم ثم إن قيـــام الـــدول والإمـــارات المستقلة في المغرب الإسلامي خلال القرن الثاني الهجري لابد أن يستتبعه مباشرة

---

[1] يقدر بن خلدون محمد وفد إلي بلاد الادارسة من عرب الجزيرة بخمسمائة فارس مـــن الغسـيين و الازد و الخزرج و مدلج و بني يحصب حتي أصبح لهم نفوذ في الإمارة فلستوزر منهم إدريس عمير بن مصعب الازدي الملقب بالملجوم (العبر ج 4 ص 26 29، انظر أيضا الجزنائي المصدر السابق ص 13)

[2] يقال أن إدريس ابتدأ بحفر الأساس بفأس ذهبية فسميت المدينة فاساً و قيل انه وجد في الحفير فاس كبيرمن الذهب، كما قيل أن مدينه أثرية قديمة كانت تقوم في هذا الموضع كان اسمها "ســاف" فســميت المدينة علي هذا الاسم مقلوبا (أبي زرع الأنيس المطرب، الجز نائي زهرة الأس، بروفنسال الإسلام في المغرب و الأندلس).

[3] الجزنائي، المصدر السابق ص 19 – 20.

[4] ونجد استعراضا للأدلة المادية و التاريخية التي يسوقها بروفنسال لإثبات نظريتـــه (الإســلام فـــي المغرب والأندلس ص 29 – 30)

قيام مدن جديدة تكون مراكز سياسية وعسكرية وثقافية لها، أي اقتران قيام هذه الكيانات بتأسيس عواصم وحواجز لها، فلاشك في أن إدريس بن عبد الله اسس مدينة فاس إقتداء ببني مدرار في سجلماسة و بالرستميين في تاهرت.

ونقرأ عن الجغرافيين المسلمين تفصيلات مهمة عن مدينه فاس ابتداءً من القرن الثالث الهجري حتى الخامس فيقول اليعقوبي عنها: أنها " مدينة جميلة يشقها نهر وهي جانبان يليهما أميران مختلفان "[1].

ويصفها البكري " أنها مدينتان مقترنتان و بينهما نهر مطرد و عدة القرويين غربي عدوة الاندلسيين"[2] أما الإدريسي فيذكر "أنها مدينتين بينهما نهر و المدينة الشمالية تسمي القرويين و تسمي الجنوبية الأندلس"[3]

ومما يلفت الانتباه في عهد إدريس بن إدريس تآمر بعض مشايخ القبائل المغربية المنظمة إليه وضده ومنهم اسحق بن محمود الاوربي كبير قبيلة أوربة الذي اتصل بالأغالبة بغرض الإطاحة به[4]، وبهلول بن عبد الواحد المظفر بالذي كان من معتمدي إدريس و أحد أركان إمارته حيث تآمر هو الآخر مع الأغالبة حتى"انحرف عن دعوة الأدارسة إلى دعوة العباسية"[5] مما اضطر إدريس في نهاية المطاف إلى طلب عقد صلح مع إبراهيم بن الأغلب ليبادر إلى تفويت الفرصة على متآمريه.

لقد أقام إدريس بن إدريس فى مدينة فاس ولم يغادرها خشية ما تدبره بعض العناصر من مؤامرات ربما يروح هو ضحيتها في مدينة وليلي، ولكنه توفي سنة 213هـ[6] مخلفا ابنه محمد الذي أشرك معه أخوته في الحكم فولاهم في إمارته

---

[1] كتاب البلدان ص 357.

[2] البكرى، المصدر السابق ص115.

[3] نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص 75-76.

[4] حيث سعي إلى اغتياله سنة 192هـ(البكرى المصدر السابق ص23).

[5] ابن خلدون العبر ج4 ص27.

[6] جاء في المصادر أن سبب وفاته تناوله لفاكهة العنب فغص بحبة منه فلم يزل مفتوح الفم سائل اللعاب حتى مات، وقيل أنه مات مسموما(البكرى المصدر السابق ص123-124، ابن عذارى المصدر السابق ج1 ص211، ابن الخطيب المصدر السابق ص202).

التي قسمها إلى أعمال [1] واختص هو بحاضرته فاس التي أصبحت مركزاً سياسيا احتل شهرة مرموقة بجميع أنحاء العالم الإسلامي.

واتسم عهد محمد بن إدريس بسيادة الأمن والاستقرار السياسي وبتوطد العلاقات مع القوى السياسية في المغرب الإسلامي سوى ما تشير إليها المصادر من الخلافات الداخلية بين الأخوة حول الاستئثار بالحكم والمتمردات التي استطاع القضاء عليها بالقوة [2].

وخلف محمد بن إدريس بعد وفاته سنة 211 هـ خلفاء كان أكثرهم شهرة يحيى بن محمد بن إدريس الذي شهدت فاس في عهده ازدهارا واضحا في العمران حيث" بنيت فيها الحمامات والفنادق للتجار ومهدت الأرباض ورحل ليها الناس من المدن القاصية[3]، أما في عهد علي بن عمر بن إدريس فقد تعرض الأدارسة الى خطر الزوال على يد الخوارج الصفرية الذي كان يقود جيشهم عبد الرازق الفهري ،حيث استطاع هذا الأخير الدخول الى مدينة فاس والاستيلاء على عدوة الأندلسيين فما كان من أهل عدوة القرويين إلا أن يولوا على أنفسهم يحي بن القاسم الذي عرف "بالعدّام" فقد تمكن من صد هجوم الخوارج وإخراجهم من عدوة الأندلسيين[4].

---

[1] خلف إدريس بن إدريس من الولد اثن عشر وهم: محمد و أحمد و عبيد الله وعيسى وإدريس وجعفر وحمزة ويحيي وعبد الله والقاسم وداود وعمر(البكري المصدر السابق ص 124، ابن عذارى المصدر السابق ص 211، ابن الخطيب المصدر السابق ص202)وقد ولى أخاه القاسم بلاد صنهاجة الهبط و غمارة وولى داوود بلاد هوارة وتسول وتازي و قبائل مكناسة وغياثة وأخاه عبد الله أغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الاقصى وأخاه يحى ولاه أصيل والعرائش ولاد زواغة وولى أخاه عيسى بلاد شالة وسلا وازمور وتامسنا وبرغواطة، أما احمد فولاه مدينة مكناسة وتادلا و ولى أخاه حمزة مدينة وليلي وأعمالها وأبقى أخوته الآخرين يكفالة جدته كنزة لصغر سنهم.

[2] منها حركة أخيه عيسى في منطقة سالة وامتناع أخيه القاسم عن محاربة أخيه عيسى وإخماد حركته فاضطر محمد بن إدريس إلى توجيه أخيه عمر صاح بمناطق صنهاجة وغمارة للقضاء على عيسى والقاسم حيث أمده بجيش استطاع به عمر أن يهزم أخويه ويتولى ولايتهما(ابن خلدون المصدر السابق ص 28، السلاوي، الاستقصا ج1 ص 173).

[3] ابن خلدون المصدر السابق ص 29.

[4] م.ن. ص 31.

غير أن أعلى بني إدريس ملكاً وأعظمهم سلطاناً على حد قول بن خلدون هو يحي بن إدري بن عمر بن إدريس الذي كان فقيهاً عالماً بالحديث " ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة " [1]. ولكن في عهد هذا الأمير بدأت إمارة الأدارسة تتعرض للخطر الفاطمي ففي سنة 305هـ، إلتقى جيش الأدارسة مع جيوش الفاطميين التي كان يقودها مصالة بن حبوس الكتامي، حيث هزم الأدارسة وعاد يحيي بن إدريس الى عاصمته فاس مخذولا فحاصره الجيش الفاطمي فلم يكن أمام يحيي بن إدريس إلا طلب الصلح على مال يؤديه للفاطميين ومبايعتهم، فجرد من أعماله وأمواله وتركت له فاس ليكون أميرا عليها.

ولم يشأ الفاطميون أن يتركوا الأدارسة، فقد أقاموا على فاس ريحان الكتامي وهو من كبار قادتهم غير أن عهده لم يدم طويلا فبعد ثلاثة أشهر من ولايته ثار في مدينة فاس الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف "بالحجام" واستولى عليها وحكمها عامين، ولكن الفاطميين راحوا يدبرون نهاية للأدارسة بتمكين موسى بن أبي العافية المكناسي وتشجيعه على تصفية أسرة الأدارسة وإجلائهم عن فاس ونفيهم إلى مدينة حجر النسر" الحجر" [2] والاستيلاء على عدوة الاندلسيين، وبذلك سقطت إمارة الأدارسة بحلول سنة 375هـ

---

[1] م.ن. ص 32.

[2] وتسمى قلعة النسر وهي الملجأ الذي اعتصم به الأدارسة في شمال المغرب الأقصى بناه إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس و تقع على جبل شامخ الذري أرضه خصبة كثيرة الخيرات وعى مقربة من أحواز سبتة ويجعلها البعض بين تطوان وسفشاون (البكري المغرب ص126) وقال ابن عذاري:"أجلى موسى بن أبي العافية بن إدريس اجمعين عن مواضعهم وصاروا في مدينة حجر النسر مقهورين وحجر النسر حصن مانع بناه إبراهيم بن القاسم بن أدريس وعزم موسى على محاصرتهم في هذا الحصن واستئصالهم فأخذ عليه في ذلك أكابر المغرب فقالوا له:لقد اجليتهم أتريد ان تقتل بني إدريس أجمعين وانت رجل من البربر!!"فأعرض عن ذلك ولاذ عنهم بعسكره"(البيان المغرب ج1 ص 214).

العلاقـــات السياسيـــة

الأدارسة وبنو العبـاس:

تتسم العلاقات بين الأدارسة والعباسيين بطابع عدائي منذ أن سعى إدريس بـن عبد الله إلى تكوين إمارة مستقلة عن نفوذ ولاة العباسيين في المغرب، وإذا أردنا أن نفهم طبيعة هذه العلاقات وجذورها التاريخية فعلينا أن نقرأ علاقات الأدارسـة مع الأغالبة وهم خلفاء بني العباس حيث سخر هؤلاء لمقاومة نفـوذ الأدارسـة والحد من توسعهم وحسر أخطارهم وتهديدهم لممتلكات الدولة العباسية ومواليهم وأنصارهم.

وقد أدرك هارون الرشيد، بعد أن تناهي إليه دخول اغلب قبائل المغـرب فـي طاعة إدريس بن عبد الله و تصميمه علي إقامة إمارة مستقلة عن النفوذ العباسي، انه لا طاقة لجيوش العباسيين علي الوصول إلي منطقة السوسي التي راجت فيها دعوة الأدارسة، فإمارة الأدارسة أصبحت حقيقة واقعة في هذه المنطقـة و علـي العباسيين أن يعالجوا أمرها بما يتوافر لديهم من إمكانيات سياسية أو عسكرية و علي الرغم من نجاح الخطة التي وضعها هارون الرشيد بتصفية إدريس بن عبـد الله لكن العباسيون عجزوا عن الإطاحة بالا دارسة في عهد إدريس بن إدريـس، فأوكل العباسيون هذه المهمة إلي الأغالبة ليقومـوا بهـذا الـدور و الظـاهر أن الأغالبة كانوا لا يمتلكون المقدرة والقوة علي مجابهة أعـداء حلفـائهم فطفقـوا يستميلون بعض القبائل المغربية و يكثرون من الاتصال بزعمائهم لإبعادهم عـن الأدارسة أو استعدائهم عليهم، كما حاولوا التدخل في الشئون الداخلية الأدارسـة وذلك بتسخير صنعائهم للثورة ضدهم في مدينه فاس، ولكن علي ما يبدو أن جميع هذه المحاولات قد باءت بالفشل و استمر قيام إمارة الأدارسة التي كان العباسيون ينظرون إليها علي إنها خطر يهدد بالتهام المغرب الإسلامي ومصر.

ثم أن الأغالبة وبمرور الزمن لم يكن في صالحهم أن يتأصـل عـداؤهم مـع الأدارسة وان تتخذ علاقاتهم السياسية طابعا عدائياً يؤدي إلـي الصـراع بسـبب مصالحهم المشتركة لذلك فليس في وسعهم إلا قبول دعوة الأدارسة بعقد الصـلح

بين الطرفين [1] وأن يكف كل منهما عن الآخر من ناحيته [2] فيشير ابن الخطيب إلي أن إدريس بن عبد الله بن الحسن كتب إلي إبراهيم بن الأغلب بن سالم " يستكفيه عن ناحيته و يذكره بقرابته من رسول الله (ص) فأجابه عن كتابه ووادعه ولم تجر بينهما حرب إلا ما ذكر عنه " [3]

ومن المرجح، أن الأغالبة كانوا يدركون أن الأدارسة قد أسهموا إسهاما فعالا في خدمة العالم الإسلامي، من حيث أنهم ثبتوا القبائل المغربية علي الإسلام بل هم الرواد والممهدون الحقيقيون لظهور هذه القبائل في المجال الإسلامي ظهورا واضحا[4] فلا غرو أن يستجيب الأدارسة للظروف والأحوال التي يمر بها الغرب الإسلامي فيقتنعوا أن النزاع المسلح وما يخلفه من علاقات عدائية وبخاصة مع الأدارسة لا يخدم مصالحهم وكذلك لا يساعد علي استقرار المنطقة وأمنها لذلك تبدو أهمية الإسلام والموادعة وتحاشي الصدام في نظر الأغالبة تحتل الأولوية في سياساتهم والأغالبة بحكم تحالفهم مع العباسيين من جهة فإنهم يسعون إلي التوفيق بين مصالح الإمارات والدول والقوي الإسلامية في المغرب وبين مطالب الخلافة العباسية من جهة أخري كما إنهم أحيانا يرون في بعض الإجراءات التي كان يتخذها الخليفة أو توجيهاته إليهم خروجا عن الواقع السياسي التي تعيشه المنطقة لا يسعهم الامتثال له، وقد ظهر ذلك واضحا من كتاب الخليفة العباسي المأمون إلي الأمير زيادة الله بن إبراهيم 223/201 هـ يحثه فيه علي الدعاء إلي عبدالله بن طاهر علي منابر افريقية، فغضب الأمير الاغلبي وهدد الخليفة بخروجه عن طاعة العباسيين و انضمامه إلي الأدارسة [5].

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق ص 27.

[2] ابن الأثير ، الكامل ج 6 ص 56.

[3] أعمال الإعلام ق 3 ص 14- 15.

[4] د. حسن أحمد محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي ص 412.

[5] لما استمر العباسيون يثقلون الأغالبة بمطالبهم، أرسل زيادة الله بن إبراهيم، كيسا يحتوي علي ألف دينار مضروبة بأسماء بني إدريس هذا يشير إلي أن الأدارسة يشكلون إمارة قوية في المنطقة وأن الأمير الاغلبي كان تهديد الخليفة بانضمام إمارته إلي صف أعداء الخلافة الأقوياء (ابن خلدون، المصدر السابق ج 4 ص 422؛ ابن الخطيب، المصدر السابق ص 17).

ومعروف انه بظهور الأدارسة، ترسخت الأفكار الإسلامية بين قبائل المغرب واستطاع الأدارسة بمساعدتهم في المضي بنشر الإسلام في غرب افريقية وفي حوض السنغال، وهذه الظاهرة كانت تستلفت انتباه العباسيين، مما يترتب عليهم اتخاذ تدابير في المجالات السياسية والعسكرية لغرض التعتيم علي نشاط الأدارسة في هذا المجال غير أن جميع هذه التدابير والخطط قد فشلت نظرا لتنائي بلاد المغرب عن المشرق الإسلامي وعجز جيوشهم عن الوصول إليها، فضلاً عن قوة إمارة الأدارسة وكثرة جيوشها، وقد جاء علي لسان الخليفة هارون الرشيد وهو يستشير رجاله في أمر إدريس بن عبدالله الذي اشتهر أمره واسمه فقال: "... وقد هالني أمره " [1] مما يشير إلي أن إمارة الأدارسة أصبحت قوية منيعة.

ومهما يكن من أمر فإن إمارة الأدارسة لم تصمد أمام مكائد الولاة العباسيين وحلفائهم من الأغالبة، فحسب، بل أنها كانت تذب عن نفسها عدوان القوي الأخرى في المنطقة أيضا، وتثبت أقدامها وتتحدي الصعاب التي كانت تواجهها، مما جعلها تحكم أكثر من قرن (172–375هـ) وامتد نفوذها من السوس الأقصى إلي وهران، وقد عول الأدارسة علي ذلك بتجنيد القبائل وتعبئتها ضد أعدائهم، وهكذا لم يرضخ الأدارسة إلي التهديدات التي كان يطلقها أعداؤهم.

ونعتقد، أن الأدارسة، لم يكن يتح لهم مثل هذا الموقف لو لم يحظوا بالتأييد من أغلب قبائل المغرب القوية و منها أوربة وفعلية و صدنية وقبائل زناتة وهي زواوة ولواته وسدراتة ونفزة ومكناسة وغمارة وكذلك مما زاد في نفوذ الأدارسة أن الحركة الانفصالية عن النفوذ العباسي في بلاد المغرب اقترنت بظهورهم فقد حمل لواءها مؤسسو إماراتهم الأول و لكن من المفيد أن نذكر أن الموادعة التي تمت بين الأدارسة والفاطميين و أن الأدارسة حكموا باسم الفاطميين[2] ووقوع الأدارسة بين خصميه متنازعين الفاطميون في المغرب والأمويون في الأندلس أضعف الأدارسة وأفقد إمارتهم قوتها ونفوذها وسبب لها كثيرا من المتاعب مما أفضي إلي سقوطها وزوالها.

---

[1] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينه فاس ص 203؛ البكري، المصدر السابق ص 119 ابن عذاري، المصدر السابق ص 83، ابن الخطيب، المصدر السابق ص 192– 193؛د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 471 نقلا عن leve- Provencal, Extrandes Historien arabes P 18

[2] السلاوى، الاستقصا ج 1 ص 80 – 86 ابن عذاري، المصدر السابق ج 1 ص 212 – 213.

الفصل السابع

إمـــارة الأغالبة في المغرب الادنـي

1- فتح جزيرة صقلية

2- القيروان عاصمة بني الأغلب

3- العلاقات السياسية

الأمراء الأغالبة والخلفاء العباسيين

الفصل السابع

إمـــارة الأغالبة في المغرب الادني

(184 – 296هـ/ 800 – 908م)

ينتسب الأغالبة إلي إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي، مـــن قـــواد جـــيش الخليفة العباسي هارون الرشيد. حيث عهد إليه هذا الأخير بإقامة إمارة يتزعمهـــا تتمتع بشبه استقلال ذاتي تستظل بالخلافة وتكـــون قاعـــدة سياســـية وعســـكرية للوقوف ضد القوي والحركات المناوئة للخلافة ولاســـتقطاب القبائـــل والعناصـــر المستقلة والمعتدلة والمترددة وقد امتنع الخليفة هارون الرشيد بهذا الإجراء نتيجة لاستمرار الحركات المناوئة والمعادية للخلافة، وخشـــية مـــن انفصـــال المغـــرب الإسلامي عن النفوذ العباسي الذي كان ينظر إليه الخليفة بأنه بات وشيكاً، بل كان واقعاً ملموساً في ظروف هذه البلاد البعيدة بعد قيام إمارة الأدارســـة التي أصبحت العدو التقليدي للنفوذ العباسي.

وقد تبين، أن اشتراط الخلافة لقيام إمارة الأغالبة في ولاية أفريقية المتمثلة في جهات المغرب الادني يقوم علي دعامتين أساسيتين، أولاهما، الضمانات الماليـــة واستمرا ر تدفق الإيرادات علي بيت مال الخلافة في بغداد سواء تلـــك الإعانـــات التي كان يستحصلها ولاة أفريقية من مصر أو تلك التـــي فرضـــت فيمـــا بعـــد[1] وثانيهما يتمثل في منع الأدارسة من سياسة التوسع أو الحد منها في الأقل وكـــذلك دفع الأغالبة إلي التدخل في شئون الأدارسة وإفشال دعواتهم بما يـــراه العباســـيون، فصل بلاد المغرب عن العالم الإسلامي أو سعيهم في توحيد المغرب والمشرق تحت قيادتهم.

---

[1] كانت ولاية مصر ترسل إلي أفريقية مائة ألف دينار سنويا لقمع حركات المعارضة ضد الخلافة، أمـــا الأموال التي فرضها هارون الرشيد كضمان علي الأغالبة و يسمونها " جزية سنوية " فهي أربعون ألف دينار سنوياً، (ابن الأثير، الكامل ج، ص 56).

وفي مقابل ذلك، استحصل إبراهيم بن الأغلب عهد الخليفة هارون الرشيد و موافقته بتثبيته في ولاية أفريقية (منطقة تونس) سنه 184 هـ ومن ثم الاعتراف والإقرار له بتأسيس إمارة تدين بالولاء السياسي و التبعية الاسمية للخلافة واتخذ من القيروان عاصمة لولايته علي أن يقوم بتنفيذ التزاماته تجاه الخلافة فلا غرو أن يسعى إبراهيم بن الأغلب للتعبير عن إخلاصه و مودته للعباسيين فاتخذت علاقاته مع القوي المعادية للخلافة طابع العداء.

فناهض الرستميين والمدراريين وذلك علي الرغم مما عرف عنه من المسالمة والحرص علي أسباب تلاشي الصراع غير انه لم يكن ثمة محيض عن الصدام أمام تشابك الحدود وعدم وضوح معالمها و بخاصة مع إمارة بني رستم و كذلك للبطش بالخوارج الصفرية المتيمين بالقيروان الذين كانوا يمالئون المدراريين علي أن الأغالبة دأبوا علي ترضية الخلافة بإيفاء الضمانات المالية أما موقف الأغالبة من الأدارسة فقد اتسم بالعداء حيث بدأ الأغالبة يترصدون أعداء حلفائهم ويحاولون الإيقاع بهم متي استطاعوا إلي ذلك سبيلا فسخروا من اغتال راشد مولي إدريس بن عبد الله مؤسس إمارة الأدارسة [1]، ووضعوا الخطط للكيد منهم باستمالة العناصر التي تؤيدهم والعمل علي بث روح الفُرقة والتناحر بينهما سواء باسترضائها بالأموال أو بالتهديد و الوعيد .

ويخيلّ إلينا، إن التحالف بين العباسيين والأغالبة كان له ردود فعل عنيفة من جانب بعض العناصر التي لم يكن يروق لها أن تري أي أثر للعباسيين أو سياستهم في بلاد المغرب، فنجد في ثورة " حمديس " الذي ثار في مدينة تونس في عهد إبراهيم بن الأغلب وأبطل شعار بني العباس ذي اللون الأسود[2] وثورة أهل

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق ج 4 ص 420 .

[2] استطاع إبراهيم بن الأغلب أن يقمع هذه الثورة و يهزم حمديس من مدينة تونس و أن يقتل معظم أنصاره و مؤيديه الذين يقدر عددهم ابن الأثير بنحو عشرة آلاف ثائر (الكامل ج 5 ص 104) انظر أيضا ابن خلدون العبر و ديوان المبتدأ و الخبر ج 4 ص419.

طرابلس علي الولاة العباسيين أو ولاة الأغالبة سنة 189 هـ[1] وثورة عمران بن مجالد في مدينة القيروان سنة 195 هـ [2] وثورة الجند في مدينة طرابلس سنة 196 هـ[3] وثورة زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية في مدينة باجة سنة 207هـ [4] وثورة عمر بن معاوية القيسي في مدينة القصرين سنة 208 هـ[5]

---

[1] وكان أهل طرابلس قد ثاروا مرات عديدة قبل تولي إبراهيم بن الأغلب علي الولاة العباسيين لكن ثورلتهم قمعت وفي عهد إبراهيم ثاروا بعامله سفيان بن المضاء وهزموه واستخلفوه بإبراهيم بن سفيان فجرد إليهم إبراهيم بن الأغلب جيشا وهزمهم وقضي علي ثورتهم (ابن الأثير، المصدر السابق ص 121).

[2] وكان هذا من رجال إبراهيم بن الأغلب تمرد عليه وأيده رجل اسمه حريش بن التونسي واجتذبت هذه الثورة كثيرا من الأنصار والمؤيدين واتجه هؤلاء الثوار نحو مدينة العباسية التي كان إبراهيم بن الأغلب قد اعتصم فيها غير أن هذا الأخير استطاع تمزيق صفوف الثوار بعد أن هزم عمران بن مجالد الذي هرب وأقام بالزاب وفي عهد عبد الله بن إبراهيم أعطي لهذا الثائر الأمان ثم قتل (ابن الأثير، المصدر السابق ص 121، ابن خلدون، المصدر السابق ص 421 ابن الآبار، الحلة السيراء ص 105).

[3] قامت علي أثر تولية عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب علي طرابلس حيث ثار الجند وحاصروه في داره وأرغموه علي الهروب إلي القيروان غير أن عبد الله اجتذب إليه الأنصار من بعض القبائل ببذل الأموال لهم فكثرت حشوده وزحف بهم إلي طرابلس مرة أخري وقمع ثورة الجند ولكن أباه عزله واستعمل سفيان بن المضاء فثارت قبيلة هوارة وهاجمت طرابلس واحتلتها فاضطر إبراهيم بن الأغلب إلي تقليد ولده عبدالله القيادة الجيش فلستطاع هذا الأخير إن يسترد المدينة ويهزم هوارة لكن الرستميين انجدوها و حاصروا طرابلس حتى وفاة إبراهيم بن الأغلب فاضطر ابنه عبد الله إلي مصالحة الرستميين وعقدوا اتفاقية بهذا الشأن وعاد عبد الله بموجبها إلي القيروان(ابن الأثير، المصدر السابق ص 156، ابن خلدون، المصدر السابق ص 420-421).

[4] استطاع زيادة الله بن إبراهيم قمع هذه الثورة وقتل القائمين بها (ابن عذاري البيان المغرب ج1 ص97).

[5] استولي علي مدينة القصرين وكان من قبل عاملا عليها، فجرد زيادة الله بن إبراهيم جيشا حاصره أياما ثم استنزله بالأمان هو وولديه، حباب وسمعان فغدر بهم وقتلهم ويروي ابن عذاري قصة مقتل عمرو بن معاوية وولديه علي يد زيادة الله بالتفصيل (البيان المغرب ج1 ص98،97)

وثورة منصور بن نصير الطنبذي في مدينة طنبذة سنة 209 هـ [1] نقول أن هذه الثورات دليل ينهض علي احتجاج الثائرين ضد سياسة الأغالبة التي كانت تقوم علي التبعية و الولاء للخلافة العباسية و كذلك ضد الإجراءات التي كان يتخذها أمراء الأغالبة أو عمالهم في المغرب الادني من حين لأخر.

ومن المفيد أن نذكر أن عهد أبي العباس عبد الله بن إبراهيم 196-201 هـ قد اتسم بالهدوء والاستقرار نتيجة لجوره وتعسفه فقد وصف بأنه كان " متعسفاً جائراً ظلوماً مع رعيته أحدث بافريقية وجوهاً من الظلم شنيعة " [2]، كما قيل عنه انه كان "جماعاً للأموال" [3] أما زيادة الله بن إبراهيم 201-223 هـ فتبالغ المصادر في القول بأنه كان من أفضل أمراء الأغالبة، فقد كان يمتلك المقدرة والكفاية السياسية والعسكرية إلي جانب ما عُرف عنه من حب للعلم وتقدير

---

[1] وهي من اعنف الثورات التي واجهتها الأغالبة ومن أشدها خطرا عليهم حيث انتقضت أفريقية علي زيادة الله بن ابراهيم فلم يبق في يده سوي الساحل و قابي. وكان منصور الطنبذي يحاول الاستيلاء علي تونس فأرسل إليه زيادة الله قائده محمد بن حمزة و أمره بمباغتته غير أنه لم يجده فنزل بدار صناعة السفن في تونس وأرسل إليه وفدا من شيوخ تونس لاسترضائه لكن منصور تظاهر بالإخلاص للاغالبة وعرض عليهم المبيت بغية السير معهم إلي زيادة الله وأرسل إلي محمد بن حمزة بقرا وغنما وعلفا فاطمأن لذلك غير أن منصور سجن الوفد وزحف مع أشياعه و أنصاره إلي تونس و هجموا ليلا علي الجيش هناك و قتلوا والي المدينة فلم يكن أمام زيادة الله إلا توجيه عساكره إلي الطنبذي بقيادة و زيره الأغلب بن عبد الله بن الأغلب المعروف بغلبون و لكن هذا الأخير هزم و استولي الثوار علي عدد من مدن أفريقية وخلعوا سلطة الأغالبة ثم زحفوا نحو القيروان و حاصروها ثم احتلوها لكن زيادة الله استطاع أن يهزمهم ويسترد المدينة. وفي 210 هـ عاود الثوار الهجوم علي القيروان واستولوا عليها وكتبوا إلي زيادة الله أن يرحل عن أفريقية ولكن أشير علي زيادة الله الاستعانة بقبيلة نفزاوة حيث ساعدته في إيقاع الهزيمة بالثوار وقتل قادتهم و في سنه 215 هـ تجددت الثورة في مدينه تونس و كان يقودها فضل بن أبي العنبر وأيده أنصار الطنبذي ولكن زيادة الله تمكن من إخمادها (ابن عذاري ، المصدر السابق ص 101 ابن الأثير المصدر السابق ص 158).

[2] ابن عذاري، المصدر السابق ص 95

[3] ابن الخطيب المصدر السابق ص 15

للعلماء فأبتني القصور ومراكز الثقافة في القيروان والعباسية وتــونس وسوســة وأسس نواة للأسطول الإسلامي المزود بالسفن الحربية و المعدات العسكرية .

فتح جزيرة صقلية:

لقد كانت سياسة الأغالبة تقتضي في هذه الفترة السعي لتحقيق الأهداف التـــي رسموها لتوسعهم في حوض بحر الروم (البحر المتوسط) ففي ســنة 206هــــ توجهت قطعانهم البحرية وأسطولها إلي الجزر القريبة من تونس ومنها جزيـــرة "سردانيا "[1] سردينيا، ولكن أهم عملية بحرية منظمة في عهد الأمير زيادة الله بن إبراهيم التى استهدفت جزيرة صقلية حيث تم فتحها فأصبحت جزءا مـــن الـــبلاد الإسلامية و توارث المسلمون حكمها أكثر من قرنين من الزمان كانت فيها مصدرا للثقافة و مركزا من مراكز الحضارة العربية الإسلامية.

ولعل من أهم الدوافع لفتح جزيرة صقلية سنة 212هـــ هو العامل الديني الذي يتمثل بالجهاد في سبيل الله و في محاولة القضاء علي غارات الروم البيـــزنطيين علي الثغور الإسلامية وعودة إلي السياسة التي جري عليها الأمويون في المبادرة لشن الغارات علي حدود البيزنطيين، أما العامل الاقتصادي فإن صقلية بلاد غنية و تمثل أراضي جديدة يمكن استغلالها وقد لعب هذان الدافعان دورهما في التأليف و التحشيد و إعداد الحملة [2]. إن اختيار القاضي أسد بن الفرات (وهـــو مصـــنف الاسدية في الفقه علي مذهب مالك بن أنس) قائدا للحلة عن روح الجهاد يضاف إلي أن زيادة الله كان يحرص علي الظهور بمظهر المجاهد المثاغر أمام الرعيـــة كما انه كان يعاني من ثورات الجند فأراد أن يكسر شـــوكتهم و يـــتخلص مـــنهم باشراكهم في الحرب هذا من جهة، ومن الجهة الاخـــري فـــإن قائـــد الأســـطول البيزنطي " فيمي euphemiu" أعلن تمرده علي الإمبراطور ميخائيل الثاني الذي أمره بمواجهة الجيش الإسلامي حيث استولي هذا القائد علي مدينة " سرقوصـــة psiracuse " و نصب نفسه ملكاً علي صقلية و لكن أتباعه و جنده خرجوا عليه

---

[1] ابن عذاري م. ن ص 97.

[2] د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 285.

فتمكن والي مدينة " بلزم palemo" من هزيمة فيمي والاستيلاء علي سرقوصة فلم يسع فيمي إلا اللجوء إلي الأغالبة حيث ساعدهم علي فتح الجزيرة اقلع أسطول الأغالبة و هو مؤلف من مائة مركب فيمي و استولي علي حصون كثيرة وحاصروا سرقوصه براً وبحراً وجاءتهم الإمدادات من أفريقية و بعد مناوشات بين الطرفين فتحوا مدينة بلزم وهي الميناء علي الساحل الشمالي للجزيرة و لستمر جيش الأغالبة يحاصر المدن ثم يدخلها حتى سنة 223 هـ حيث توفي زيادة الله فلم يهنوا و قاتلوا الروم و هكذا بقيت جزيرة صقلية طوال عصر الأغالبة مركزاً لجهاد البيزنطيين ولم يكتف الأغالبة بهذه الجزيرة بل أغاروا علي جزيرة مالطة و احتلوها " [1]

لقد حكم إمارة الأغالبة بعد وفاة زيادة الله بن إبراهيم سنة 223 هـ عدد من الأمراء تميزت عهودهم بالاستقرار والهدوء، وهو أمر طبيعي لان الأمراء الأول كرسوا قوتهم لكي يذبوا عنها الأخطار ومؤامرات المعرضين والمناوئين والثوار و إرساء دعائمها علي أسس متينة وتوطيدها بانتهاج سياسة داخلية تقوم علي الإصلاح وإرضاء الرعية و تطمين مصالحها. ونستدل علي قوة الأغالبة ومنعت إمارتهم بناءهم لمدينة العباسية سنة 227 هـ بالقرب من مدينة تاهرت وذلك علي الرغم من قيام الرستميين بتخريب هذه المدينة [2]غير أنها ظلت قائمة رمزاً للتحالف بين الأغالبة و العباسيين.والظاهر أن اهتمام الأغالبة بإقامة المدن والمنشآت والمساجد و القناطر وحفر المراجل(البرك لخزن المياه)علي شكل صهاريج واسعة مستديرة لمياه الشرب والري، وبناء أسوار المدن والحصون والمحارس علي ساحل البحر [3] إنما يدل هو الأخر علي فترات الانتعاش والهدوء السياسي الذي ساد منطقة الأغالبة ففي 252 هـ قام محمد بن حمدون الأندلسي المعافري وهو أحد وجهاء القيروان ببناء المسجد المنسوب إليه في القيروان [4]

---

[1] ابن عذاري، المصدر السابق ص 102 – 106 ابن الأثير المصدر السابق ص 187 ابن خلدون، المصدر السابق ص 426، د. إحسان عباس، العرب في صقلية ص 32.

[2] ابن الأثير، المصدر السابق ص 293.

[3] ابن خلدون، المصدر السابق ص 431.

[4] ويعرف بمسجد الأبواب الثلاثة فقد بني بالأجر و الجص و الرخام وتعد زخارف واجهته من أروع الزخارف (د. السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ج2 ص 399.

وذلك في عهد الأمير أبي الغرانيق محمد بن أحمد 261/205 هـ، كما أقام الأمير إبراهيم بن أحمد 289/261 هـ مدينة قادة وبني فيها جامع الفتح سنة264 هـ[1]

أما مظاهر الصراع علي السلطة في إمارة الأغالبة، فيبدو واضحاً في الفترة الواقعة من 231 –290 هـ ولعل أوضح صورة لهذا الصراع ما جري بين الأمير أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم 226 – 242 هـ وأخيه أبي جعفر أحمد بن الأغلب، حيث كان هذا الأخير ساخطا علي أخيه بسبب تسلط وزيره علي أمور الإمارة، وكان من نتيجة خروجه علي أخيه أن استصفي خصومه واستأثر بالسلطة لنفسه ولم يبق لأخيه غير الاسم ولكن أحمد بن الأغلب عمد إلي تدبير مؤامرة للقبض علي أخيه و أعوانه و نفاهم إلي مصر[2] وكذلك ما حدث بعد تولي الأمير أبي العباس عبد الله بن إبراهيم حيث نسج له ابنه زيادة الله مؤامرة لقتله غير أنها كشفت فقبض علي زيادة الله و أودع السجن و لكنه عول علي فتيان الصقالبة فأمرهم بقتل أبيه [3] فتولي زيادة الله بن إبراهيم الإمارة سنه 290– 296 هـ و قرر الانتقام من أعمامه فنفاهم ثم قتلهم وقتل الفتيان الصقالبة الذين قتلوا أخاه أبا عبد الله الملقب بالأحول[4] .

ومن المحتمل أن تكون سلسلة الثورات بوجه الأمراء والأغالبة قد أوهنت في قواهم و جعلتهم لا يقوون علي مواجهة أي خطر خارجي قد يتعرضون له و بخاصة بعد أن استكملت حلقات هذا الوهن بالصراع علي السلطة الذي أضعفهم كثيراً أمام تدفق الخطر الفاطمي الذي راح يهدد بلاد المغرب برمتها والتهام إماراته ودوله والقضاء علي قواه السياسية والعسكرية خلال هذه الفترة.

---

[1] ابن الأثير، المصدر السابق ص 5 ن ابن خلدون، المصدر السابق ص 431

[2] ابن عذاري، المصدر السابق ص 108، ابن الأثير، المصدر السابق ج 5 ص270، ابن الخطيب، المصدر السابق ص 21.

[3] ابن الأثير، المصدر نفسه ص 103.

[4] ابن عذاري المصدر نفسه ص 135 – 136.

ونعتقد أن الخاتمة التي وضعها الفاطميون لإمارة الأغالبة كانت خطة محكمـــة تنطوي علي الإعداد المسبق لها وقد تم اتخاذها من قبل قائـــدهم أبـــي عبـــد الله الملقب بالمحتسب حيث زحف بجيشيه بطريقه أرهبت أعدائه وأدخلت في قلـــوبهم الهلع والخوف، فلم تصمد جيوش الأغالبة أمام زحف الجيوش الفاطميـــة لـــثلاث مرات [1] حيث تقدم لإسقاط المدن واحتلالها مبتدئا في مدينة طنبة وبلزمة وباغاية وتيجسي وقصفة وبلاد قسطيلية والأربس وكذلك مدن مجانه وتيفـــاش وســـبيبه وقموده وسكيانه وتبسه ثم القصرين[2] وأمام هذا التقدم الظافر للجيوش الفاطمية لم يقو زيادة الله علي الصمود وقرر الهرب إلي مصر فخرج متخفيا ليلا مع وجوه قومه وفتيانه وألف من عبيده الصقالبة وأفرغ ما في خزائن الإمارة مـــن ذهـــب وجوهر ورحل من رقاده[3] تاركاً إمارته أمام رحمة العساكر الفاطميين حيث أسدلت عليها الستار وسقطت سنة 296 هـــ.

القيروان عاصمة بني الأغلب:

اختط عقبة بن نافع الفهري، مدينة القيروان وأسسها لأغراض عسكرية ودينية سنة 50 هـــ/670 م في منطقة تونس وبني في وسطها مسجدها الجامع وقد بقيت هذه المدينة ردحاً من الزمن مركزاً لجميع بـــلاد المغـــرب الإســـلامي وعاصـــمة لافريقية[4] ويقدم لنا أبي عبيد البكري، معلومات مفيدة عن القيروان تلقي ضـــوءا عن أحوالها الاجتماعية و العمرانية و تساعدنا علي القول أنهـــا كانـــت نموذجـــا للمدينة الإسلامية في خططها ومنشأتها ودروبها وفنادقها وحماماتها وأبوابهـــا و أسوارها[5] لذلك فقد اتخذها الأغالبة حاضرة لهم و عاصمة لدولتهم سنة 184 هـــ

---

[1] ابن الأثير، المصدر السابق ص 130.

[2] ابن عذاري، المصدر السابق ص 141، ابن الخطيب ص 42، ابن خلدون ص440.

[3] تذكر المصادر انه لما اتصل الخبر برقادة إلي زيادة الله علم أن الأمر خطير و أن الإمارة قد انقرضت فاستعد للهروب و اخذ في رفع الأموال و أصبح الناس غداة تلك الليلة إلي قصور زيادة الله فانتهبوها و اخذوا الأموال منها) ابن عذاري، ص147، ابن الطيب ص 42 ، ابن خلدون ص 441.

[4] ابن الخطيب، أعمال الإعلام ق 3 ص 9 هامش رقم (1).

[5] المغرب في ذكر بلاد أفريقية و المغرب ص 25.

فاكتسبت أهمية بين أمصار المغرب و قواعده ومدنه حتى وصفت بأنها " أم أمصار وقاعدة أقطار و كانت أعظم مدن المغرب قطراً و أكثرها بشراً "[1]

ويكمن القول أن التطور العمراني والاجتماعي التي شهدته القيروان في عهـد الأغالبة إنما كان بسبب مركزها السياسي والـديني وموقعهـا الجغرافـي حيـث تشخص علي الطرق التي تؤدي إلي الأندلس والمغربين الأوسط والاقصي من جهة و المشرق الإسلامي وموانئ الطرق التجارية الواقعة علي شاطئ أفريقية من جهة أخري ويذهب الدكتور الحبيب الجنحاني إلي القول أن خطط القيـروان ومنشـأتها ومسالكها تعطي فكرة واضحة عن أهمية التقدم المعماري فقد بلغ طـول الشـارع التجاري الرئيسي فيها المسمي" سماط القيروان " ميلين وثلثاً أي بما يزيـد عـن الثلاثة كيلو مترات ونصف، ولا شك في أن هـذا يـدلل علـي سـعة المدينـة و ضخامتها وتعدد مرافقتها و تشابك المصالح فيها [2]

ويبدو أن الأغالبة قرروا أن يقتفوا اثر المدراريين والرستميين والأدارسة فـي تأسيس مدن تمثل وجودهم السياسي والاجتماعي مثل سجلماسة وتاهرت وفـاس فشرعوا في إقامة مدينة العباسية جنوبي القيروان ليتخذوها مقراً ومركزاً لهـم[3] وللأسف لا توجد لدينا معلومات كثيرة ومفصلة عن هذه المدينة سوي النتف التي يذكرها ابن عذاري التي جاء فيها أن إبراهيم بن الأغلب شرع سنة 185 هـــ أي بعد سنه واحدة من قيام إمارته في القيروان في بناء مدينة " القصر القديم " الذي هو نفسه مدينة العباسية علي الأرجح، وربما كان هذا القصر في بدايته داراً غير رسمية للأمير إبراهيم بن الأغلب ثم صار بعد ذلك " دار أمراء بني الأغلب " حيث

---

[1] الادريسي، نزهة المشتاق في اختزان الآفاق ص 110.

[2]) المغرب الإسلامي ص 53.

[3] ربما كان الاغالب يتشبهون بحلفائهم العباسيين أو بالأمويين في الأندلس كـانوا ينشـئون لـدولهم عواصم ملكية غير العواصم التقليدية التي كانت تضم طبقات و فئات اجتماعية قد لا يتوفر فيها الإخلاص لهم كما هو الحال بالنسبة للعباسيين عندما تركوا الكوفة و اتخذوا لهم الهاشمية مقرا ثم كيـف أنشـأوا بغداد في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ثم سامراء في عهد الخليفة المعتصم بـالله و كيـف تركـوا الفسطاط و أنشأوا مدينة العسكر في مصر و كيف بني عبد الرحمن الناصر مدينة الزهراء و محمد ابـن أبي عامر الزاهرة في الأندلس.

نقلوا إليه السلاح والعُدد سراً وأقاموا فيه وأسكنوا عبيدهم وأهل الثقة من خدَميهم[1] وأن إبراهيم بن الأغلب هو الذي أطلق عليه اسم "العباسية " [2]تعبيراً عن ولائه لحلفائه العباسيين ولكن المؤرخ النفوسي يشير إلي أن الأغالبة في عهد أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم أقاموا مدينة العباسية سنة 239 هـ في بلاد الجريد[3] لتكون قاعدة عسكرية ينطلقون منها ضد الرستميين و عاصمتهم تاهرت ولمنع الأخطار المحتملة منهم فضلا عن منافستها للعاصمة الرستمية في تجارة مرور القوافل غير أن الرستميين أفلحوا في تدميرها وحرقها لاتقاء خطر الأغالبة في المنطقة [4].

وأغلب الظن أن مدينة أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم هذا تمثل المحاولة الثانية لإقامة مدينة بالاسم نفسه بعد عباسية إبراهيم بن الأغلب، أو إن الأول أقام المدينة نفسها بعد تخريبها من قبل الرستميين وأقام الأمير إبراهيم بن محمد 261 – 289 هـ" المدينة رقادة سنة 263 واتخذها داراً ووطناً انتقل إليها من مدينة القصر القديم" العباسية "وبني بها قصورا عجيبة وجامعاً وعمرت بالأسواق والحمامات والفنادق وغدت دار ملك لبني الأغلب " [5] ثم أصبحت هذه المدينة مركزا مهما من مراكز التجارة والعلم والحضارة بيد أن مدينة القيروان التي اعتمدها الأغالبة قاعدة لهم لم تبق محتفظة بدورها كمركز سياسي واقتصادي وحضاري فحسب بل أنها وصلت إلي أوج تطورها العمراني والاجتماعي والثقافي فهي" لم تزل دار ملك لبني الأغلب إلي أن هرب زيادة الله منها وهو آخر أمرائهم[6]

---

[1] البيان المغرب ص 92 – 93.

[2] ابن الأثير، الكامل ج 5 صر 154 ح ابن خلدون، العبر ج 4 ص 419.

[3] الأزهار الرياضية ج 2 ص 189، انظر د. محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي ص 143

[4] البلاذري، فتوح البلدان ص 227 ابن خلدون، المصدر السابق ص 200– 201.

[5] ابن عذاري، البيان المغرب ص 94.

[6] البكري، المغرب في ذكر أفريقية و المغرب ص 27.

العلاقـــات السياسيـــة

الأمراء الأغالبة و الخلفاء العباسيين:

اتخذت علاقات بني الأغلب منذ قيام إماراتهم بإيعاز من الخليفة هارون الرشيد، مع الخلفاء العباسيين طابعا وديا اتسم باستمرار صلات التحـالف، وكـان تـولي الأمراء الأغالبة لولاياتهم قد استلزم عهدا بالولاية "التقليد" من الخلافة في مقابـل التبعية الاسمية لها، وقد جري الأمر بهذا الشكل منذ تولي إبراهيم بن الأغلب سنة 184 هـ وحرصت الخلافة أن تكون علاقاتها مع الأغالبة تسير علي نمط واحـد في جميع العهود، ويبدو أن الأغالبة حرصوا من جانبهم كذلك علي ديمومتها بهذا الإطار ما استطاعوا إلي ذلك سبيلاً، ولكن من المحتمل جدا أنهم كـانوا يراعـون الظروف السياسية التي كانت تمر فيها إماراتهم وهي بين حشد من الأعداء ففـي حين تحتم عليهم الاستجابة للعباسيين وتلقي " أوامرهم وإجراءاتهم التي في كتبهم "[1] فإنهم كانوا في أحيان أخري يفضلون الابتعاد عن مناجزة أية قوة سياسية أو مناهضتها والإحجام عن إذكاء أو تشجيع ما يؤدي إلي الخصومة والعداء معها فهم في ذلك يؤثرون حياة الهدوء والموادعة ولكنهم في ظروف أخري لم يعدموا إزاء الضغوط العباسية وسياسة التبعية، العمل علي مناهضة الكيانات القائمة وإرسالهم للعملاء والصنائع لغرض التطوح بها كما فعلوا مع الرستميين والأدارسـة وبنـي مدرار وأمويي الأندلس.

ومن الواضح، أن الأغالبة بكونهم أداة الخلافة العباسية وعمالها فـي أفريقيـة ورمزا لنفوذها الوحيد في جميع بلاد المغرب الإسلامي، فإنهم يعجزون في كثيـر من الأحيان عن تقديم صورة بلون آخر لموافقتهم وعلاقاتهم مع القوي والفئـات والعناصر، وذلك لان هذه القوي قد تأصل عداؤها للعباسيين ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تستبدل نظرتها تجاه الخلافة، فإذا شاء الأغالبة اتخاذ مواقف وعلاقات جديدة معها، فعليهم أن يعيدوا النظر في علاقاتهم مع العباسيين وأن يعلنوا شجبهم

---

[1] ابن خلدون، العبر ج 4 ص 422، ابن الخطيب، أعمال الأعلام ق 3 ص 17.

لسياسة العداء التقليدي التي تنتهجها الخلافة و نبذ الأحقاد القديمة و تطبيق سياسة تقوم علي التقارب و الموادعة و تحاشي التدخل و الشقاق.

ومن الجدير بالذكر أن كلا الطرفين العباسيين والأغالبة إذا كان حقا يغفلان العداء السياسي و إسقاطه من سجل العلاقات مع بعض العناصر في المغرب الإسلامي فإن هذه العناصر لا يسعها نسيان الخلافات المذهبية و العقائدية، مما يجعل أي مسعى من جانب الأغالبة للتوفيق معها غير مثمر لذلك ينكب الأغالبة علي تدبير المكائد و إحداث انشقاق بين هذه القوي و مناهضة حكامها [1]

وتفيض المصادر المتوفرة بمزيد من التفصيلات حول إمعان بعض أمراء الأغالبة في السير بهذا الطريق جرياً علي سُنة الخلافة وتنفيذاً لمشيئتها غير إنهم في ظروف معينة لا يسمعون فيها صوت الخلافة، ينتج توتر في العلاقات معها تضطرهم في نهاية الأمر، إما إلي الاستلام لمشيئتها و إما إلي التهديد و الوعيد بالخروج عن طاعتها [2].

وغني عن البيان، أن قيام إمارة الأغالبة لا يمثل في الواقع إلا استغلالا محدود الأفق، استقلال في السياسة الداخلية، أما تقرير سياستهم الخارجية وعلاقاتهم في المنطقة فتحكمه توجيهات الخلافة و أوامرها كما أنهم لا يملكون حتى التصرف بممتلكات العباسيين و شؤون أفريقية مما يجعلهم عاجزين في بعض الأحيان حتى عن الدفاع عن أنفسهم فالعباسيون لم يقدروا أن ينجدوا حلفائهم الأغالبة ويحولوا دون سقوط إماراتهم بيد الفاطميين الأمر الذي حدا بزيادة الله إلي تأكيد تحالفه مع الخلافة وطلب النجدة منها فأرسل كتابه إلي الخليفة المكتفي بالله ومعه هدية[3]

---

[1] ابن عذارى، البيان ج 1 ص 107، 119، 122، 123، 131، 137؛ لسان الدين بن الخطيب، أعمال ص 26، ابن الأثير، الكامل ج 5 ص 253 259 ، 300 ، ابن خلدون ، العبر ج 4 ص 428 ، 431 .

[2] ابن خلدون، المصدر نفسه ص 422، ابن الخطيب، المصدر نفسه ص 17 (انظر أيضا الفصل السادس من هذا الكتاب ص 13).

[3] وكانت الهدية تشتمل علي مائة مثقال من الذهب و كتب في كل مثقال هذين البيتين من الشعر

يا سائرا نحو الخليفة قل له — أن قد كفاك الله أمرك كله

بزيادة الله بن عبد الله — سيف الله من دون الخلفة سله

(ابن عذاري، المصدر السابق ج 2 ص 137)

لإشعاره باستمرار العلاقات الرسمية بين الطرفين و انه علي أهبة الاستعداد لصد الهجوم الفاطمي الذي كان يستهدف بنظر زيادة الله الوجود العباسي ونفوذه في المغرب و لكن لم تنفع محاولات الخليفة في حث أهل أفريقية علي نصرة زيادة الله ومحاربة الفاطميين بكتاب أرسله وقرأه علي الناس هناك[1] فقد واصل الفاطميون تقدمهم في أملاك الأغالبة واحتلوا مدنهم، فلما اتصل الخبر بزيادة الله و هو في رقاده أيقن أن إسناد العباسيين المعنوي و الروحي و العسكري له لا يقوي علي الصمود أمام الفاطميين، فضلا عن أن أوضاع الخلافة هي ليست أحسن حالا مما آلت إليه إمارة الأغالبة من الضعف والوهن.

---

[1] وجاء فيه: ضرورة الوقوف صفا واحدا وراء الأمير المجاهد المطيع لأمير المؤمنين لقتال " عدو الله الخارجي الناجم بأطراف نواحي المغرب وأنصاره، أشياع الظلال وأوباش الجهال والباغين في الفتن وأن من كان مذهبه مذهب زيادة الله كانت وسيلته الوكيدة و قربته عند أمير المؤمنين و كان حقيقيا بالاجتباء له و الإحسان إليه و السكون إلي ناحيته وأمير المؤمنين مرتضي لأمره حامد لطريقته واثق من صحته معتمد عليه في الصقع الذي هو به " د. موسي لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ص 289 نقلا عن مخطوطة النعمان بن محمد التميمي افتتاح الدعوة وابتداء الدولة مكتبة جامعة القاهرة رقم 24055) ابن عذاري، المصدر السابق ص 140.

الفصل الثامن

الدولة الفاطمية في بلاد المغرب

1- تمهيد

الفاطميــون

2- المهدية و استكمال قيام الدولة الفاطمية

- علاقات الدولة الفاطمية السياسية

" في نطاق المغرب الإسلامي "

أ- الفاطميون ودولة بني العباس

ب- جزيرة صقلية بين المواطنين والعباسيين

ج- تطلع الفاطميين نحو مصر

د- الفاطميون وأمويو الأندلس

الفصل الثامن

الدولة الفاطمية في بلاد المغرب

(197 – 365هـ / 909 – 975م)

تمهيد:

الفاطميون:

عرفوا بالإسماعيلية [1] أو السبعية أو التعليمية أو الباطنية [2] و لكنهم حرصوا اشد الحرص علي أن يعرفوا بالعلويين أو الفاطميين[3] بيد أن اسم العبيديين هو الشائع في الكتابات التاريخية و ذلك نسبة إلي عبد الله المهدي بن سعيد بن محمد الحبيب الذي ولد سنة 259 هـ في مدينة الكوفة و قيل في سلمية [4] و هو أخر الأئمة المستورين للإسماعيلية *.

يبدأ إهتمام الفاطميين ببلاد المغرب الإسلامي، بإرسال داعين من مقرهم في مدينة سلمية من بلاد الشام الواقعة بين حمص وحماه، إلي هناك، و هما عبد الله

---

[1] نسبة إلي إسماعيل بن جعفر الصادق، سادس الأئمة الاثني عشرية.

[2] الباطنية، من يعتقدون أن لكل نص باطنا يدركه الخاصة من الناس بطريق التأويل، و قد لقبوا بالسبعية لقولهم أن ادوار الإمامة سبعة و الانتهاء إلي السابع هو أخر الدور و كذلك لان تدبير العالم السفلي منوط بالكواكب السبعة و أعلاها زحل، أما التعليمية فإن مذهبهم دعوة الخلق إلي التعليم من الإمام المعصوم و استخدام العقل (انظر: أبو حامد الغزالي فضائح الباطنية ص 11 – 7، (د. موسي لقبال: دور كتامه ص 203 هامش 41)

[3] لان أولاد عبيد الله المهدي هم أولاد فاطمة بنت النبي (ص) منهم علويين و لكن نسب هذه الأسرة كان و لا يزال موضوعا كثرت فيه أراء الكتاب و المؤرخين الاقدمين و المحدثين (انظر: د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص 57 – 79)

[4] ابن حنكان، وفيات الأعيان ج 1 ص 272.

* يرون أن الأئمة أو يمكن أن يكون ظاهرين جميعا بل ينبغي أن يستتر قسم منهم بتأثير الظروف و يلقب الأئمة المستورين بلقب " المستورون في ذات الله " وقد ترتب علي ذلك قيام عدد من الأئمة المستورين بين محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وبين ظهور الفاطميين (انظر: الشهر ستاني، الملل و النحل ج 2 ص 5، ابن أيبك الداوداري، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ج 6 ص 4)

بن علي بن أحمد المعروف بالحلواني وأبو سعيد الحسن بن القاسم، حيث زودوا بالوصايا في استمالة القبائل المغربية لدعوتهم و مراعاة الحذر والتستر.

وقد استطاع هذان الداعيان أن يكسبان أنصار في مدن تاله ومرماجنه والأربس ونقطة ومسكيانه ومجانه وسبيبة وباغاية، مما أوجد للحركة الفاطمية ركائز سياسية في نضالها في التاريخ اللاحق في هذه المنطقة ومعروف أن أكثر حركات المعرضة العلوية بوجه الأمويين أو العباسيين[1]، كان نصيبها الإخفاق ولكن نجاح الادارسة الذين يمثلون العلويين من الفرع الحسيني شكل إرهاصاً بنجاح فرع الحسنيين الفاطميين في إقامة اكبر دولة علوية في بلاد المغرب الإسلامي هي الدولة الفاطمية[2] ولكن قبل أن يتوج نضال الفاطميين بقيام دولتهم استطاعت معارضة العباسيين أن تزرع بذور الحركة الانفصالية التي أينعت بظهور مجموعة من إمارات المدن و المراكز في المغربين الأوسط والأقصى، التي لم يتح لها التوسع، وبقيت داخل حدودها، ويلاحظ أن أغلبها كان علوي الاتجاه[3]، ومن المعتقد أنها كانت إرهاصاً مكملاً لما سبقه من أجل النهوض الفاطمي العلوي.

---

[1] المسعودي، مروج الذهب ج 2 ص 199 ابن الطقطقي الفخري في الآداب السلطانية ص 201

[2] د. موسى لقبال، المصدر السابق ص 198 (أي أن الادارسة يرجع نسبهم ألي الحسن بن علي بن أبي طالب، والفاطميون إلي الحسين بن علي بن أبي طالب.

[3] ومن هذه الإمارات: إمارة هاز ، قرب المسيلة يسيطر عليها الحسن بن سليمان بن سليمان بن الحسن بن علي ، و منطقة متيجة (فررونة) وهي مركز لمحمد بن جعفر الحسني وحوض الشلف الذي يشقه نهر الشلف أكبر انهار الجزائر حيث توجد فيه مدن ومراكز عدة ومدينة سوق إبراهيم التي كانت يسيطر عليها فرع علوي من بني الحسن أولهم إبراهيم محمد بن سليمان بن عبد الله و إمارة تمطلاس في مضارب قبيلة مطماطة وإمارة ايزرج وحاكمها إبراهيم بن محمد المعتزلي والمدينة الحسنه وتليها مدينة تلمسان وهي دار مملكة زناتة " ومدينة العلويين وكانت مركزا لمحمد بن سليمان ومدينة فالوس وإمارة نكور لبني سعيد بن صالح و ارشقول لبني محمد بن سليمان و جزيرة اشتول وهي مركز حصين لجأ غليه العلو يون و منهم الحسن بن عيسي بن أبي اليعيش و مدينة ترناتة قرب الساحل تلمسان و مدينة حمزة (البويرة) نسبت إلي حمزة ين الحسن بن سليمان و مدينة تنس بقرب البحر مركز لبني محمد بن محمد بن سليمان ثم اختص بها إبراهيم بن محمد اليعقوبي الذي كتب عنها (انظر البكري ، المغرب ص 63 – 88 ، د . موسي لقبال، المصدر نفسه ص 209 -213).

ويبدو أن انتهاء الداعيين عبدالله بن علي بن أحمد الحلواني وأبي سفيان بـن الحسن بن قاسم اللذين أرسلهما الفاطميين بوفاتهما أدي إلي اختيار مـا عرفتـه المصادر باسم " الداعي " وهو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الـذي يكنـي بأبي عبدالله وكانت له ألقاب عدة منها، الصنعاني والمحتسب والمعلم والصـوفي والاحوازي[1] لكي يحل بأرض المغرب و يقود الدعوة الفاطمية بقوة السلاح، يذكر أن ابن عذاري أن أبا عبد الله التقي بعشرة من زعماء قبيلة كتامة في الحجـاز و استمالتهم لدعوته واتفق معهم علي الرحيل إلي بلاد المغرب ليعبئ كتامة و بقيـة القبائل المغربية الاخري مثل عجيسة و زواوة ويكون قـوة تسـتطيع أن تثبـت أقدامها في هذه البلاد النائية من نفوذ الخلافة العباسية[2] .

وتبدأ بحلول أبي عبد الله لبلاد، مرحلة مهمة من مراحل اتصـالاته و تقصـيه للأوضاع والظروف في المنطقة حيث استطاع إن يوحـد صـفوف قبيلـة كتامـة للنهوض بأعباء الدعوة الفاطمية من الناحية العسكرية و كان يقول لهم: " إنـا لا ادعوكم لنفسي وإنما ادعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت " ويبدو أن أول قوة يجابهها أبو عبد الله ويعلن تحديه لها هم الأغالبة و قد وجاء ما يشير إليـه احد رجاله ليستطلع جلية الأمر لهذا الداعي بعد إن ظهر في مدينة" ايكجان " ولما عاد رسول الأمر كانت ردود أبي عبد الله علي رسالته تبعث علي الخوف وعـدم الاطمئنان[3] حتى انه عُرف " أنه صاحب قطع دعوته " [4] وعلي الـرغم مـن أن الأمراء الذين خلفوا إبراهيم بن أحمد قاوموا الحركة الفاطمية بجهود موفقة فـي

---

[1] يذكر المؤرخون انه لما اتصل بقائد العودة الفاطمية عبيد الله المهدي ووجد فيه الذكاء و النشاط ضمه إلي سلك دعاته ثم أرسله إلي مركز تكوين الدعاة الماهرين في بلاد اليمن حيث يوجـد كبيـر دعاتهـا منصور اليمني الذي رحب به ووضح " أن ارضي كتامة موطأة ممهدة لك " ثم أرسله إلي ارض كتامـة (النعمان ، افتتاح الدعوة ، الورقة 27 ؛ النويري ، نهاية الأرب ج 26 الورقة 25).

[2] د. مرسي لقبال، المصدر السابق 128.

[3] النعمان،افتتاح الدعوة الورقة 79-80.

[4] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 38-39.

مدن تازروت وميلة وايكجان غير أن الكارثة حلت بأسرة الأغالبة في مدينة الأربس/ حيث فر أخر أمرائهم زيادة الله إلي مصر ولكن كان من الممكن أن تشل الحركة الفاطمية ويبدد رجالها علي يد الأغالبة، لو لم يرتكب زيادة الله هذا بدافع الخوف علي نفسه و مركزه جرما كبيرا بقتله لأخيه أبي عبد الله محمد الملقب بالأحوال الذي أبانت الأحداث عن أهميته لاستمرار نظام الأغالبة وإمارتهم وقد وضح أن اختفاءه كان بداية النهاية لأسرة الأغالبة [1]

هذه هي الخطوة الأولي التي خطاها أبو عبد الله لغرض الدعوة الفاطمية في ربوع المغرب إما الخطوة التالية التي بدأ ينفذ خيوطها فهي التحركات العسكرية لإسقاط المدن والمناطق ومن ثم الإجهاز علي الإمارات و الدول الاخري ففي 289 هـ بدأت الأعمال العسكرية المنظمة فاتجهت صوب مدن الأغالبة لاجتاحها و كانت موقعة كينونه التي لصالح الجيوش الفاطمية، قد وضعت نهاية لمقاومة جدية من الأغالبة و سهلت تقدم الفاطميين مدن سطيف وبلزمة وياغاية وقرطا جنة و تبسه والقصرين في إقليم قمودة ثم الاستيلاء علي قسطنطينة وتيجي وقنصة ومن ثم دخلت جيوشهم مدينة الاربس مما أتاح لهم احتلال مدينة رقاد حيث تمت تصفية إمارة الأغالبة بالزحف النهائي علي القيروان فتراءي لأبي عبد الله انه لم يتبق أمامه سوي النهايات لاستحكام حلقات سيطرته التامة علي أهم بلد من بلدان المغرب فكتب إلي سيده عبيد الله المهدي يحثه علي القدوم إلي هذه البلاد فحل هذا الأخير متخفيا إلي مدينة سلجماسة عاصمة بني مدرار حيث أكرمه أميرها اليسع بن مدرار[2] ولعل اختياره للإقامة في سلجماسة كان بسبب إنها إمارة مستقلة سياسياً ومذهبياً عن العباسيين وحلفائهم الأغالبة غير أن وصول الجيوش الفاطمية إلي مشارف سلجماسة لإرغام أميرها علي الخضوع جعل هذا الأمير يأمر بالتضييق علي عبيد الله المهدي ووضعه في سجن انفرادي " سجن المطبق "

---

[1] د. لقبال ، المصدر السابق ص 263 .

[2] ابن الأثير، الكامل ج 8 ص 14، ابن خلدون، العبر ج 4 ص 70.

وتعريض أتباعه ومرافقيه للتعذيب مما ترتب عليه أحكام الفاطميين السيطرة علي سلجماسة وهروب الأمير ورجاله ليلا في مجاهل الصحراء وعندئذ تم تحرير عبيد الله المهدي وأصبحت سلجماسة في إطار النفوذ الفاطمي.

وتوجه رأس الدعاة الفاطميين عبيدالله المهدي إلي رقادة عن طريق ايكجان[1] وبذلك يمكن القول أن قيام الدولة الفاطمية يبدأ بدخول هذا الأخير مدينة رقادة سنة 296 هـ كما يمثل ذلك بداية لظهوره بعد استتاره في قيادة الحركة السياسية الفاطمية علنياً بمساعدة قائد جيوشه وداعيته أبي عبد الله والظاهر أن الفاطميين كانوا يعولون علي اتخاذ رقادة قاعدة لدولتهم ومنطلقاً لجيوشهم بعد سقوط إمارة الأغالبة وذلك للوثوب علي القبائل المناوئة لهم وتصفية القوي السياسية التي ما تزال تتشبث بالبقاء في المنطقة وقد اتخذ عبيد الله المهدي جملة من الإجراءات " بعد نزوله في قصر الصحن ومقابلته لوفود الفقهاء ووجوه أهل القيروان الذين دعوا له وهنئوه وأظهروا له السرور بأيامه وسألوه تجديد الأمان لهم "[2] ولعل من أهم الإجراءات التي اتخذها لقب " المهدي أمير المؤمنين " واصطناع وجوه جديدة من رجاله بإسناد ومناصب مهمة لهم في الدولة مثل الإشراف علي بيت المال و قضاء رقادة و ديوان الكتابة وديوان الخراج و الحجابة والتعيين علي منطقة قابس وإثبات الموالي وأبناء العبيد في ديوان العطاء وضرب السكة [3].

غير أن قرار عبيد الله المهدي بتصفية قائد جيوشه ومؤسس دولته أبي عبد الله يمثل مرحلة جديدة للدولة الفاطمية الفتية حيث عمد إلى تجريده من سلطاته وإبعاد رجاله عنه ثم القضاء عليهم تدريجياً والإجهاز عليه واغتياله بخطة أعدها مع

---

[1] النعمان ، المصدر السابق الورقة 179.

[2] ابن عذارى ، المصدر السابق 158.

[3] م . ن .ص 158 –160.

رجاله وحاشيته والمقربين من أنصار أبي عبد الله [1] ويبدو أن من بين الأسباب التي دفعت عبدالله المهدي للتخلص من أقدر رجاله وأخلصهم له ما يزعم باتفاق أبي عبدالله وأخيه أحمد أبي العباس علي تحريض قبيلة كتامة وقبائل المغرب ضده والطعن في خلافته سرا وهو ما أشار إليه ابن خلدون حيث " دعا الناس إلي خلعه والقول أنه ليس الإمام المعصوم، فقال فيه المهدي أنه مفسد للهيبة " [2]

وقد أثار مقتل أبي عبد الله وأخيه [3] مشكلات بوجه الدولة الفاطمية، ربما هي في غني عنها في هذه الفترة الحرجة التي كانت تجتازها، حيث أظهرت بعض

---

[1] ذكر بن عذاري:" أن عبيد الله المهدي أمر عروبة بن يوسف الملوسي وجبر بن نحاسب الميلي ، أن يكمنا خلف قصر الصحن ، فإذا مر أبو عبد الله و أخوه أبو العباس طعنوهما بالرماح حتى يموتا فكمنا هناك مع جماعة من كتامه و بعث عبيد الله المهدي في أبي عبد الله و أبي العباس ليحضرا طعامه علي جاري عادتهما معه ، فلما مرا بالموضع الذي فيه الكمين فخرج عروبة عليهما فصاح أبو عبد الله بعروبة " لا تفعل يا ولدي " فقال له عروبة " أمرني بقتلك من أمرت الناس بطاعته و انخلعت له من الملك بعد توطئته " ثم طعنه بيد طعنه واحدة خر منها صريعا ووقعت في أبي العباس تسع عشرة طعنه و مكثا صريعين علي صف الحفير المعروف بالبحر إلي ما بعد الظهر ثم أمر عبيد الله بدفنهما فدفنا في الجنان و قال عبيد الله : رحمك الله أبا عبد الله و جزاك في الآخرة بقديم سعيك و لا رحمك الله أبا العباس فإنك صددته عن السبيل و أوردته موارد الهلاك ". (البيان المغرب ج 1 ص 164)

[2] جاء أن أبا عبد الله حث رؤساء كتامه علي امتحانه، و ذكروا أن شيخا منهم جاء إليه و قال له " جئنا بآية علي أمرك فقد شككنا فيك " فقتله المهدي علي الفور(العبر ج 4 ص 76).

[3] وكتب عبيد الله المهدي إلي أنصاره في المشرق " أما بعد فقد علمتم محل أبي عبد الله و أبي العباس من الإسلام فاستنزلهما الشيطان فطهرتهما بالسيف و السلام " ابن عذارى المصدر السابق ص 165) و يروي هذا المؤرخ ما يدل علي استمالة المقربين من ابي عبد الله لاغتياله قائلا:"إن أبا عبد الله نام يوما بحضرة أصحابة و عنده جماعة من دعاة كتامة فتحرك في نومه فانكشفت سوءته فنظر بعضهم إلي بعض ولم يقدموا أن يستروه فمد عروبة بن يوسف يده إلي الملحفة التي كانت عليه فستره بها و انتبه أبو عبد الله فقال:" من سترني إذا انكشفت ؟ فقالوا له عروبة فقال:" هو و الله قاتلي " فجعل عروبة يبكي بين يديه و يقول له:" يا سيدي: مر بقتلي فقال له:" لا سبيل إلي ذلك.. لكنك والله قاتلي " فكان الأمر كما ذكر.

بطون كتامة الخلاف علي عبيد الله المهدي [1] وقيام مجموعة من كبراء أهل القيروان بمعارضة سياسته ودبروا له مؤامرة لاغتياله [2] وثورة أهل طرابلس علي عامل الفاطميين[3].

وعلي الرغم من أن الفاطميين استطاعوا إخماد الثورات والفتن هذه ولكن كان عليهم أن يواجهوا احتمالات المستقبل المشحون بالأخطار و نزر الشر و مصاعب الحرب الحقيقية سواء في ميادين القتال ضد الإمارات و القبائل المعارضة أو في الحواضر و المدن المغربية الكبرى حيث كانت تضم فئات و عناصر معادية و مخالفة لهم مذهبياً، ويذهب الدكتور موسي لقبال إلي أن التحول الذي شهدته الحركة الفاطمية من دعاية سرية تمتلك أنصار متطوعين و حشد من الدعاة التاريخية إلي نظام دولة تقليدية مستقرة لها رئيس وموظفون رسميون وتقاليد ورسوم جديدة، أن هذا التحول فرض وضعا جديدا لأنصار الدولة من القبائل المغربية و بخاصة قبيلة كتامة، وأدي ي إلي حدوث انشقاق خطير بين بناة الدولة وأخص رجالها وإلي تصدع في صلب عقيدتهم [4].

---

[1] ابن عذارى، المصدر نفسه ص 165- 66.

[2] ومن هؤلاء المتآمرين: محمد بن أبي سعيد الميلي صاحب السوق، و عبد الله بن محمد المعروف بابن القديم و محمد بن أبي رجال الباغاني و أبي الوهب عمرو بن زرارة العبدري (م. ن ص167)

[3] يذكر ابن عذارى، إن أهل طرابلس أغلقوا أبواب المدينة و قتلوا من كان داخلها من كتامة و قدموا علي أنفسهم محمد بن اسحق المعروف بابن القرلين، فأخرج إليهم عبيد الله المهدي جيشا و حاربهم شهورا، و ذكر أيضا خروج أبي القاسم بن عبيد الله لمحاربة طرابلس فوجه إليها خمسة عشر ركبا حربية فلما وصلت إلي طرابلس اخرجوا إليها مراكبهم فحرقوا الأسطول و قتلوا من فيه و سار أبو القاسم في البر نحو طرابلس فأوقع بأهل هوارة ثم نزل طرابلس فحاربها و حاصرها حتى أطلقوا الميتة فرغبوا إلي أبي القاسم في الأمانة فأمنهم إلا ثلاثة أنفس اشترط التحكم فيهم و هم : محمد بن إسحاق القرشي و محمد بن نصر و رجل يعرف بالحوححة فدخل طرابلس و تحكم فيها سنة 300 هـ) م . ن ص 167 -169.

[4] دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية ص 332.

المهدية و استكمال قيام الدولة الفاطمية:

بعد الإطاحة بأبي عبد الله شرع عبيد الله المهدي بارتيـاد موضـع لتأسـيس عاصمة له لابد من القيروان، ليتخذها " عدة للشدة "[1] ولكي " تعتصم بها الفواطم ساعة من نهار "[2] فكان عبيد الله المهدي قد بدأ النظر فيها واستكمل فيها سـنة 300 هـ و استكمل سورها سنة 305 هـ و تم الانتقال إليها سنة 308 هـ[3] عندئذ قال : " أمنت اليوم علي الفواطم "[4] ويوضح ابن عذارى " أنه فـي سـنة 300 هـ خرج عبيد الله من مدينة رقادة مارا بتونس وقرطاجة ونـواحي البحـر فوقع اختياره علي جزيرة جمة فابتدأ بنيانها واتخذها دار مملكته وهي التي تسمي المهدية "[5].

ومهما تكن البواعث لبناء الفاطميين مدينة المهدية وجيهة إلي حد ما يبقي مـا أشار إليه البكري يستأثر بالاهتمام حول النوايا التي كان يضمرها أبو عبـد الله و أنصاره من قبيلة كتامة للإيقاع بعبيد الله المهدي و خلعه[6] علـي حـذرهم هـذا الأخير، يدل عليه ثورة الكتاميين في مدينة القيروان[7] أما مدينة رقادة التي ولدت فيها الدولة الفاطمية و سلطتها و مؤسساتها فإنها علي ما يبدو لا تصلح لتطلعات المستقبل الذي ربما يحمل بين ثناياه الحاجة إلي قاعدة عسكرية يمكـن الاعتمـاد عليها في التوسع صوب مصر أو الأندلس حيث:" استكثر بها من العدة والخـزين "[8]أو الاحتماء بها من الغزاة و الطامعين و جعلها موقـع مواجهـات

---

[1] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 50.

[2] ابن خلدون، المصدر السابق ص 79.

[3] البكري، المصدر السابق ص 25 -30.

[4] ابن خلون، المصدر نفسه ص 80.

[5] البيان المغرب ص 169.

[6] م. ن. ص 30.

[7] وكذلك ما أشار إليه عذارى عن ثورة الكتاميين في القيروان حيث قدموا علي أنفسهم حـدثا اسـمه كادوا بن معارك ويعرف بالمالطي وزعموا أنه المهدي المنتظر (م. ن ص 166).

[8] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 50.

قوية و صامدة أمامهم أو لجعلها مركز انطلاق لإخماد أعداؤه أو أنصاره في الأمس من الكتاميين.

حرص الفاطميون بجعل عاصمتهم الجديدة المهدية ميناءاً بحرياً وعسكرياً ومن ثم تجارياً لذلك اختاروا موضعها في جزيرة متصلة بالبر " كصورة كف اتصلت بزند "[1] والبحر قد أحاط بها من ثلاث جهات ويمكن الدخول إليها من الجانب الغربي،[2] وكان لها "بابان من الحديد لا خشب فيهما وقد نُقش عليهما تخطيطات لرسوم الحيوانات"[3] حيث تغلق هاتان البوابتان فيحكم تحصينها و يصعب الدخول إليها أماناً وعنوة.

أما مرسي السفن في المدينة فهو منقور في صخر صلد يسع ثلاثين مركباً من المراكب القادمة من الإسكندرية أو الشام أو صقلية أو الأندلس وقد حصن هذا المرسى بسلسلة من الحديد لتمنع أساطيل البيزنطيين من الاقتراب إليها وجعل في المدخل الوحيد علي المدينة ستة عشر برجاً للرصد والمراقبة، كما أقيمت دار صناعة السفن علي غرار مدينة تونس وهي رصيف ترسوا فيه السفن يسع أكثر من مائتي مركب، و فيها قبوان كبيران طويلان يغطي المراكب الراسية أو الجاثمة بعد تصنيعها و آلاتها فيقيها من الشمس و المطر[4].

ويذكر ابن عذاري الاستحكامات الحربية في المهدية بقوله:" و بها دار صنعة الإنشاء العجيبة، و يخرج الجفن معموراً من خلف السور فلا يعلم به حتى يفاجأ القاصد فيحيط به فلا يقربها العدو لأجل ذلك "[5]

إن تطلع الفاطميين إلي مصر والاستحواذ عليها بات يشغلهم فعدوا للأمر عدته باتخاذ عاصمتهم في شبه جزيرة قريباً من تونس ووسوسه وصفاقص وقفصه، وهي مراكز بحرية مهمة ترتبط بخطوط التجارة البحرية مع الإسكندرية، لكي يتاح

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق ص 79.

[2] البكري، المصدر السابق ص 25.

[3] م. ن ص 29.

[4] البكري، المصدر السابق ص 30.

[5]ابن عذاري، المصدر السابق ص 207.

لهم تحقيق أهدافهم التوسعية في مصر علي المدى البعيد من جهة والاعتماد علي أسطولهم في حماية عاصمتهم وتموينها عن طريق البحر إبان الأزمات من جهـــة أخري فضلا عما يترتب عليه من مكاسب سياسية و عسكرية في بــلاد المغــرب الإسلامي عامة.

ويخيل إلينا، أنه باكتمال بناء المهدية حسبما خطط لها عبيد الله المهدي بهـــذا الإطار برزت الدولة الفاطمية، دولة مقتدرة استطاعت بأمد ليس بالقصير أن تنفــذ أهدافها البعيدة التي رسمتها أو في التوسع أو إخضـــاع الإمـــارات والـــدول فـــي المنطقة وفيما يتعلق بالأندلس التي كان للفاطميين فيها مطامع توسعية فلم يكـــن من المستطاع تحقيقها حيث برز لهم حكام الأندلس وهم يذبون عن بلادهم تدخلات الفاطميين وتحرشاتهم في شئونهم الداخلية ومنعوهم من التقرب إلي سواحلهم بل درج هؤلاء الحكام علي الاجتراء علي مناطق الفاطميين في بلاد المغرب وأخـــذوا يناجزونهم في عقر دارهم مما أقنع عبيد الله المهدي باســـتحالة إســـقاط الحكـــم الأموي هناك كما يتعذر القيام بالعمليات العسكرية ضدهم فألجأهم إلي تكرار محاولا تهم إلي مصر للمرة الثالثة حيث تكلل بالنجاح في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله سنة 358 هـ [1]

---

[1] م. ن. ص 228.

علاقات الدولة الفاطمية السياسية

(في نطاق المغرب الإسلامي)

الفاطميون و دولة بني العباسي:

يمثل قيام الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي وسيطرتها علي مصر فيما بعد منعطفا في التاريخ الإسلامي حيث شيدت حكما يقوم نظام الخلافة بغية تحدي القوي والعناصر السياسية و تقليص نفوذهما ومن ثم الإجهاز عليها أن لم يكن في جميع أنحاء العالم الإسلامي ففي بلاد المغرب في الأقل.

وكان العباسيون ينظرون إلي محاولات الفاطميين بزرع نفوذهم في بلاد المغرب وإقامة دولتهم هناك علي أنها تحد سافر لنفوذ الدولة العباسية الروحي والسياسي يجب بالأنظمة التي تدين لهم بالتبعية وفي مقدمتها إمارة الأغالبة وحث رعاياهم علي الوقوف صفا واحدا وراء هؤلاء المطيعين لأمير المؤمنين لقتال:" عدو الله الخارجي النجم بأطراف نواحي المغرب وأنصاره من كتامه أشياع الضلال و أوباش الجهال والباغين في الفتن لتطرفهم وقسوتهم علي غيرهم من المسلمين و إشاعتهم الفرقة والانفصال في المنطقة "[1]

لقد شعر العباسيون بخطر الفاطميين الحقيقي ليس بالاستحواذ علي بلاد المغرب فحسب و إنما علي جميع البلاد الإسلامية فراحوا يعملون علي تحشيد جميع المؤمنين بقدسية الخلافة العباسية و رسومها الدينية والسياسية و العسكرية و لكنهم في حقيقة الأمر كانوا بذلك يعبئون مشاعر فاترة تجاه الخلافة التي ساءت ظروفها في المشرق بسبب نشاط الحركات المضادة و تسلط العنصر التركي و هيمنته علي مقدرتها و حتى أننا لم نسمع عن اهتمام الخلافة العباسية بالتصدي للخطر الفاطمي بعدما أصيب الأغالبة بالهزيمة و السقوط.

---

[1] انظر موضوع " الأغالبة ودولة بني العباس " من هذا الكتاب ص هامش رقم .

جزيرة صقلية بين الفاطميين و العباسيين:

كان من المفروض أن تؤول صقلية إلي النفوذ الفاطمي بعد سقوط الأغالبة لكننا نقرأ أن تحركا عباسيا ضد إجراءات الفاطميين بإرسال واليهم الحسن بن أحمد بن علي بن أبي المنهال، وهو تحريك عملائهم في الجزيرة وتحريضهم ضد السلطة الجديدة التي لم تواجه بأدنى مقاومة في بداية الأمر، مما اضطر الفاطميين إلى تعيين وال أخر هو بن عمر البلوي سنة 299 هـ الذي نشط في الوقوف ضد حركة المقاومة التي أثمرت بانتفاضة ضد الفاطميين و لم تمض إلا فترة قصيرة حتى ظهرت بوادر و اتجاهات للثورة التي كان يغذيها العباسيون بموافقة الخليفة المقتدر بالله و بقايا أسرة بني الأغلب في الجزيرة.

حيث آلت بالإطاحة بالوالي الفاطمي وأعيدت الخطبة و الدعوة للعباسيين ويذكر بن عذارى إن أهل صقلية قدموا علي أنفسهم أحمد بن زيادة الله بن قرهب سنة 300 هـ وكتب الخليفة المقتدر بالله ببغداد بأن يكون 11 داعيا لهم وقائما بأمر هلا بجزيرة صقلية فأنفذ المقتدر ذلك لهم وبعث لهم بألوية سود وخلع سود وطوق ذهب[1] مما جعله يستمر في الثورة ضد الفاطميين.

وظلت المناوشات بين الفاطميين و العباسيين من اجل السيادة في جزيرة صقلية حتى سنة 336 هـ، إذا ولي الفاطميون بعد فرض سيطرتهم التامة عليها وإبعاد أي أثر للنفوذ العباسي عنها، الوالي الحسن بن علي بن أبي الحسن الكلبي الذي أصبح رأس أسرة عربية جديدة في صقلية هي أسرة الكلبيين التي استمرت حتى الاجتياح النورماني للجزيرة في نهاية القرن الخامس الهجري.

ويبدو لنا، أن التنافس بين القوي والمجموعات الإسلامية الكبرى وبخاصة بين الدولتين الفاطمية والعباسية حول توسيع مناطق النفوذ والسيطرة المباشرة وتغييب المصالح و طغيان الطموح كان علي حساب المجموعات الصغيرة في صقلية مما جعلها فريسة للفوضى وفقدان الأمن الأمر الذي أودي بضياعها

---

[1] البيان المغرب ج 1 ص 168.

وإنفصالها نهائياً عن البلاد الإسلامية ومن المبالغة القول أن سياسة الفاطميين وحدها هي المسئولة عن ذلك، بل يمكن تحميل العباسيين أيضا قسطاً كبيراً من عدم الشعور بالمسئولية عن تفريق القوي الإسلامية وبعثرتها والحفاظ علي البلدان التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من العالم الإسلامي وخاصة جزيرة صقلية حيث كانت مركزا للحضارة والعلم ومصدرا لإشعاعات الثقافة الإسلامية، وقد احتلت شهرة واسعة في جميع أنحاء العالم الإسلامي طوال الحكم العربي فيها وبعده بقرون عدة فأنجبت العديد من العلماء والفقهاء والشعراء ذاع صيتهم وانتشر أثرهم.

تطلع الفاطميون نحو مصر:

أن سعى الفاطميين لبسط نفوذهم على مصر ومناطق بلاد الشام والحجاز لا يشكل لديهم تكنيكا سياسيا وعسكريا أنيا فحسب بل هدفا من أهدافهم الاستراتيجية في تعبيد طريق المشرق أمامهم وذلك على الرغم من أن الخلافة العباسية وقتها كانت تمتلك شيئا من القوة والنفوذ، حيث كانت لهل السيطرة علي ولايتي الشام والحجاز.

لقد توضح التخطيط الفاطمي بالتقدم نحو طرابلس وبرقة ومشاغلة ولاة مصر العباسيين لتمهيد الطريق نحو مصر. لذلك عول الفاطميون على قاعدتي طرابلس وبرقة اللتان كان لهما أهمية كبيرة في الوصول إلى الإسكندرية لأنهما من المراكز الأمامية القريبة من مصر كما وصفتا بأنهما "باب مصر"وينبغي علي الفاطميين ولوجها ولكن قبل ذلك أرسل الخليفة القائم بأمر الله الفاطمي كتاباً لاستمالة محمد بن طفج الأخشيدي الذي كان يحكم مصر ليهوّن عليه مسألة الانفصال عن العباسيين[1] وكاد هذا الأخير أن يستجيب لمضمونه لولا تأثير مستشاريه وأعوانه الذين عدلوه عن الخطبة للفاطميين مما حدا بالخليفة المعز لدين الله الفاطمي تبني سياسة أباءه وأجداده فيما يتعلق بالتعرض إلي البلاد المصرية ونتيجة لذلك لم يشأ الفاطميون إلا أن يرغموا العباسيين علي التراجع حيث أسقط بأيديهم إذ رأوا تقدم

---

[1] ابن سعيد المغربي. المغرب في حلا المغرب ج 1 ص 175.

الجيوش الفاطمية نحو مصر يقودها أبو الحسن جوهر بن عبد الله الصقلي[1] حيث دخلت مدينة الإسكندرية دون مقاومة ثم تقدمت نحو مدينة الفسطاط وفرضت سيطرتها علي المدينة بالرغم من المقاومة التي أبداها الإخشيديون[2] وقطع الفاطميون بذلك الخطبة للخليفة العباسي المطيع لله والدعوة للمعز لدين الله الفاطمي ولآبائه في المسجد العتيق و إزالة شعار العباسيين، و استهلت دار الضرب نشاطها بسك دنانير جيدة العيار[3] نقش عليها تاريخ الفتح واسم المعز لدين الله وشعار الفاطميين[4] وزاد الفاطميون باتخاذ مصر مقرا لدولتهم بتأسيس مدينة القاهرة سنة 360 هـ و جعلوها

عاصمة لهم [5]، أما القيروان أو المهدية فلم تكونا لتصلحا حاضرتين لدولة الفاطميين الكبرى لما يستدعيه اتخاذ الحاضرة في موضع يسهل معه التواصل مع

---

[1] وهو من مسلمي صقلية و قد عرف بالرومي ولكن الغالب الصقلي لان صقلية أصبحت بلد إسلامية ينسب إليها (انظر ترجمته في أبي الفدا المختصر في أخبار البشر ج2ص115،ياقوت،معجم البلدان ج5ص372، وما كتبة عن جوهر الصقلي الدكتور موسي لبقال،دور كتامة ص483) .

[2] ابن عذاري. م.ن ص228،ابن الخطيب .م.نص58-59 المقريزي اتعاظ الحنفا بذكر الائمة الحنفا ، ص147).

[3] تزيد فيها نسبة معدن الذهب عن المعادن الأخرى المسبوكة.

[4] وشعارهم ينطيق (علي أفضل الوحيين وزير خير المرسلين) المقريزي المصدر السابق ج1 ص115-116، النويري، نهاية الأرب ج26 ص41.

[5] اختطها القائد جوهر الصقلي سنة 358 هـ، وتقع في السهل الرملي الممتد في شمال شرق الفسطاط، يحدها من الشرق جبل المقطم و من الغرب ترعة الخليج المتفرعة من النيل، وكان لها سور سميك يمر فوقه فارسان جنبا إلي جنب وفي الوسط اختط قصر المعز والجامع الأزهر وأطلق عليها اسم " المنصورة " تيمنا بمدينة المنصورية (صبره) التي بناها المنصور والد المعز لدين الله بجوار القيروان و بقيت هذه التسمية حتى جاء المعز إلي مصر سنة 362 هـ فأسماها القاهرة تفاؤلا بأنها ستقهر الخلافة العباسية وكانت القاهرة أشبه في بدايتها مدينة بالقاعدة العسكرية فلم يسمح بسكنها أوالدخول إليها بدون إذن خاص، وظلت كذلك حتى أواخر عهد الخليفة المستنصر الفاطمي(القرن الخامس الهجري)عندما أحرقت مدينة الفسطاط فانتقل أهلها إلي القاهرة. أما اصطلاح (القاهرة المحروسة) ربما يأتي من عزلتها و حراستها القوية فضلا عن أسوارها المنيعة (ابن الخطيب، المصدر السابق ص 48 - 49 هامش رقم 4).

الولايات الخاضعة لسلطتها [1].

ومن ثم بدأ الفاطميون يقلصون النفوذ العباسي فتقدموا لاحتلال بلاد الشام واعتبروها قاعدة لحراسة بلاد المغرب ورأس جسر نحو بغداد حاضرة العباسيين وكذلك نحو بلاد الحجاز حيث أرسل المعز لدين الله الفاطمي إلي الحسن بن جعفر الحسني " بتقليد الحرم وأعماله " [2]، ولكن مع ذلك فقد أصبحت الخلافة العباسية هي القوة الوحيدة التي كانت تهيمن روحياً و سياسياً علي العالم الإسلامي وذلك علي الرغم من أن قوة جديدة تمثله بالخلافة الفاطمية التي بسطت سيطرتها علي أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي.

الفاطميون وأمويو الأندلس:

اتخذت العلاقات بين الفاطميين وأمويي الأندلس طابعاً عدوانياً فقد اتجه الفاطميون منذ قيام دولتهم في المغرب إلي تحقيق أهدافهم التوسعية نحو بلاد الأندلس التي تتوافر فيها الخيرات وتنعم بالاستقرار، فنشروا دعاتهم وعيونهم لاستطلاع أحوال البلاد السياسية والعسكرية والتعرف علي دخلوا الأندلس قبل قيام الدولة الفاطمية زودوا عبيد الله المهدي بكثير من المعلومات عن أحوال الأندلس السياسية والإدارية ويبدو إن الفاطمين لم يكتفوا لك بل اتخذوها الخطوات العملية في تحدي أمويي الأندلس والتحرش بهم فضلا عن إظهار قوتهم في أقصي بلاد العدوة فحاصروا سبتة، القاعدة الحصينة للأمويين ومركزهم المهم في الاتصال بزعماء المغرب إدارة الريف و الانطلاق نحو مراكز النفوذ الأموي في هذه البلاد.

أما إجراءات الأمويين في علاقاتهم مع الفاطميين، فيغلب عليها طابع الدفاع عن كيانهم السياسي ضد تعديات الفاطميين الذي اتخذ موقفهم طابع الهجوم ومن وسائل الأمويين في النضال ضد خصومهم الفاطميين اتخاذ لقب الخلافة وانتحال إمارة المؤمنين لتوجيه عواطف المسلمين في المغرب والأندلس وذلك لعزلهم وتحديد نفوذهم الديني والسياسي فضلا عن جهود الأمويين في جذب أنصار الفاطميين وولاتهم بمختلف الإغراءات ودعم حركات المعارضة والثورات وتبني

---

[1] د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص 112 – 113.

[2] ابن عذاري م. ن ص 231 ابن الخطيب م. ن ص 58؛ المقريزي م. ن ص 120، ابن الأثير، م . ن ص 112.

العملاء و الصنائع والخارجين عليهم وتزويدهم بالأموال والسلاح، كما بعثوا عيونا ورقباء ووسطاء في جهات كثيرة من المغرب لبث الأفكار المضادة للنفوذ الفاطمي وأغلبهم كان يستتر بالتجارة أو بالزيادة فتمكنوا من تزويد الأمويين بمعلومات عن نوايا أهل الأندلس الذين كانوا قد توطنوا المغرب منذ القرن الثلث الهجري، وكذلك التجأ الأمويون إلي التشهير بالفاطميين وطرد العناصر المشبوهة من الأندلس والتضييق عليهم وقتل من تظاهر بالدعوة للفاطميين، لما لم يتورع الأمويون من استعمال سلاح القرصنة للقضاء علي القوة البحرية لأعدائهم الفاطميين، حيث اهتموا بدور صناعة السفن و المراكب في مدن طركونته والمرية والجزيرة الخضراء ومالته وميورقة ولقنت وشلب، فأنشأوا أسطولاً قوياً ينازع سلطة الفاطميين في البحر المتوسط، استطاع هذا الأسطول الاستيلاء علي طنجة و مليلة سنة 314 هـ في حركة الوليد بن هشام الذي أدعي الانتماء و لبني أمية و استبد بشئون برقة و جعل هدفه مصر و كان أعوانه من قبائل لواتة و زناتة كما أن أنصاره في مصر، عربا من بني قرة و في التاريخ اللاحق للفاطميين أي بعد عبيد الله المهدي إعتمدوا وسائلهم الجديدة في الصراع مع الأمويين و أجداها هو التشهير والطعن بماضي الأمويين و موقفهم من القوي الإسلامية فكان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يصف أعدائه الأمويين بالمتغلبين[1]، والظاهر أن هذه الحملة من التشهير ضد الأمويين قد أظهرت حركة معادية استهدفت الإطاحة بحكمهم وقد انتشرت هذه الحركة التي كان يقودها شخص قرطبي يسمي أبا الخير الداعي في مدن الأندلس، قرطبة والزهراء وسائر الكور، غير أن الأمويين استطاعوا تحجيم الحركة ومن ثم القضاء عليها.

ولعل من المفيد أن نذكر أن كلا الطرفين استخدما قوي سياسية لاستعدائها ضد الطرف الآخر، و كان الأدارسة قد لعبوا هذا الدور بكونهم صنائع وأعوان تارة للفاطميين وطوراً للأمويين ولكن تسخيرهم بهذا الاتجاه لم يخدم وجودهم بل عجل بنهايتهم وسقوط إماراتهم سياسياً وعسكرياً[2].

---

[1] كان المعز لدين الله الفاطمي يصف الأمويين أمام من يحضر مجلسه بأوصاف كثيرة لكي يحط من شأنهم (انظر للاستزادة د. موسى لقبال، المصدر السابق ص 382.

[2] السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج 1 ص 89.

الفصل التاسع

دولـة المرابـطـين

1- أصل المرابطين

2- مراكش عاصمة المرابطين

3- المرابطون و الخلافة العباسية

الفصل التاسع

دولة المرابطين

(448 – 541هـ / 1056 – 1147م)

أصل المرابطين:

يجمع المؤرخون علي أن أصل المرابطين من قبائل صنهاجة اللثام الجنوبية الضاربة في الصحراء الموريتانية، و بطونها، لمتونه وجداله ومسوفه، وقد تحالفت هذه البطون لتواجه ظروف المغرب الإسلامي، وكانت لمتونه قد تولي رئاسة هذه القبائل وسيطرت عليها، فبرز من بين رجالها محمد بن نيفات اللمطي [1] ليقود قبائل صنهاجة غير أنه قتل، فتولت جدالة الرئاسة ممثلة بيحيي بن إبراهيم الجدالي[2] الذي سعي إلي طلب العلم الدينية في مدارس القيروان و فاس فتعرف هناك علي شخصية " وحاج بن زللوا اللمطي الذي ندب أحد تلامذته وهو عبد الله بن ياسين الجزولي "[3] لتفقيه قبائل صنهاجة، و هناك في مضارب لمتونه شرع هذا الأخير في التثقيف و الإرشاد إلي أصول الدين و فروعه و لكن وفاة يحيي بن إبراهيم الجدالي دفعت هذه القبائل إلي الانصراف عن الأحكام و الحدود التي كان قد وضعها لهم عبد الله بن ياسين حيث ثقلت عليهم وطأته فبرموا بدعوته الإصلاحية الأخلاقية التي كانت تدعوا إلي رفع المنكرات وإجتناب المحذورات [4].

اتجه عبد الله بن ياسين إلي بلاد السودان، عله يجد أنصاراً له هناك و قد صحبه سبعة من رجال صنهاجة انتبذوا لهم موضعا في ربوة من الأرض تحيط بها المياه من جهاتها الأربع، ولم يلبث أن أسس رباطاً " والرباط من المرابطة أي

---

[1] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 226.

[2] م. ن ص 227.

[3] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب ص 76، ابن الخطيب م . ن ص 226.

[4] ابن الخطيب م . ن ص 227.

ملازمة الثغور للجهات حيث ترابط خيل المجاهدين " اجتمع له فيها نحو ألف رجل سماهم المرابطون [1] اخلصوا له وأطاعوه واستطاع أن يحولهم من مجرد رعاة جناة إلي طبقة من المحاربين المؤمنين برسالتهم في الإسلام وكون منهم ومن غيرهم الذين التحقوا به جيشاً جعل علي قيادته صاحبه " يحيي بن عمر "[2] وهو من قبيلة اللمتونيين الصناهجة وانطلقت قوات المرابطين نحو المغرب الاقصي وسرعان ما خضعت لهم قبائل لمتونه ومسوفة وجدالة ولمطة وغيرها من قبائل صنهاجة الضاربة في الشمال حتى درعت التي يقول عنها ابن الخطيب أنها تقرب من سبعين قبيلة [3] ثم اتجهوا نحو درعة سنة 445 هـ في إعداد ضخمة وهزموا جيوش مغراوة وصاحب سجلماسة ودرعة ودخلوا مدينة سلجماسة كما نشطوا في محاربة قبيلة زناتة وهي من كبريات القبائل في مناطق تافيللت فانضمت إليهم قبيلتا جزوله ولمطة واستطاعوا الاستيلاء علي بلاد السوسي سنة 448 هـ، واسترداد واحات درعة والتوغل في احوازها واجتيازهم الأطلس الغربي واحتلال بلاد جدميوه.

وواصل المرابطون تقدمهم فدخلت جيوشهم الكثيفة مدينة أغمات وما حولها سنة 445 ثم تدفقوا علي بلاد المصاعدة وحاربوا قبيلة برغواطة في إقليم تامسنا والريف الغربي و كان من نتيجة هذه المعارك أن قتل عبد الله بن ياسين سنة 450هـ وذكر ابن الخطيب أن قائد المرابطين هذا جمع أصحابه وحثهم علي الوحدة والتماسك قبل أن يموت [4] وقد تولي يوسف بن تاشفين اللمتوني أمر

---

[1] وعرفوا أيضا " الملثمين " لأنهم كانوا يصنعون لثاما يقيمهم هاجرة الصحراء و بردها و يورد ابن الأثير رواية عن اتخاذ اللمتونيين، اللثام " سنة " و غدوا لا يزيلونه ليلا و نهارا حتى لا يعرف الشيخ من الشاب (الكامل ج 9 ص 223) ثم انظر:د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام و السياسي و الديني و الثقافي ج 4 ص 115 هامش (3).

[2] وهو ابن عم عبد الله بن ياسين الذي قتل في هذه المعارك و خلفه أخوه أبو بكر بن عمر الذي اتخذ يوسف بن تاشفين قائدا من قواده.

[3] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 225.

[4] أعمال الإعلام ص 230.

جيوش المرابطين[1] وبدأ يزحف به نحو المغرب الاقصي فاحتل مدينة فاس سـنة 454 هـ وراح يتجول بأطراف المغرب ثم عمد إلي تأسيس مدينة مراكش لتكون عاصمة للمرابطين ومنطلقاً لهم ومركزاً لقواتهم في جنوب المغرب بدلاً من مدينة أغمـات.

وسعي يوسف بن تاشفين إلي تمويه الأوضاع لصالحه وتفرده بحكم المرابطين فيروي ابن الخطيب أن زوجة يوسف بن تاشفين، أشارت عليه أن يستبد بـأمر عمه أبي بكر بن عمر الذي كان قد اختاره قائدا في جيوشه، فيلاطفـه بـالأموال والطعام والكساء ويرده إلي الصحراء التي خرج منها نفعل ذلك ومضي أبو بكـر بن عمر إلي الصحراء سنة 465 هـ حيث قتل هناك في احدي معاركة في بـلاد السودان سنة 480 هـ [2] وبذلك برز يوسف بن تاشفين أميـرا أو أحـد لدولـة المرابطين.

مراكش عاصمة المرابطين [1]:

يمكن القول أن تأسيس مدينة مراكش[3] كان بمثابة حلول مرحلة جديدة في بلاد المغرب خاصة وفي العالم الإسلامي حيث أصبحت مـن مراكـز الثقافـة والعلـم

---

[1] علي أثر الشقاق الذي حدث بين قبيلتي لمتونة و مسوفة ببلاد الصحراء، رأي أبو بكر ابـن عمـر، ضرورة وجوده إلي جانبهم في الصحراء ليصلح بينهما، فعهد إلي ابن أخيه يوسف بن تاشـفين قيـادة الجيوش و قتاله قبيلة زناتة المعارضة (ابن الخطيب المصدر السابق ص 232).

[2] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 233.

[3] مراكش اسم مشتق من اوراكش وتعني ابن كوش وكوش بالبربرية معناها الأسود وإنما سميت نسبة إلي عبد أسود كان يقيم في موضعها ويخيف المارة اسمه مراكش كما تعني مراكش عبارة امشي مسرعا في لغة المصامدة لان موضعها كان مأوي اللصوص وقطاع الطرق وكان المسافرون يقولون لرفقـائهم هذه العبارة عند مرورهم بهذا الموضع (عبد الواحد المراكشي، المعجم في تلخيص أخبار المغـرب ص 100، ابن خلكان، وفيات الأعيان ج 5 ص 90) و مراكش مدينة عظيمة في المغرب الاقصي علي سفح جبل الأطلسي الكبير ويمر في شمالها نهر تانسنيت و تمتاز بخصوبة تربتها الحمراء وجـودة مناخهـا ومناظرها الخلابة حيث توجد فيها غابات النخيل الخضراء وبجوارها الثلوج البيضاء علي قمـم جبـال الأطلسي وقد تحققت عظمتها أثناء الموحدين الذين اتخذوها هم أيضا عاصمة لإمبراطوريتهم الواسـعة وتركوا فيها مآثرهم و أهمها مسجد الكتبية وصومعته المشهورة (ابن الخطيب، المصـدر السـابق ص 234 مع هامش رقم 1).

والسياسة وحاضرة لدولة المرابطين الكبرى ولعبت دوراً كبيراً في توجيه الأحداث السياسية والعسكرية فضلاً عن نفوذها الديني والفكري حيث كانت دولة المرابطين تستند قوة دينية سلفية وعلي الرغم من اختلاف المؤرخين في تعيين إختطاط المدينة فإن الإجماع علي بناءها كان في سنة 454 هـ إذ تم الانتهاء منها سنة 459 هـ [1] وكان تأسيسها علي يد يوسف بن تاشفين.

" فاستوطنها الناس بعد أن تملك أرضها بالشراء " [2] ويوضح المؤرخ ابن أبي زرع ذلك، أن يوسف بن تاشفين، اشتري موضع مراكش من جماعة المصامدة فسكن الموضع بخيام من الشعر وأسس مسجدها الجامع وقصبة صغيرة لخزن أمواله وسلاحه " [3] وذكر أمير المرابطين نفسه كان يعمل في الطين والبناء مع الخدم والفعلة لتشيد المسجد والظاهر أنه لم يؤسس سوراً حول المدينة ولكنه نشط بحفر الآبار وجلب المياه إليها غير أن ابنه علي بن يوسف ابتني سور المدينة سنة 526 هـ و جعل لهذا السور أبواب عدة منها باب أغمات و باب دكالة وباب الدباغين وباب الصالحة و باب الشريعة.

ومن المفيد القول، أن مراكش بقيت تحافظ علي سمعتها العامة كقاعدة عسكرية لقوات المرابطين حتى دخلتها جيوش الموحدين، فأقاموا فيها الدور و اتخذت القصور وجلبت إليها المياه من أغمات لسقاية بساتينها و يشير صاحب كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار إلي أن مراكش " ارتقت أيام المودين فأقيمت فيها المنشآت العظيمة و أمهرت بمختلف أنواع المباني ومنها البيمارستان (المستشفي) الذي وصف بأنه أعظم ما أقيم في العالم الإسلامي و قد سمي بـ (دار الفرج) ويقع في شرق الجامع " يدخله العليل فيعاين ما أعده فيه من المنازة والمياه

---

[1] لم يشر البكري الذي كان معاصرا إلي تاريخ بناءها سنة 454 هـ لذلك يذهب بعض المؤرخين أن تأسيسها كان سنة 462 هـ و إلا ما فات أن يشير إلي ذلك.

[2] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 234.

[3] الأنيس المطرب في بعض القرطاس ص 89.

والرياحين والأطعمة الشهية والأشربة المفوهة ويستطعمهما ويستشفيهما فتنعشه من حينه بقدرة الله تعالي " [1]

لقد ساهم وجود مراكش إلي حد كبير في تدعيم مركز المرابطين و نفوذهم في المغرب الإسلامي وأوجد لهم مركز انطلاق لإخضاع بعض القبائل مثل غمارة وغياثة وبني مكود و مغراوة، كما تم لهم الاستيلاء علي مليلة ووجدة و بلاد بني سناس وعلي تلمسان و تنسي و وهران و جبل وانشريشي [2] وبعد أن أتم يوسف بن تاشفين احتواء الأندلس في معركة الذلاقة الشهيرة ضد جيوش الممالك الأسبانية الشمالية [3] ، أصبحت مراكش عاصمة لقطرين هما المغرب و الأندلس

علي أن دولة المرابطين، بعد وفاة يوسف بن تاشفين سنة 500 هـ و تولي ابنه علي، كانت في أوج قوتها، إذ أصبحت إمبراطورية كبري تمتد من بجاية شرقاً إلي السوسي غرباً ومن السودان جنوباً إلي سرقسطة والثغر الأعلى في الأندلس شمالاً وكانت مراكش مركزا للحكم و انطلاق الجيوش. غير أن حكام المرابطين بدأوا يفقدون قوتهم بعد انغماسهم في الترف و الرفاهية و الرقة بسبب فقداتهم لخشونتهم كرجال حرب، فضلا عن سيادة الثقافة الأندلسية في مراكش التي تسربت إليها من الأندلس حيث خففت كثيرا من جفونهم فتدهورت جيوشهم وأصبحت لا تقوي علي قمع الثورات و الاضطرابات والتمردات المستمرة في بلاد المغرب والأندلس، إضافة إلي ما تعرضوا إليه من الضربات العنيفة التي كانت تسددها لهم الممالك الأسبانية الشمالية، مما أدي إلي استنزاف قواهم و قضي علي مواردهم هناك و قد خذلهم أهل الأندلس لما طلب المرابطون معونتهم المادية و البشرية فتحولوا عنهم و طردوا و لاتهم فبدأت علائم الضعف تدب في جسم دولتهم و بخاصة بعد وفاة علي بن يوسف بن تاشفين و تولي ابنه تاشفين، حيث

---

[1] مجهول، ص 210.

[2] ابن خلدون، المصدر السابق ج 6 ص 381.

[3] د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 723؛ د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ج 4 ص 119؛ د. أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب و الأندلس ص 305.

توالت علي هذا الأخير الهزائم في المغرب علي أيدي قوة جديدة هم الموحـــدون، وبعد وفاة تاشفين بن علي بن يوسف سنة539 هـ انطلقت ثـــورات الأندلســـيين بوجه المرابطين[1].

ولعل من أسباب ضعف دولة المرابطين وانهيارها، هو العامل الديني المـــرتبط الفقهاء المرابطين الذين لم يولوا دراسة الحديث، الاهتمـــام مـــا يســـتحقه فهـــم لايرجعون إلي الأصول لاستنباط الأحكام، وإنما بالأحاديث المجموعـــة فـــي كتـــب الفروع، الأمر الذي جعلهم يبتعدون عن علم أصول الفقه الذي تستنبط بمقتضـــاه الأحكام الشرعية؛ كما اتخذ المرابطون " فلسفة التجسيم " وهي الالتـــزام بالآيـــات القرآنية الكريمة التي يرد فيها ذكر صفات الله، النص الحرفي لها، مما يفضي إلي تجسيم للذات الإلهية وإلي إثباتات نظرية لصفات جسمانية لله تعالي، فضلا عمـــا أثارته قراءة كتاب "إحياء علوم الدين " لأبي حامد الغزالي في بلاد المغرب مـــن موجة من الغضب لدي فقهاء المرابطين، حيث أن الغزالي كان قـــد فضـــح فيـــه نزعات هؤلاء الفقهاء في دراساتهم الفقهية وحصولهم علي المناصب الدينوية مما اضطر الأمير علي بن يوسف علي حرق كتب الغزالي علي باب مدينـــة مـــراكش نتيجة لضغط الفقهاء عليه، حيث أثار هذا الإجراء أهل المغرب فدفعهم إلي تأييـــد ثورة المهدي بن تومرت زعيم الموحدين .

---

[1] مجهول، كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ص 63.

المرابطون و الخلافة العباسية:

تشير المعلومات المتوفرة لدينا، إلي أن العلاقات بين المرابطين و خلفاء بني العباس قد اتخذت طابعا وديا، حيث لم يشأ يوسف تاشفين أن يتلقب بألقاب الخلافة احتراما لمنزلتهم الروحية، و قد علل أمير المرابطين عدم تلقبه بأمير المؤمنين و هو ما اختص به الخلفاء العباسيون عندما طالبه بعض أصحابه بذلك قال:" حاشا لله أن نتسمي بهذا الاسم إنما خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة و لأنهم ملوك الحرمين و المدينة و أنا راجلهم و القائم بدعوتهم "[1]

لقد استخدم المرابطون، السواء، وهو شعار العباسيين، شعارا لهم في ملابسهم و أعلامهم، و تلقب يوسف بن تاشفين، بلقب " أمير المسلمين " و" ناصر الدين " منذ سنة 468 هـ، حتى إن ابن عذاري يذكر صراحة، أن يوسف بن تاشفين " كان يخطب لبني العباس، وهو أول من تسمي بأمير المسلمين "[2]و بخاصة بعد انتصاره في معركة " الذلاقة " التي حاولت الممالك الأسبانية الشمالية أن تقوض الحكم العربي الإسلامي في الأندلس، وبعد إسقاطه ملوك الطوائف الذين تفردوا بالحكم هناك وكتب إلي الخليفة العباسي يطلب منه الخلع والإعلام السود والتقليد فلم يعترض الخلفية علي ذلك و لعل من مظاهر توطد العلاقات مع الخلافة العباسية، أن المرابطين نقشوا أسهمهم علي السكة وذلك منذ سنة 450 هـ إلي جانب اسم " عبد الله " الذي ورد في الرسالة التي بعث بها الخليفة المستظهر بالله إلي علي بن يوسف بن تاشفين، علي إن اسم هذا الخليفة هو أحمد [3].

---

[1] كتاب الحلل الموشية ص 65.

[2] قامت حول هذا اللقب شكلة شرعية و هي: هل يجوز لخطباء المساجد أن يدعوا ليوسف بن تاشفين باعتباره أميرا للمسلمين ؟ علي أن هذا الأخير لم يصرح للخطباء بإقامة الدعاة إلا بعد أن أرسل بعثة من الفقهاء إلي الخليفة العباسي المستظهر بالله ، يستفتيه في جواز حمل هذا اللقب فلم ير الخليفة بدا من عرض هذا الأمر علي فقهاء بغداد الذين اجتمعوا برئاسة الإمام أبي حامد الغزالي سنة 484 و أفتوا باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا الكتب (ابن عذاري المصدر السابق ج 4 ص 124 ، د . حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام ج 4 ص 313.

[3] ابن الأثير، الكامل ج 10 ص 51.

ويزيدنا ابن الأثير توضيحاً، من أن العلماء خاطبوا يوسف بن تاشفين لدي عودته من بلاد الأندلس منتصرا ودخوله مراكش حاضرة ملكه، بأن طاعته ليست واجبة حتى يذكر اسم الخليفة في الخطبة و يأتيه عنه تقليد بإقراره فأرسل رسله إلي بغداد فأتاه التقليد مع الخلع والأعلام ولقب بلقب " أمير المسلمين وناصر الدين " ويمضي هذا المؤرخ قائلاً، أن يوسف بن تاشفين لما استولي علي بلاد الأندلس جميع الفقهاء وأحسن إليهم، فقالوا له:" ينبغي أن تكون ولايتك من الخليفة لتجب طاعتك علي الكافة، فأرسل إلي الخليفة رسولا يحمل هداياه و معه كتاب يذكر فيه ما فتح الله عليه من بلاد الفرنجة ويطلب منه تقليدا بولاية الأندلسي التي دانت له، فبعث إليه الخليفة، التقليد بالحكم و لقبه " أمير المسلمين وأرسل إليه الخلع "[1] وهكذا تقدم لنا هذه المعلومات، الصلات الوطيدة التي كانت تربط الخلافة العباسية بالمرابطين طوال مدة حكمهم للمغرب الإسلامي والأندلس التي استغرقت قرناً من الزمن تقريباً.

---

[1] م. ن. ص 57.

الفصل العاشر

دولة الموحدين

1- تـــمهيد

2- علاقات الموحدين بالخلافة العباسية

الفصل العاشر

دولــة الموحدّين

(541 - 646هـ / 1143 – 1248م)

تمهيد:

أورث أبو عبد الله محمد بن تومرت الهرغي (485 /524هـ) وهو مؤســس الدعوة فقيهاً في جماعة، أفكاره وآراءه في التوحيد الذي هو رأس أركان الإيمان في الإسلام وسرّ العقائد الإيمانية الذي هو علم الاعتقاد وحتــى عــرف مريــدوه وأنصاره وجميع من آمن بدعوته بالموحدين، لأنهم أول من تحدث بهذه الآراء في بلاد المغرب، وقد أصبحوا، بعد وقت وجيز من سريان الدعوة، القوة التي أعلنــت الثورة على المرابطين إذ بدأوها منذ سنة 514 هــ وسرعان ما تحوّلت حــركتهم الدينية[1] إلى حركة سياسية لإسقاط دولة المرابطين وإقامة دولتهم على أنقاضها.

خاض محمد بن تومرت مبارك عدة ضد المرابطين، تكبد هؤلاء فيهــا هــزائم متتالية وتوالت انتصارات الموحدين، فكان من نتيجتها أن وجّه محمد بن تــومرت رسالة إلى المرابطين يدعوهم فيها إلى طاعته وينذرهم بسحقهم إذا لم يستجيبوا، وقد أورد صاحب الحلل الموشية نص هذه الرسالة بقوله "...وكفا بنا هــذا إلــيكم أعذار وأنذار، وقد أعذر من أنذر"[2] ويعدد لنا أبــو بكــر الصــنهاجي المعــروف بالبيذق، المواقع بين المرابطين والموحدين، ويقول إنها بلغــت ثمــان غــزوات متوالية[3]، الأمر الذي أتاح للموحدين أن يبسطوا سيطرتهم المطلقة على منطقــة

---

[1] قامت فكرة الموحدين على أساس " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" ووجوب الاعتقاد في استقاء الأحكام على القرآن والسنّة دون غيرهما، وموافقة مذهب أبي الحسن الأشعري سوى مسألة الصفات ، فإنهم وافقوا المعتزلة في نفيها

[2] مجهول ص 81

[3] كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ص 74 – 78

السوس. وفي سنة 518هـ سار محمد بن تومرت بقواته نحو منطقة " تينملل "[1] الصغيرة التي تقع فوق ربوة عالية في سفح جبل درن وهو أحد شعاب جبال الأطلس، المشرفة على مراكش بمسافة لا تزيد عن المائة كيلومتراً واتخذها داراً ومعسكراً وقاعدة للانطلاق، وبدأ يرقب عن كثب، المرابطين وتحركاتهم حتى سنة 520 هـ، حيث بادر إلى تنفيذ خطة الهجوم على نطاق واسع فأرسل جيشاً ضخماً من الموحدين بقيادة أبي محمد البشير، وقد التقى هذا الجيش بجيوش المرابطين التي هزمت وجّد الموحدون في مطاردتهم، غير أن أكبر المعارك التي خاضها الموحدون ضد أعدائهم، هي التي وضع خطتها محمد بن تومرت سنة 524 هـ، حيث أفضت إلى الدخول في مراكش، ولكن المرابطين استعادوها منهم في السنة التالية.

لقد تأهب محمد بن تومرت للمعركة الفاصلة وجمع أنصاره وعساكره ووجّه إليهم رسالة يحثّهم فيها بإنهاء المرابطين الذين سمّاهم باسم " الملثمين " أو " المجسمّين " أو " الزراجنة "[2] وجعل قائديه المعتمدين أبا محمد البشير وعبد المؤمن بن علي في مقدمة جيوشه، وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بالمرابطين في البداية، لكن الموحدين لم يستطيعوا أن يدخلوا مراكش مما جعلهم يعبئون لمعركة أخرى زادوا فيها ضغوطهم وهزموا المرابطين ثم زحفوا نحو مراكش ورابطوا أمام أسوارها وأبوابها واستمروا في حصارها وبدأت المناوشات بين الطرفين، كان المرابطون يُهزمون فيها في كل مرة، ومع ذلك فان الموحدين لم يستطيعوا أن يصنعوا نهاية للمرابطين الذين استنفروا سائر أمراء القبائل

---

[1] يكتبها ياقوت " تين ملل " ويقول أنها جبال بالمغرب بها قرى ومزارع يسكنها البربر بين أو لهـا ومراكش سرير ملك بني عبد المؤمن بن علي بها كان أول خروج محمد بن تومرت (معجم البلدان ج 2 ص 445).

[2] تشبيها لهم بطائر الزرجان وهو أسود البطن أبيض الريش، فالمرابطون باعتقاده بيض الثياب سود القلوب (الحلل الموشيه ص 86، انظر محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحّين في المغرب والأندلس / القسم الثاني ص185

المغربية الموالية لهم وولاتها وقادتها، فوافقهم بالعساكر والحشود وكان من نتيجة ذلك إن وقعت بين الطرفين اكبر معركة هي معركة البحيرة هُزم فيها الموحـــدون وتكبدوا خسائر فادحة، إذ قتل منهم عدد كبير ولم ينج من عساكرهم إلا أربعمائـــة بين فارس وراجل وسقط بين القتلى أبو محمد البشير اكبر قادتهم وقتل معه معظم الرؤساء والقادة ومنهم الأصحاب العشرة لمحمد بن تومرت[1] .

وفي 524 هـ توفى محمد بن تومرت على أثر هزيمة جيوشه أمام المرابطين فخلفه عبد المؤمن بن علي، الرياسة ولعل توليه أمر الموحدين يمثل مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين المرابطين والموحدين وبداية تحوّل في تاريخ الموحدين.

ينتمي عبد المؤمن بن علي إلى قبيلة (كومية) وهي بطن من بطون قبيلة زناتة وقد استطاع أن يضع الأساس المتين لدولة الموحدين، فقد قضى عامـــاً ونصـــف العام بعد توليه خلافة محمد بن تـــومرت، يـــنظّم شـــئون الموحـــدين ويحشـــدهم ويستنفرهم لجهاد المرابطين، وقد عبأ سنة 526 هـ جيوشاً جـــراراً وســـار بـــه لمنازلة المرابطين فأخضع أغلب أقاليم دولة المـــرابطين لســـلطته، وذلـــك خـــلال السنوات من 526 – 540 هـ حيث جرت معارك محلية بينهما، كان النصر فيهـــا دائماً للموحدين، وفي نهاية عام 540 هـ لم يكن ثمة شك فـــي غنهيـــار دولـــة المرابطين وسلطانهم في المغربين الأوسط والشمالي حيث بسط الموحدون نفوذهم على سائر القواعد الجنوبية للمرابطين، فيما عدا مراكش وبعض الثغور الشـــمالية ولكن بدا واضحاً إن دولة المرابطين راحت تتلقى الضربات المتتاليـــة فتضـــعفها وتبدد قواها خلال تلك المعارك، وفي الوقت الذي بدأ الموحدون يقتربون من مدينة فاس للاستيلاء عليها، شعرا المرابطون بحراجة الموقف، وبعد استكمال الموحدين الانتشار في مدينة فاس سنة 540 هـ استعدوا للدخول إلى مراكش والظاهر أنـــه لا يمكن تحقيق ذلك إلا بإخضاع قبيلة مكنتسة التي تحصنت في مدينة مكناسة التي أبقى الموحدون الحصار مضروباً حولها، ثم اتجهوا إلى مناطق آزمور وهي ربوع قبيلة صناهجة فاستولوا عليها ثم انضمت قبيلة دكالة إليهم واحتلوا جبل إبحليـــز

---

[1] الحلل الموشيه ص 80، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب ص 114، ابن الأثير الكامل ج 10 ص 205

الذي يشرف على مراكش وبذلك احكموا الحصار حولها وعند أول لقاء بين الطرفين هُزم جيش المرابطين وتمكن جند الموحدين من تسلق أسوار مراكش واقتحموها وعندها سقط آخر معقل للمرابطين وزالت دولتهم سنة 541 هـ [1] كما انتهى حكم أسرتهم بمقتل إسحق بن علي بن تاشفين آخر أمرائهم على يد الموحدين[2] .

وبدأ الموحدون عهداً جديداً في مدينة مراكش إذ اتخذوها حاضرة لهم فأدخلوا عليها إصلاحات كثيرة وبنوا فيها مسجدهم الجامع وأتموا جلب المياه إليها وصنعوا أسقيات لها بقرب دار الحجر[3]. وفي 542 قدم على عبد المؤمن بن علي وفد من أهل اشبيلية رفعوا إليه البيعة ، مكتوبة بخطوطهم فأستحسن خليفة الموحدين موقفهم وقبل طاعتهم وكان لذلك أثره في نفوس الموحدين وإيثارهم لأشبيلية باتخاذها حاضرة للأندلس في عهدهم .

والظاهر أن الموحدين بعد ربع قرن تقريباً من احتوائهم للأندلس لم يسعهم السيطرة على مقاليد حكمهم في الإقليمين المغرب والأندلس وبخاصة بعد تحالف الممالك الأسبانية الشمالية ضدهم ونقض القشتاليين للهدنة القائمة بينهم التي عقدت سنة 607 هـ إبان عبور الموحدين إلى الأندلس ومحاصرتهم للمدن والحصون في بلاد قشتاله، لذلك تراخت هممهم في المحافظة على كيان دولتهم، فاندلعت ضدهم ثورات خطيرة هددت نفوذهم وزعزعت سلطتهم الدينية والسياسية وسقطت بأيدي الثوار بلاد تامسنا وبلاد المصامدة وهاجت قبائل حاحة ورجراجة وهزميرة وهكسورة ودكالة، وعلى الرغم من أن الموحدين استطاعوا في مرحلتهم الأخيرة أن يخمدوا هذه الثورات وينقذوا حكمهم من السقوط ولكن معركة " العقاب " بينهم وبين جيوش الممالك الأسبانية الشمالية جاءت لتضع حداً لدولة الموحدين ليس فقط في الأندلس وإنما في المغرب الإسلامي، حيث توجهت كتائب الموحدين

---

[1] ابن عذارى، المصدر السابق ج 4 ص 108، ابن خلدون، المصدر السابق ج 6 ص232

[2] البيذق، أخبار المهدي بن تومرت ص 104

[3] أحد ضواحي مراكش أنظر الإدريسي، نزهة المشتاق ص 68 ، 69 .

وعساكرهم إلى طليطلة عاصمة بلاد قشتالة لمواجهة حشود هؤلاء الصليبيين هناك سنة 609 هـ / 1212م حيث اشتبكوا بمعركة أسمتها المصادر القشتالية "لاس نافاس تولوسا " التي أطلق عليها المؤرخون المسلمون " العقاب " فهزمت جيوش الموحدين على أثرها وتقدمت الجيوش الأسبانية الشمالية المتحالفة إلى المدن الأندلسية المجاورة لحصن العقاب فاستولوا على بانيوس وكاسترد فرات وتولوسا وبياسة وبسطة ثم عادت بعض فلول الموحدين إلى اشبيلية وعبرت مضيق جبل طارق إلى مراكش مما وضع نهاية انهيار دولة الموحدين بعد هذه المعركة.

وبوفاة آخر أمرائهم محمد الناصر انتهى دورهم في بلاد الأندلس بعد سقوط أشبيلية بأيدي الأسبان غير أن دولتهم استمرت في المغرب حتى سنة 668 هـ وهي السنة التي قتل فيها آخر حاكم موحدي نُصب من قبل المرينيين، أمام أسوار مراكش حيث استولى الخراب والدمار على معظم ديارهم ودخل ورثتهم بنو مرين إلى مراكش وبدأت مرحلة جديدة بولادة الدولة المرينية فى بلاد المغرب الإسلامى.

علاقات الموحدين بالخلافة العباسية:

يرى الموحدون أحقيتهم في لقب الخلافة الإسلامية لأنهم على حد زعمهم أكثر المسلمين إيماناً وأصحهم مذهباً، ولما استولى هؤلاء على بلاد الأندلس وامتد نفوذهم من طرابلس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وحاولوا الاستيلاء على مصر وما يليها من بلاد المشرق الإسلامي، ظهروا وكأنهم يتحدون الخلافة العباسية، وقد زاد ذلك التحدي وضوحاً عندما أقرَّ محمد ن تومرت عبد المؤمن بن علي قائداً على جيش الموحدين وقال لأتباعه: " أنتم المؤمنون وهذا أميركم"[1] وبهذا لم يجد أتباع محمد بن تومرت حرجاً في آن يلقبوا عبد المؤمن بن علي بلقب " أمير المؤمنين"[2] وهذا اللقب هو من ألقاب الخلافة العباسية وحدها. ولا شك في أن

---

[1] المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص 188

[2] اعتبار الموحدين هم خلفاء المسلمين في الأرض واكتسابهم النفوذ الروحي والمعنوي في العالم الاسلامي بدلاً من العباسيين

اتخاذ عبد المؤمن بن علي لقب خليفة وتسميته بأمير المؤمنين وإعلان رسوم الخلافة ببلاد المغرب في الوقت الذي أشرفت فيه الخلافة الفاطمية على الزوال في مصر، يقدم صورة عن تردي العلاقات بين العباسيين والموحدين.

ويذكر أن تغرى بردى، أن الخطبة للعباسيين ظلت مستمرة في المغرب حتى سنة 524 هـ / 1129 م وهي السنة التي تولى فيها عبد المؤمن بن علي أمر الموحدين فقطع الخطبة للخليفة العباسي المعتضد بالله وتلقب بلقب أمير المؤمنين[1] وما مدام المرابطون في حينها قد حرصوا على توطيد علاقاتهم بالخلافة العباسية بصور شتى ومنها عدم التلقب بألقابهم وضرب السكة بأسمائهم، فإن الموحدين سلكوا طريقاً مغايرا لنهج المرابطين في علاقاتهم بالخلافة فلم يعترفوا بالتقليد والأعلام السود والشارات التي كان العباسيون يرسلوها للمرابطين سابقاً وقطعوا كل صلة كانت تربطهم بالخلافة العباسية روحياً وسياسياً حتى سقوط دولتهم ولعل من المفيد أن نذكر، أنه على الرغم من سعي صلاح الدين الأيوبي خليفة الفاطميين في مصر لتوطيد العلاقات مع الموحدين بنية الحصول على قطع من الأسطول البحري الموحدي للاستعانة بها في دفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام والأراضي المقدسة في فلسطين، فإنه أدرك تردّي العلاقات التي كانت تربط الموحدين بالخلفاء العباسيين وحيث كان هو مرتبط بهم روحياً ومصيرياً، عندئذ خاطب أبا يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي بلقب " أمير المسلمين " ولم يلقبه بأمير المؤمنين احتراماً للعباسيين لذلك لم يستجب خليفة الموحدين لصلاح الدين الأيوبي ولم يحقق له غرضاً إذ لم يعجبه أن يخاطبه هذا الأخير بهذا اللقب[2].

---

[1] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج5 ص 50 – 51

[2] السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج 2 ص 63

الفصل الحادي عشر

إمارة بني مَرين والإمارات المحلية في المغرب الإسلامي

1- إمارة بني مَرين

2- سقوط إمارة بني مَرين.

3- الإمارات المحلية في المغرب الإسلامي

أ - إمارة بني عبد الواد في المغرب الأوسط (بلاد الجزائر).

ب - إمارة بني حفص في المغرب الأدنى (بلاد ليبيا وتونس).

ج - دور المغرب الإسلامي في احتضان العرب المسلمين بعد سقوط غرناطة.

الفصل الحادي عشر

إمارة بني مَرين والإمارات المحليّة في المغرب الإسلامي

(1)إمارة بني مَرين:

(592- 957هـ/ 1195- 1550هـ)

كان بنو مرين قادة جيوش الموحدين وولاتهم وعمالهم في البلاد التي تخضع لسيادتهم ابتدءا من المغرب الأدنى حتى الحافات النهائية الغربية للمغرب الأقصى وبعد أكثر من مائة عام من حكم الموحدين، بدأ بنو مرين يتحينون الفرصة للانقضاض على حكم الخلفاء الضعفاء الأواخر الذين فقدوا السيطرة على مقدّرات دولتهم المترامية الأطراف حيث ظهرت بوادر الانهيار على مؤسساتها الإدارية والسياسية والعسكرية وقد أعلن المرينيين استقلالهم على منطقة طنجة وسبتة واعترف أهلها بأبي زكريا الحفصي بالسيادة عليهم كما أقرت بعض مدن الأندلس التي كانت تحت هيمنتهم بالحكم المريني، وبذلك أصبحت هناك قوتان تتقاسمان إرث الموحدين وهم المرينيون وبني عبد الواد وبخاصة في منطقة المغرب الأقصى، وبمرور الزمن تركَز بنو مرين في حدود المغرب الأقصى والأوسط واستقلالها بحكم هاتين الأسرتين قد تم بسهولة لأنهما كانا يحكمان هذه البلدان سابقاً باسم الموحدين.

ويمكن القول أن قيام دولة بني مرين الحقيقي بدأ منذ أن دخلوا مدينة مراكش حيث تمكن أحد أمرائهم وهو أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من اجتياحها سنة 668 هـ وقد اتخذوها فيما بعد مركزاً لهم بعد أن كانت عاصمة الموحدين وحاضرتهم، وفي عهد هذا الأمير أطلق لأول مرة على دولتهم اسم " الدولة المرينية " نسبة إلى مرين الذي ينتسب إلى فرع من فروع قبيلة زنانة، كما أطلق عليها " الدولة الوطاسية " نسبة إلى وطاس بن فجوس بن جرماط بن مرين، وهو الفرع نفسه الذي حكم هذه الدولة.

وليس من شك في أن بروز اسم المرينيين غنما كان بسبب مساهمتهم الفعّالة في "معركة الأرك " التي وقعت سنة 591 هـ/ 1195 م بين الموحّدين والأندلسيين

من جهة وبين الأسبان القشتاليين من جهة ثانية[1] حيث أبلوا فيها بلاءاً حسناً ولكن أصيب خلالها أميرهم محمد بن أبي بكر ومات متأثراً بجراحه فخلفه على رئاسة الدولة ابنه عبد الحق وكان عهد الأمير عبد الحق يمثل عهد القوة والتوسع، فقد دخل المرينيون جميع بلاد المغرب الأقصى وانتشروا في منطقة الريف سنة 610 هـ مستغلين ضعف خلفاء الموحدين واضطراب الأوضاع السياسية وتراجع الموحدين عن الثغور المتاخمة للفرنج والأسبان، وعدم الدفاع عنها، وعلى الرغم من وقوف الخليفة الموحدي يوسف المنتصر بوجه المرينيين وحشده لجيش يناهز العشرين ألف فارس، لكن بني مرين استطاعوا أن يهزموا جيش الموحدين في وادي نكور سنة 613 هـ / 1216م ثم زحفوا نحو مدينة رباط تازي وانتزعوها من الموحدين.

وفي غمرة الانتصارات التي كان يحرزها المرينيون على مواقع الموحدين وجيوشهم حدث انشقاق بين صفوف قوات بني مرين فخرج جيش منهم بقيادة عسكر بن محمد والتحق في صفوف الموحدين وتحالف معهم بعض عرب المشرق في رباح[2]، وفي معركة وادي سبو على مقربة من مدينة شافر كاست سنة 614 هـ تفرق بنو مرين وقتل أكثر جيشهم، غير أن بني مرين أقسموا على الثأر وما لبثوا إن التقوا في معارك عدة مع أعدائهم واستردوا نفوذهم وسلطتهم وخاصة في عهد أبي سعيد عثمان بن عبد الحق الذي راح يستغل ضعف الموحدين وإنخذال جيوشهم في أكثر مناطق المغرب الإسلامي وأخذ يدعوا القبائل إلى الدخول في طاعته فأعلنت أكثر القبائل[3] استسلامها والانحياز إلى جانبه.

---

[1] وكان الجيش القشتالي بقيادة الملك الفونس الثامن، حيث أقام في محلة الأراك حصنا عرف بحصن الأرك وقد جرت المعركة غرب المدينة الملكية وإلى شرق السهل الذي جرت فيه معركة الزلاقة الشهيرة سنة 479 هـ (ابن عذارى البيان ج 3 ص 191، محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين ج 2 ص 200).

[2] ويسمون (عرب رباح) وهم أقوى القبائل العربية في المغرب الإسلامي

[3] ومن القبائل التي انضمت الى المرينيين، هوارة وزركارة وتسول ومكناسة وبطوية وقشتالة وسدراتة وبهلولة ومديونة وفرضوا عليهم الخراج والضرائب ووجه إليهم الجباة والعمّال، كما ألزم أهل فاس وتازي وقصر كتامة بتأدية ضريبة سنوية مقابل حمايتها فاستجابوا إتقاءا من غاراته التي كان يشنها عليهم (ابن خلدون، العبر ج 3 ص 195).

وعلى الرغم من إغتيال أبي سعيد بن عثمان بن عبد الحق سنة 618 هـ فان المرينيون واصلوا تصديهم للموحدين ومقاتلتهم وتحقيق هدفهم في بسط نفوذهم وسيطرتهم على جميع المغرب الإسلامي، ففي عهد معرف بن عبد الحق، اشتبك المرينيون مع جيش الموحدين الذي كان يقوده " أجر محمد بن واندين " وانتصروا عليهم بالقرب من مدينة مكناسة غير أن الموحدين يذلوا جهودهم ونشاطهم في محاربة بني مرين فأعدوا لذلك جيشاً ضخماً مؤلفاً من فرسان عرب المشرق والمصامدة وبعض العاصر الرومية والتقى معهم على مقربة من منطقة " أحوازفاس " حيث أوقعوا الهزيمة في صفوف المرينيين وتفرق جيشهم إلى فلول منهزمة في منطقة جبال " غياثة " [1].

ويمكن القول، أن الدولة المرينية لم تشرف على نهايتها حتى بسطت سيطرتها من برقة وطرابلس شرقاً إلى منطقة السوس الأقصى غرباً حيث بدأت نذر الضعف والانهيار تدب في كيانها المتسع الأرجاء. ولكن قبل أفول نجمها يمكن الاعتراف المرينيين بالفضل في وقوفهم مع والأندلسيين والغرناطيين ضد تعديات الأسبان القشتاليين واعتدائتهم المستمرة على المدن الأندلسية، لذلك وطدَوا أنفسهم على مساعدة إخوانهم فعبروا أربع مرات لنجدتهم مع جيوشهم ومعداتهم وأحرزوا النصر على الجيوش المتحالفة من الأسبان القشتاليين:

أ – في سنة 591 هـ /1195 العبور الأول في معركة الأرك [2].

ب– في سنة677 هـ/1278م العبور الثاني محاصرة اشبيلية في أراضي قشتالة[3]

ج– في سنة 681 هـ/1282م العبور الثالث[4].

د–في سنة 684هـ / 1285 م العبور الرابع[5].

---

[1] المصدر نفسه ج4 ص 455 – 457.

[2] ابن عذارى، المصدر السابق ص 191

[3] ابن ابي زرع، الذخيرة السنية ص 160

[4] المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض ج 1 ص 61

[5] ابن خلدون، المصدر السابق ص 393، ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة ج 1 ص 563.

جرى اشتباك جيوش المرينيين مع المتحالفين في البـر والبحـر ممـا أرغـم القشتاليين على طلب الصلح وعقد هدنة بين الطرفين فوضع المرينييون شروطهم ومنها عدم الاعتداء على الأندلسيين ومسالمة العرب المسلمين من الغرناطيين [1].
واستمرت نجدات بني مرين لإخوانهم والأندلسيين ففي سنة 690 هـ/ 1291م وجّه الأمير أبو يعقوب المريني أسطولاً لمقاتلة القشتاليين انتصاراً لعرب الأندلس، فتوغل الجيش المغربي إلى شريش ثم اجتاز أحوازا اشبيلية ثم عاد إلى الجزيـرة الخضراء فكان لهذا العمل العسكري أثره لدي القشتاليين، فقد ترك فـي نفوسـهم التوجس والخوف من تكرار مثل هذا الهجوم في المستقبل فخفّضوا من ضغوطهم على مملكة غرناطة بل وسعوا إلى محالفة أمراء بني الأحمر فيها.
وهكذا وضع بنو مرين أساساً متيناً للتعاون ونصرة العرب المسـلمين الأندلسيين وإبعاد الأخطار المحتملة على مملكة غرناطة طوال مدة حكمهم للمغـرب وقـدموا صورة واضحة للتضامن وتقديم العـون مـن أجـل المحافظـة علـى السـيادة العربية الإسلامية في بلاد الأندلس حتى نهايات القرن التاسع الهجري بسـقوط مملكة غرناطة.

سقوط إمارة بني مَرين:

يلاحظ بعد وفاة الأمير أبي الحسن على بن عثمـان المرينـي، سـريان الضـعف والانحلال في أجهزة الدولة المرينية ومرافقتها ومواستها وذلك نتيجة لتولي بعض الأمراء الذين وصفتهم المصادر بالضعف وعدم الاقتدار وضيق النظرة ومسـايرة الشهوات وكثرة النزاعات[2] ، فلم تلبث أن فقدت دولتهم المغرب الأدنى ثم المغرب الأوسط وعادت إلى إطارها وحدودها القديمة ، وقد توج استيلاء البرتغاليين على مدينة سبتة سنة 818 هـ/ 1415م سقوط المرينيين بل وكان نذيراً لـيس فقـط لإنهيار دولة بني مرين بل وقوع جميع بلاد المغرب الإسلامـي تحـت السـيطرة

---

[1] توفى أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة 685 هـ وكان يقود جيش العبور قبل ان يعود الـى المغرب (انظر ابن عذارى، المصدر نفسه ص 196).

[2] ابن الخطيب، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ص 119.

البرتغالية[1] حيث كان هؤلاء يفتشون عن مناطـق نفوذهم فـي شـمال أفريقيـة بصورة خاصة وهكذا اختتمت الدولة المرينية عهدها بالإقتصار على مدينة فاس[2] حتى سنة 956 هـ/154م حيث سقطت دولتهم بسقوط هذه المدينة على أيدي قوة من" الأشراف السعديين " .

---

[1] استولى البرتغاليون وحلفاؤهم من الفرنج على جزء كبير من ساحل المغرب فاحتلوا " آصيلا " سـنة 876 هـ / 1471 م وصافي وآزمور وطنجة سنة 879 هـ / 1476 م

[2] حيث فقدت أخيراً مراكش وتافيلت ودرعة والسوس وبلاد الريف.

(2)

الإمارات المحلية في المغرب الإسلامي

(أ) إمارة بني عبد الواد في المغرب الأوسط "بلاد الجزائر":

(633 – 914هـ / 1235 – 1508م)

استغل بنو عبد الواد، وكانوا في الأصل من أمراء القبائل المرحّل التي كانت تجوب صحراء المغرب الأوسط، ضعف الموحدين وعدم سيطرتهم على الحفاظ لكيان دولتهم الشاسعة الأرجاء، للسيطرة على بعض المناطق والحصون القريبة من تلمسان التي كانوا يحكموها باسم الموحدين، بل ازدادوا تمادياً بإعلان استقلالهم في تلمسان واتخذاها عاصمة لهم سنة 624 هـ / 1227 م وذلك بعد أن أطيح تماماً دولة الموحدين والظاهر أن الظروف التي أحاطت ببني عبد الواد مكنتهم من تكوين إمارتهم التي شاء لها أن تلعب دوراً مهماً في تاريخ المنطقة، استمرت ما يقرب من الثلاثة قرون، وإن الاستقرار الذي ساد بلاد المغرب، كان أحد العوامل التي ساعدت بني عبد الواد من تكوين سلطتهم ونفوذهم وفرض أنفسهم فرضاً على سكان سواحل المغرب الأوسط، ثم ما لبثوا أن أصبحوا سادة هذه البلاد وحماتها، وقد لعب يغمراس بن زيّان وكان أحد ولاة الموحدين في تلمسان، دوراً كبيراً في تأسيس إمارة بني عبد الواد وإقامتها، فقد سمح للقبائل المنتمية إليهم وأقاربهم وحلفائهم أن يتركوا الصحراء ويستقروا في سهول وهران، لكن يضعوا أمكاناتهم تحت تصرّف عامل الموحدين، وكان بنو زيّان قد ساهما مساهمة فعّالة في الدفاع عن منطقة وهران فقتلوا نظير ذلك بعض الإمتيازات، الأمر الذي أدى في نهاية الأمر إلى استقلاله ومجابهة الإخطار المحيقة به من الشرق ومن الغرب.

ومن الأخطار التي كانت تهدد غمارة بني عبد الواد، مجموعة القبائل العربية المشرقية المنتشرة في وديان الساحل الشمالي للمغرب الأوسط، كما إن بني حفص في تونس هم الآخرون كانوا يشكلون تهديداً دائماً لبني عبد الواد، فقد كان هؤلاء

يحاولون أن يبسطوا نفوذهم على المغرب الأوسط ويزعمون بأنهم"ورثة الموحدين" ومن حقهم أن ينشطوا في هذا المجال. ونتيجة لقوة بني حفص وتـأثيراتهم فـي القبائل المنتشرة في تلك الأصقاع، اضطر يغمراسن بن زيّان، الاعتـراف بسـيادة الحفصيين على مناطق واسعة في المغرب الأوسط، فيما كان المرينيون يمينـون الفرص السانحة للتدخل في المغرب الأوسط والسعي للاستيلاء عليه رغـم أنهـم فشلوا في اقتحام أسوار تلمسان المنيعة، وتكررت محاولات المرينيين ضد تلمسان في سنة 737 هـ / 1336 م حيث سار أبو الحسن على بن عثمان إليها وشـدّد عليها الحصار وأقام معسكراً ثابتاً أمامها ليكون قاعدة لعملياته العسـكرية، ولـم تلبث محاولات المرينيين إن أسقطت تلمسان بالفعل سنة 738 هـ، فوسعوا نطاق القاعدة العسكرية التي أقاموها أمام المدينة حتى أصبحت تلمسان مدينـة كبيـرة أطلق عليها اسم " المنصورة " ثم انطلقوا منها ليقضوا على سلطة بني عبد الـواد بقتل الأمير ابن أبي تاشفين.

وعلى الرغم من بقاء تلمسان في حوزة بني مرين أكثر من عشر سنوات مـن تاريخ سقوطها بأيديهم وبقائها مركزاً لحكومتهم، فإنها خرجت من نفوذهم، حيـث استعادها بني عبد الواد سنة 750 هـ / 1349 م ولكن مع ذلك لـم يسـتطيعوا الاحتفاظ بها، إذ سقطت بيد المرينيين سنة 753 هـ / 1352 م ومع ذلك لم يلبث أحد أمراء بني عبد الواد وهو أبو مسلم إبراهيم بن أبي الحسن أن دخلها واستولى بالأمان عليها سنة 761 هـ / 1359 م وعهد بحكمها إلى أحد أحفاده.

ونقرأ خلال هذه الحقبة عن الازدهار الذي أصابته مدينة تلمسان وذلك نتيجـة لموقعها الجغرافي ومياهها الجارية وأحاطتها البساتين والجنان، فاستعادت بـذلك مجدها القديم وأصبحت مركزاً تجاريا مهماً يقصده تجار العالم الإسلامي ومركـزا للقوافل التي تمر بها من تافيللت والسودان، كما أبنى فيها بنو عبد الواد المساجد والقصور والعمائر والمنشآت التي اتخذت بمثابة المدارس.

وفي نهاية القرن التاسع الهجري، فقدت تلمسان استقلالها على أثر اجتياحهـا من قبل جيوش بني حفص، حيث تغلّب الأمير أبو فارس عبد العزيـز بـن أحمـد

الحفصي على أميرها الواثق بالله. ومنذ سنة 870 هـ / 1465 م تعرّضت تلمسان إلى حملات الحفصيين العسكرية حتى نجحوا في هدم أسوارها وعلى الرغم من ذلك فقد ظلّت سلطة بني عبد الواد متماسكة، إلى أن ظهر الأسبان على المسرح السياسي، ففي سنة 914 هـ/1508 م سقطت وهران بيد الغزاة الأسبان ومن ثم سقطت الجزائر، وهكذا أسلمت بلاد بني عبد الواد إلى خير الدين بربروسا ومن ثم أحد قراصنة الأتراك لكيلا تقع لقمة سائغة بيد الأسبان، وقد كان ذلك سبباً في دخول الأتراك العثمانيين بلاد المغرب الإسلامي.

(ب)إمارة بني حفص[1] في المغرب الأدنى " تونس "

(625 – 950هـ / 1227 – 1446م)

استقل بنو حفص عن كيان دولة الموحدين في عهد أبى زكريا يحيى الحفصي الذي يمكن اعتباره المؤسس الحقيقي لإمارة الحفصيين في تونس حيث استقل بإمارة أفريقية سنة 625 هـ بعد أن عزل أخاه أبا محمد عبد الله بن أبى محمد أبى حفص[2] وعلى الرغم من الأحداث الخطيرة التي رافقت قيام إمارتهم، فإنهم حكموا حقبة طويلة بما يقرب من ثلاثة قرون ونصف، أقاموا خلالها علاقات وثيقة مع أهل شرق الأندلس واشبيلية والمرية، وقد أرسلوا إلى أبى زكريا يستصرخونه ويستنجدون به ضد الأسبان القشتاليين، وكان محمد استنجد به الفيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خلف بن قاسم الأنصاري والعلاّمة الشاعر والمؤرخ أبو عبد الله بن الآبار[3] حيث وصل هذا الأخير إلى تونس سنة 635 هـ[4] ، فبادر الأمير أبو زكريا الحفصي إلى تجهيز أسطول شحنه بالمؤن والسلاح مكون من ثماني

---

[1] ينتسب الحفصيون الى الشيخ ابي حفص يحيى بن عمرو الهنتاتي من قبيلة هنتاتة أكبر قبائل مصمودة وكان لأبي حفص مكانة سامية في دولة الموحدين.

[2] يبدو أن سبب استقلال ابي زكريا بتونس يرجع الى ما قام الموحدون من قتل بعض أنصارهم ومريديهم في مدينة مراكش وبخاصة من هنتاتة وتينملل (د. السيد عبد العزيز ساع، المغرب الكبير ج2 ص 875).

[3] ابن الأبار الحلة السيرار ج 2 ص 125.

[4] المقرى، ازدهار الرياض ج 2 ص 590.

عشرة سفينة كبيرة وصغيرة اتجهت إلى بلنسيا بصحبة ابن الآبار والوفد الأندلسي [1]، وعلى الرغم من عدم وصول هذه كنجدة لأهل المدينة ولكنها ظهرت مدى استجابته الحفصيين لأهل الأندلس ووقوفهم إلى جانبهم في محنتهم وجاء ذلك في كتاب "الجلّة السيراء" لابن الآبار حيث وصفها كشاهد عيان[2] .

ونتيجة لتوطيد العلاقات بين الحفصيين والأندلسيين فقد تأثرت بلاد المغرب الأدنى " تونس " بعوامل الحضارة الأندلسية، حيث فتح أبو زكريا، أبواب بلاده ومدنه للمهاجرين من أهل الأندلس وخاصة من العلماء والشعراء والفقهاء، وقد بلغ تأثير الأندلس ذروته في الإمارة الحفصية في عهد أبي عبد الله المستنصر بالله خليفة أبي زكريا يحيى الهنتاتي، حيث وصف بأنه كان من أعظم بناة هذه الأسرة وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس من العلماء. وقد ابتنى القصور وأقام البساتين على نسق قصور الأندلس وبساتينها، كما توطدت العلاقات التجارية في عهده بين تونس وبرشلونة ومرسيليا وجنوه وبيزا والبندقية وصقلية وأنشأت الفنادق والمنشآت والمباني بتونس، وبعد وفاة أبي زكريا يحيى الهنتاتي تعاقب على الحكم عدد من الأمراء لم يستطيعوا الاحتفاظ بنفوذ أسرة الحفصيين، مما أدى إلى سريان الضعف والانقسام بين صفوفهم فخرجت بجاية عن طاعتهم واستغل أعداؤهم من المرينيين وبني عبد الواد ذلك فاستطاع الأمير أبو عنان المريني تجريدهم من تونس. ولكن في عهد أبي العباس استعادت إمارة الحفصيين بعض نفوذها، ثم قام ابنه أبو فارس بالإغارة بحراً على مالطة وجربه واستولى على تلمسان، لذلك عرفت دولته جانباً من الازدهار والقوة وتمكن كذلك أن يضم الدويلات المستقلة التي نشأت بعد الفوضى والاضطراب التي حلّت بالبلاد بعد وفاة أبي أبي زكريا يحيى ففي سنة 801 هـ/1400 م استولى على إمارة توزر وقنصه وفي سنة 805 هـ/ 1402 م دخلت جيوشه إلى إمارة بسكرة ونجح في سنة 813 هـ / 1410 م بالاستيلاء على مدينة الجزائر. وفي عهده قدمت السفارات من سائر

---

[1] م . ن. ص 205 .

[2] كتاب الحلة السيرار ج 2 ص 27، ابن الخطيب، أعمال الأعلام ج 2 ص 273

أنحاء العالم إلى تونس، تهادنه وتخطب مودته ومنها سفارة أمير غرناطة وسفارة فاس وسفارة مصر. وفي سنة 838 هـ/ 1434 م توفى أبو فارس بن أبي العباس، فتولى عدد من الأمراء الذين أضعفوا كيان الإمارة حتى سنة 850 هـ / 1446 م حيث استعفى أبو عمرو جميع الاضطرابات وقطع الثوار وعمل على إزالة ما يحول دون ازدهار الإمارة الحفصية، فعقد المعاهدات التجارية مع فرنسا ومصر والأندلس. غير أن هذا الازدهار لم يدم طويلا فبعد وفاة أبي عمرو وعثمان بن أبي العباس، تمزقت وحدة الإمارة تحت ضربات الغزو الأسباني انتقاما من الأتراك الذين كانوا قد اتخذوا السواحل التونسية أوكارا لهم وهكذا كتبت نهاية الإمارة الحفصية بانتشار قوات الأتراك العثمانيين لاستكمال سيطرتهم على جميع بلاد المغرب الإسلامي.

دور المغرب الإسلامي في استقبال واحتضان العرب المسلمين المهاجرين بعد سقوط غرناطة 897هـ/ 1491م) [1]

أتضح أن استيلاء بني مرين على مراكش سنة 668 هـ / 1269 م وإقامة إمارتهم فيها، جعل نشاطهم يتركز في مجالين أولهما بلاد المغرب الأدنى والأوسط ومحاولتهم السيطرة والاحتواء السياسي، وثانيهم نحو بلاد الأندلس ومملكة غرناطة بصورة خاصة وسعيهم على إنجاد أهل الأندلس عامة ومساعدة بني نصر أصحاب غرناطة ضد القشتاليين والأسبان المتربصين بهم، وقد درج بنو مرين على هذه السياسة بعد أن تركز وجودهم في المغرب واستحواذهم على مخلفات دولة الموحدين، ففي عهد الأمير يعقوب بن عبد الحق سنة 668 هـ، خرج بنو مرين بجيش من فاس متجهاً إلى الأندلس فاكتسحوا الفحوص والزروع والبسائط والوديان لتهديد القشتاليين وإشعارهم بقوة حلفائهم من بني نصر[2] بل وتركوا فرقاً دائمة في الأندلس للمرابطة على الثغور الأندلسية متفرعة لردَ الأسبان القشتاليين وحلفائهم، والظاهر أن موقف المرينيين هذا كان له أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس وعلى مملكة غرناطة، وفي سنة 673 هـ أرسل هذا الأمير جيشاً قوامه خمسة آلاف مقاتل ليقوده الأمير نفسه وعند مدينة استجه، اشتبك مع جيش القشتاليين الذي كان يقوده الدون فوينودي لارا [3] حيث هُزم القشتاليون واندحرت جيوشهم.

---

[1] وهم الذين يرجع نسبهم الى سعد بن عبادة الأنصاري، أحد كبار الصحابة، ومن رجالهم ورؤسائهم في عهد بني مرين ابن الأحمر وهو: أبوعبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي (د. عبد الرحمن على الحجي، التاريخ الأندلسي ص 516)

[2] وهم الذين يرجع نسبهم الى سعد بن عبادة الأنصاري، أحد كبار الصحابة، ومن رجالهم ورؤسائهم في عهد بني مرين ابن الأحمر وهو: أبوعبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي (د. عبد الرحمن على الحجي، التاريخ الأندلسي ص 516)

[3] تطلق عليه المصادر الأندلسية اسم " ذنة أو ذنونة " (ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة ج1 ص 565، ابن خلدون، العبر ص 370، المقري، نفح الطيب ج1 ص 449)

ولكن بعد سقوط غرناطة سنة 897 هـ / 1491 م، لم يسع الإمارات والدويلات في المغرب الإسلامي أن تحول دون ذلك ولكنها بدأت تستقبل من يضطر على الهجرة وهم أفواج من العرب المسلمين من مختلف المنازع والطبقات منهم العلماء والفقهاء والشعراء وطلبة الفقه والرؤساء والأمراء، وأول من عبر إلى المغرب أبو عبد الله محمد سلطان غرناطة وذلك بعد سقوط مملكته حيث ارتحل مع عياله وأمر بالجواز إلى العدوة الأندلسية وأُعدت له المراكب حيث ركب معه كثير من المسلمين ونزلوا في مليلة من ريف المغرب ثم ارتحلوا إلى مدينة فاس[1] .

ومن العلماء الذين ارتحلوا من الأندلس القاضي الشهير أبو عبد الله بن الأزرق الذي استقر في تلمسان والفقيه الأديب أبو عبدالله محمد بن الحداد الشهير بالوادي آشي والفقيه أبو العباس البقنّي[2] ، ثم استمرت أفواج العابرين إلى المغرب تتوالى وخصوصاً بعد أن نقض ملوك قشتالة عهودهم ومواثيقهم في الصلح التي أبرمت مع سكان غرناطة واستطالوا عليهم وفرضت عليهم المغارم الثقيلة وأُجبروا على الخروج إلى الأرباض والقرى وأخذت منهم أملاكهم ومعاقلهم وانتزعت أسلحتهم [3]

وفي سنة 981 هـ/1573 م أزمع أهل تلمسان والجزائر على تدبير حملة بحرية لمهاجمة (المرسى الكبير) في مياه بلنسية يعاونهم العرب هناك، لذلك بادرت السلطات القشتالية إلى نزع سلاح العرب في بلنسية، وعلى الرغم من فشل هذه الحملة التي استهدفت غنقاذ إخوانهم من الاضطهاد والتعسف ولكنها كانت بداية لمحاولات أخرى على هذا الطريق، وقد وضعت الأساس لغارات مستمرة على الثغور والشواطئ الأسبانية لغرض الانتقام للأندلس الشهيدة [4] .

---

[1] المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض ج 1 ص 67

[2] م . ن. ص 71 – 72

[3] المقري، المصدر نفسه ص 69 – 70

[4] محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ص 367

واستغرقت هذه الغارات طوال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، ويشير المقري وهو معاصر لهذه الأحداث إلى أن هذه الغارات قد انطلقت من المغرب منتظمة في جيش الأمير ومستهدفة جهاد العدو ومن الأسبان فقال: " أنهم انتظموا في جيش سلطان المغرب وسكنوا سلا وكان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن " [1].

---

[1] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج 2 ص 617

الباب الثالث

تلخيص حضارة المغرب الإسلامي

فصلان

الفصل الثانى عشر

الحضارة الفكرية والثقافية

1- تمهيد

2- بنو مدرار / حاضرتهم سجلماسة

3- بنو رستم / حاضرتهم تاهرت

4- الأدراسة / حاضرتهم فاس

5- الأغالبة / حاضرتهم القيروان

6- الفاطميون / حاضرتهم المهدية

7- المرابطون / حاضرتهم مراكش

8- الموحدون / حاضرتهم مراكش وأشبيلية

9- بنو مرين / حاضرتهم مراكش وفاس

الفصل الثاني عشر

الحضارة الفكرية والثقافية

تمهيد:

استغرق حكم إمارات المغرب ودوله أكثر من ثمانية قرون إبتداءاً من إمارة بنى مدرار وإنتهاءاً بالإمارات المحلية وخلال هذه الفترة تركت هذه الكيانات تأثيراتها في الحياة الفكرية والعلمية والثقافية والإجتماعيه، حيث شيدت المدن الحواضر التى أصبحت مراكز علمية يفد أليها العلماء وطلبة العلم من سائر أنحاء المغرب والمشرق على السواء، ولعل أهم أثر تركته هو سعيها في نشر الإسلام بين الجماعات والقبائل المختلفة سواء في بلاد المغرب أو المناطق الواقعة جنوبى الصحراء، فتقبلت منهاجة ومسرفه ولمتونة الأفكار الإسلامية كما عقدت حلقات الدرس لتدريس العلوم الإسلامية والعلوم العقلية وأقيمت المناظرات بين العلماء والفقهاء في مختلف المسائل الفقهية والشرعية ووجدت مهنة تعليم الصبيان وتأديبهم وهى بمثابة ما تقوم به المدارس في الوقت الحاضر

لقد ظهرت الحركات الفكرية وهى تمتلك تراثا غنياً تمثل في مجموعة الأراء والمقولات والإستنباطات في تفسير النصوص الدينية على نطاق الشريعة والسياسة والفلسفة وفنون الحكم وكان أغلب مؤسسي هذه الحركات من حملة العلم والفقه فوضعوا أساسا للحياة الفكرية لإماراتهم ودولهم ورعاياهم فتبنوا العلماء وأخذوا بأيديهم ونشروا العلوم وشجعوا الناس على طلب العلم وأنشأوا المساجد والزوايا والتكايا والمراكز والمدارس التى كان يختلف إليها العلماء لتدريس أصول الدين والشريعة وعلوم الرياضيات والطب والكمياء وغيرها

ولعل من المفيد أن نستعرض الجهود الحضارية الفكرية التى مهرتها الإمارات والدول في المغرب الإسلامى وما خلفته من معالم وصروح علميه لعبت دوراً كبيرا في ظهور العلماء والفقهاء والفلاسفة وأصحاب الفكر الذين سجلوا سمار أفكارهم في مصنفات وكتب ورسائل فاحتلوا منزلتهم العلمية في العالم الإسلامى وأعترف لهم زملائهم العلماء والفقهاء المشارقة بما وصلوا إليه في العلوم والفنون والآداب وجميع صنوف المعرفة:

(1)

بنو مدرار / حاضرتهم سجلماسة

عرف عهد بنو مدرار" حب العلم والرغبة في طلبه وتحصـيله[1] " وأن أهـل سجلماسة كانوا يجلون العلم ويطلوبنه وهم يباينون أهل المغـرب فـي المنظـر والمخبر مع علم [2] "، وهناك ما يشير إلى إهتمام المدرارين فـي عقـد حلقـات الدرس في العلوم الإسلامية وكذلك مناظرة مخالفيهم ومجادلتهم في العلوم الدينية وعلوم العربية والعلوم العقلية، وكان لأتباع المدرارين من العلماء والمتعلمين في مدينة القيروان الذين كانوا يبدون نشاطا في العلم والفقه والفلسفة [3].

ولكن المؤسف أننا لا نمتلك معلومات وفيرة ومفصلة عن مساهمات المـدرارين في الحركة الثقافية والعلمية إذا قورنت بما نعرفه عـن غيـرهم فـي المغـرب الإسلامى ولعل السبب على أكثر الإحتمال أنه لم يتبقى من آثـارهم الفكريـة مـا يجعلنا نأتى بكثير من التفصيلات والمعلومات المهمة فيما عـدا الإشـارات التـى تعرضنا إليها، وربما كانت آثارهم عرضة للتلف والإهمـال، كمـا لا يوجـد مـن المؤرخين والكتاب المعاصرين لهم ما يمكنا أن نجد عندهم أخبار سجلماسة وبنى مدرار واهتماماتهم بالحركة الفكرية والعلوم، أو أن عداوى الأيام قد أتلفت مؤلفات من اهتم بتواريخهم وتصانيفهم أو عفت عليها يد الحدثان بقصد أو بـدون قصـد غير أن الموجود من شتات المعلومات عنهم بهذا الصدد يمكن أن يلقـى بعـض الضوء على نشاطهم ودورهم في الحياة الفكرية، ليس فقـط فـي داخـل مدينـة سجلماسة وإنما في مدن المغرب الأخرى حيث يتوزع بعض علمـاء المـدرارين ومناصروهم في إمارات الأغالبة والرستميين والأدارسة.

---

[1] إسماعيل حامد، نبذة في تاريخ الصحراء القصوى ص 7.

[2] إبن حوقل، صورة الأرض ص 90 .

[3] المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ج / ص 276 ، الدباغ ، معلم الإيمـان في معرفة أهل القيروان ج ، ص55 .

(2)

بنو رستم / حاضرتهم تاهرت

كان مؤسس إمارتهم عبد الرحمن بن رستم من القيروان، وهو أحد ما يعـرف بحملة العلم الخمسة، الذين هم عاصم السدراتى من غـرب الأوراس وأبـو داود القبلى النفزاوى من إفريقية وإسماعيل بن ضرار الغداسى من جنـوبى طـرابلس وأبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى من اليمن وكانوا قد تلقـوا العلـوم الدينية في العراق وفي مدينة البصرة على يد أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة وهو من أبرز العلماء في هذه الفترة. وكان عبد الرحمن بن رستم قضا خمس سـنوات يتلقى علومه هناك فأصبح بارعاً في علوم الدين واللغة والفلك[1]، وأكسـبه ذلـك مهارة في وضع أساس للحياة الفكرية لإمارته ورعيته بتوسيع الحركـة العلميـة والثقافية بتشجيع العلماء ونشر العلوم حتى أصبحت تاهرت مركزا علميا مرموقـا في جميع أنحاء العالم الإسلامى حيث ضمت المساجد والمراكز والمدارس

وإلى جانب طاهرت، ظهرت مدينة شروس في منطقة جبل نفوسـه ومدينـة جادوا وقرية إجنادن وجزيرة جربة ومنطقة ورجلان، مراكز للعلم والثقافة حيـث كانت تجلب إليها الكتب والمصنفات والرسائل من العراق ومصـر وبـلاد الشـام والحجاز، كما كان يؤمها عدد غير قليل من العلماء وطلبة العلم ومريديه ليتعلموا ويتفقهوا على يد علماء تاهرت وفقهائها من أمثال ابن أبى إدريس وأحمد التيـه وأبى العباس بن فتحون وعثمان بن الصفار وأحمد بن منصور وأبى عبيدة الأعرج [2]، ولكن العالم الشيخ مهدى النفوسي الذى قتله الأغالبة فيما كان يرافق جـيش الرستميين الذى حاصر مدينة طرابلس فى عهد عبد الوهاب عبـد الـرحمن بـن

---

(1) أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة، الورقة 42.

(2) محمد على دبوز، تاريخ المغرب الكبير ج3 ص392 .

رستم، ومحمد بن يانس وأبو الحسن الأبدلاني وعمروسي بن فتح ويعقوب بن أفلح وغيرهم، كانوا يمثلون القمة في العلوم الدينية وعلوم العربية والفلك[1].

لقد كانت العربية الرستمية لإمارة الرستميين وهي لغة التأليف لهؤلاء العلماء والفقهاء، فالكتب والمصنفات التي كانوا يتداولونها كانت باللغة العربية وإن الرستميين كانوا يقدسونها ويحاولون نشرها بين أهل المدن، فكان الناس يتنافسون في تعلمها وإتقانها ويعكفون على دراسة نحوها وقواعدها [2] كما نلمس هناك حركة دائبة لترجمة الكتب اليونانية والهندية والرومية والفارسية إلى العربية يشجعها ويدعمها عبد الوهاب بعد أن خلف أباه في الحكم الذي هو نفسه محباً للعلم وفقيهاً، صنف كتاب" نوازل نفوسه " وهي مجموعة من الفتاوى الشرعية، كما كان أفلح بن عبد الوهاب عالماً في الحساب والفلك وشاعراً[3]

ومن المعالم الحضارية العلمية للرستميين (مكتبة المعصومة) التي أسسها عبد الوهاب بن عبدالرحمن في قصبة المعصومة في مدينة تاهرت، وكانت تضم أمهات الكتب والمصنفات الدينية والفنية وكتب الصنائع وكان يربو عددها على الثلاثمائة ألف مجلد [4] ويشير الوسياني إلى أن البصريين في العراق استنسخوا معظم كتب المشارقة وأودعوها في هذه المكتبة، فأقبل المغاربة على دراستها [5] ولكن الدرجيني يذكر إن مكتبة المعصومة خاصة بالبيت الرستمي الذي وصفه بأنه

---

[1] وممن نبغن من النساء في مدينة تاهرت، أخت أفلح بن عبد الوهاب التي لم تذكر المصادر شيئاً عنها سوى أنها برعت في علم الحساب والفلك والتنجيم(د.السيد عبد العزيز،المغرب الكبير ج2 ص575 .

[2] محمد علي دبوز، المصدر نفسه ص410.

[3] ومن شعره يمجد العلم وأهله:

العلم أبقى لأهل العلم آثارا	يريك أشخاصهم روحا وأبكارا
حي وإن مات ذو علم وذو ورع	ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة	كميت قد ثوى في الرمس إعصارا

د.السيد عبدالعزيز، المصدر نفسه ص584 .

[4] أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة، الورقة 42

[5] سيرة ابي الربيع بن عبد السلام، الورقة 779

"بيت العلوم جامعاً بفنونها من علوم التفسير والحديث وعلم اللسان وعلم النجوم والأصول والفروع والفرائض" [1] والى جانب مكتبة المعصومة هناك مكتبات في المدن الرستمية تحتفظ بالكتب والتصانيف، وهي مكتبات عامة يؤمها الناس من مختلف الفئات والطبقات.

ولعل من أبرز مظاهر الحياة الفكرية التي عرفتها تاهرت في هذه الفترة، المناظرات العامة التي كان يدعى إليها سكان المدينة وكانت تجرى على نهر مينه وأصبح لها صدى واسعاً في العالم الإسلامي وقد تناظر فيها شيوخ الاباضية من الرستميين وعلمائها مع علماء المعتزلة ومجتهديهم وتناولت موضوعات في الفقه والشريعة وفي العلوم العقلية والنقلية [2] .

والظاهر أن الفاطميين كانوا مقتنعين بالمنزلة العلمية التي كان يتمتع بها الرستميون ويدل على ذلك استحواذهم على مكتبة المعصومة والمكتبات الأخرى وتجريدها من محتوياتها، ولكن لا صحة لما ذكر عن إجراءات الفاطميين بحرقها بعد أن حصلوا منها على الكتب النفسية في الرياضيات والطب والفلاحة والهندسة والفلك بل نقلوا كتبها ومصنفاتها جميعاً إلى بلادهم بدون استثناء[3].

---

[1] طبقات الاباضية ج 1 ص 136

[2] د. الحبيب الجنحاني، المصدر الساق ص 141

[3] د. موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية ص 345 - 346

(3)

الأدارسة / حاضرتهم فاس

ترك الأدراسة أثراً واضحاً في الحياة الثقافية، ليس في المغرب الأقصى، فحسب بل في جميع أنحاء المغرب الإسلامي، فقد قاموا بدور ملموس في نشر الإسلام وتبنى الحركة الإسلامية، فلم يمضي وقت طويل على قيام إمارتهم حتى برزت مدينة فاس وأصبحت مركزاً من المراكز الثقافية والفكرية يشد إليه العلماء والمفكرون وطلبة المعرفة، الرجال من جميع العالم الإسلامي، وكـان المسـجد الجـامع المعـروف بـ"الشرفاء " أو "الأشراف" الذي أسسه إدريس بن إدريس سنة 192 هـ بداية لإقامة جامع القرويين الذي اكتسب بدوره صبغة علمية وجامعية عالمية [1].

لقد تلقت مدينة فاس في عصر الادارسة، تـأثيرات علميـة وفكريـة وثقافيـة وحضارية مادية مزدوجة من بلاد الأندلس ومن القيروان، فالمدينة كانت تتـألف من عدوتين واحدة للأندلسيين وأخرى للقيروانيين، وكان أهل كـل مـن هـاتين العدوتين، فقلوا كثيراً من تراثهم العلمي والمعرفي إلى مستقرهم فـي فـاس ولا تخفى الأهمية التاريخية لكل من القيروان وقرطبة عاصمة بلاد الأندلس وبخاصة من الناحية العلمية والحضارية، فهما مركزان بارزان في سعة العلم والثقافة وإن " الوافدين من الأندلس، نزلوا بعدوة الأندلس والوافدين من القيروان سكنوا بعدوة القرويين، فغمرت العدوتان بالسكان بفضل هؤلاء الوافدين وتمدينت بهم " [2].

---

[1] لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام ق 3 ص 118 هامش رقم 2

[2] د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 496 (نقلا عن مؤرخ غرناطي مجهول من القرن الثامن الهجري [وهي مجموعة متفرقات تاريخية] تسمى الزهرة المنثورة في الأخبار المأثورة.

(4)

الأغالبة / حاضرتهم القيروان

يتجلى أثر الغالبة الثقافي والعلمي طوال مدة حكمهم لأفريقية وصقلية الـذي استغرق أكثر من القرن، فيا تركوا من بصمات واضـحة فـي الحركـة الثقافيـة والفكرية، فليس جديداً على هذه الأسرة المسـتنيرة، أن تـنهض بنشـر مبـادئ الحضارة أو أن تضع لها مفاهيم صحيحة. إن مؤسس إمارة الأغالبة إبراهيم بـن الأغلب بن سالم التيمي هو نفسه كان " فقيهاً وأديبـاً وشـارعاً وخطيبـاً ذا رأي ونجدة وبأس وحزم، وكان حافظاً للقرآن عالماً به " [1] كما كان ابنـه زيـادة الله 201 /23 هـ أكثر أهل بيته أدباً وأفصحهم لساناً وأوسعهم فهماً ومعرفة، حيـث اختار له أبوه " علماء العربية ورواة الشعر ليقوموا على تعليمـه " [2] أمـا أبـو العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد 289 – 290 هـ فقد " جـالس أهـل العلـم وشاورهم " [3].

غير أن أكبر مأثرة تركها الأغالبة في تاريخ الحضارة العربية والفكر الإسلامي هو فتحهم لجزيرة صقلية في عهد زيادة الله بن إبراهيم، بقيادة الفقيه القاضي أسد بن الفرات [4] فقد خرج معه أشراف أفريقية وفقهاؤها وعلماؤها من العرب والجنـد الأندلسيين وأهل العلم والبصائر " [5].

وتتبدى أهمية صقلية من الناحية العلَمية، إنها أصبحت مركزاً للحضـارة والعلـم ومصدرا لإشعاعات الثقافة الإسلامية، واحتلت شهرة واسعة في هذا المجال فـي العلم الإسلامي وذلك طوال الحكم العربي فيها وبعده بقرون عـدة حيـث أنجبـت جمهرة من العلماء والفقهاء والشعراء، ذاع صيتهم وانتشر أثرهم.

---

[1] ابن عذارى، البيان ج1 ص 92 – 93

[2] ابن الخطيب، أعمال ص 16 – 17

[3] ابن عذارى. م. ن ص 123

[4] وهو "مصنف الأسدية " في الفقه المالكي، وكان قاضيا للقيروان

[5] ابن عذارى م. ن. ص 103

ومن المفيد القول، أن عهد الأغالبة كان يتسم بإتاحة الحرية الفكرية والثقافية وانتحال البحث في المسائل المذهبية وقيام المساجلات والمناظرات والمجادلات حول مسائل العلم والفقه والأدب بين الفرق الإسلامية، فيشير ابن أبي دينار إلى أن أبا سعيد كنون الملقب "سراج القيروان" لعلو منزلته في الفقه والعلم الذي أستقضي على مدينة القيروان "منع أهل الأهواء من المسجد الجامع وكانوا قبل ذلك يجتمعون فيه ويتظاهرون بمذاهبهم مثل الإباضية والصفرية والمعتزلة، منعهم من الاجتماع " [1] ويبدو أن هؤلاء كانوا يشكلون تظاهرة علمية وفكرية في المناظرة والطرح والمحاجاة في المسائل الجدلية المتعلقة بالعقائد والشرائع والعلوم الدينية والعقلية، ومن المحتمل أن تنافسهم وتصارع آرائهم بحرية واسعة نجم عنه ظهور مواقف سياسية لهذه الطوائف والجاليات، وليس أدل على ذلك من أن يقرر قاضي القيروان منعهم من الاجتماع وتبديد حلقاتهم كما منعهم من مزاولة مهنة تعليم الصبيان وتأديبهم [2].

والحق إن القيروان خلال حكم الأغالبة أضحت من كبريات مدن العلم والثقافة ليس في المغرب، بل في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فقد استقطبت إليها العلماء والفقهاء والمدرسين، كما كان يفد إليها طلبة العلم من بغداد ودمشق ومصر ومن حواضر المغرب من تاهرت وكلماسة وفاس وقرطبة للتفقه والدرس والمناظرة على شيوخ الفقهاء وأصحاب الفرق، فيذكر النفوسي قيام بكر بن حماد التاهرتي بمجالسة علماء القيروان ومناظراتهم في أمور الدين والمذهب " [3] .

أما تونس، فقد لعبت هي الأخرى دورا كبيراً في ازدهار العلم والفقه والأدب وتركت أثرها الفكري في افريقية وبلاد المغرب، وقد وصفها البكري بقوله: " أنها دار علم وفقه ولي منها قضاء افريقية جماعة كثيرة "[4]ولعل هؤلاء الذين يشير

---

[1] المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ص 50

[2] د. محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي ص 99

[3] الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية ج 2 ص 71

[4] المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص 40

إليهم البكــري هم النخبة التي كانت تتولى مناصـــب لقضـــاء فـــي جميـــع افريقيـــة والمغــرب.

والظاهر أن الأغالبة كانوا يتشبهون بالعباسيين وخصوصاً فيما يتعلق بإيجـــاد المؤسسات العامة الثقافية منها والدينية فقد أسسوا مكتبة " بيت الحكمـــة " التـــي أشرف على قيامها وتجهيزها الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ســـنة 290 هــ وضمت مختلف الكتب والمجلدات والرسائل والتصـــانيف جلبــت مـــن بغـــداد والأندلس وقد أصبحت فيما بعد تشبه إلى حد كبير ما كان سائداً في بغداد في عهد الخليفة العباسي المأمون[1]، والى جانب مكتبة بيت الحكمة، توجد مكتبات عامـــة مماثلة في المدن الأخرى، كذلك أصبح مسجد القيروان الذي أسس سنة 50 هــــ وجامع الزيتونة سنة 114 هــ في تونس بمثابة جامعتين علميتين يختلف إليهـــا طلبة العلم طوال عهد الأغالبة وبعده فضلاً عن مسجد سوســـة ورباطهـــا اللـــذين أصبحا مدرستين لأصول المذهب المالكي.

---

[1] عثمان بن الكعاك، الحضارة العربية في حوض البحر الأبيض المتوسط ص 112

(5)

الفاطميون / حاضرتهم المهدية

تتميز الحركة الثقافية والفكرية التي أرسها الفاطميون في بلاد المغرب الإسلامي وفيما بعد في بلاد مصر، بالعمق والشمولية، فقد تعهدوها بمستلزمات النمو وأثروها باستيعاب علمائهم ونضجهم واهتمام خلفائهم بالانشغال بالعلوم والمعارف والفنون والآداب، فقربوا العلماء والفقهاء والقضاة والمحدثين والقراء والأدباء والشعراء وأصحاب المواهب والكفاءات من المؤرخين والأدباء والشعراء والمتصوفين، وصنفوا مئات الكتب في الحديث والعلوم والطب ونسخوها وأوجدوا مراكز العلم والثقافة في القيروان والمهدية ومن ثم في القاهرة والفسطاط وشدوا القصور التي أصبحت ميداناً لتجمع العلماء والفقهاء، يتنافسون ويتناظرون ويتطارحون في العلوم الدينية واللغة والشعر. أما المساجد فقد كانت بمثابة مراكز للعلماء والقضاة والوزراء يحاضرون الناس في العقائد والفقه، كما دأب الفاطميون على إقامة المكتبات التي كانت تحوي المصنفات من كتب اللغة والحديث والتاريخ والسير والفلك والكيمياء والطب، وكانت تنفرد باقتناء كتب لم يكن لها وجود في مكتبات قرطبة أو دمشق.

أما العلوم التي عُنى بها الفاطميون واشتغلوا فيها، فهي جميع العلوم الإسلامية أو الدينية التي أطلقوا عليها العلوم النقلية أو الشرعية مثل علم التفسير والقراءات والحديث والفقه وعلم الكلام وعلوم اللغة العربية مثل النحو واللغة والبيان والأدب وكذلك تناولوا العلوم العقلية والحكمية التي كانوا يطلقون عليها علوم الأوائل أو العلوم الدخيلة وتشمل الفلسفة والهندسة وعلم النجوم وعلم الفلك والموسيقى والرياضيات والعلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا.

ومن أبرز الفلاسفة في العهد الفاطمي في بلاد المغرب هو عبد الرحمن أبو حاتم الرازي الورسناني، وقد تأثر إلى حد كبير بمدارس الدعوة التي أسسها عبيد الله المهدي في بلاد المغرب، وكانت لأبي حاتم نظريات في المبادئ التي كان يؤمن

بها الفاطميون، كما أسهم في نشر الثقافة الإسلامية فتكلم في الفلسفة واللغة والتفسير والفقه ومن مؤلفاته كتاب " الزينة " تناول فيه الأمور الفقهية وفلسفة ما وراء الطبيعة وفيه معلومات عن الفرق الدينية وعن الجغرافية، وكتاب " أعلام النبوة " وهو من أهم الكتب الفلسفية، وقد توفي أبو حاتم الرزاي سنة 822 هـ[1] ومن الجدير بالذكر أنه على الرغم من البواعث السياسية والعسكرية لبناء الفاطميين مدينة المهدية فان دورها لم يقتصر على ذلك بل حرص الفاطميون ان تكون عاصمتهم الجديدة مركزاً من مراكز العلم ومجمعاً لعلمائهم وفقهائهم كما تميزت بالقصور والمنشآت والمساجد التي كان يتردد عليها طلبة العلم لأخذ الفقه وإتقان القرآن.

ولا شك في أن نشر مبادئ الفاطميين في بلاد المغرب بعد قيام دولتهم هناك استخدم تبصير المغاربة بفقهه وآرائه وعقائده فاتخذوا التفسير والتأويل وسيلة لهذا الغرض واعتماد الاستدلال العقلي في تفسير النصوص الدينية، كما أغدق الفاطميون الأموال على الشعراء الذين اتصلوا ببلاطهم فنجد المغالاة في شعرهم للإشادة بمجد الفاطميين وربما كان الفاطميون يفعلون ذلك لغرض استقطاب القبائل المغربية التي وقفت منهم موقفاً معادياً ولتثبيت دولتهم الفتية التي كانت تحتاج إلى التأييد والتعضيد.

---

[1] انظر للاستزادة عن دور أبي حاتم الرازي في الحركة العلمية والسياسية في الدولة الفاطمية في بلاد المغرب (د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص 467 – 469)

(6)

المرابطون / حاضرتهم مراكش

شهر عن المرابطين ومؤسسي دولتهم الأول، أنهم كانوا من المتفقهين والمتبحرين في العلم، فقد عرف عن يحيى بن إبراهيم الجدالي، ميله للعلم والفقه كما كان وجّاج بن زللو اللمطي، فقيهاً من أهل السوس الأقصى أخذ العلم وانقطع للعبادة والعلم وأسس مدرسة للمالكية في بلده في عهد دولة المرابطين وكثر عدد تلاميذه، أما عبد الله بن ياسين الجزولي، فقد هدى المرابطين إلى المتاجرة بالعلم والفقه في الدين، وكان يحثّ لمثونة وجداله على أخذ العلم وسرعان ما تجمعت حوله طائفة من التلاميذ أخذ يعلمهم القرآن والسنة وأحكام الدين.

وعلى الرغم من جفوة المرابطين وخشونتهم، فأنهم بدأوا يشجعون شعراء الأندلس وأدباءها وأهل العلم إلى الاختلاف الى بلاد المرابطين في المغرب فيذكر عبد الواحد المراكشي ما يشير الى اهتمام المرابطين بأهل العلم والكتاب وفرسان البلاغة، وهو يشبه بلاط المرابطين مجالس بني العباسي في بغداد في تشجيع العلماء والفقهاء والشعراء بقوله: " فأنقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار "[1] وكان ممن اختلف من البلغاء والأدباء واللغويين أبو بكر المعروف بابن القصيرة، وهو كاتب المعتمد بن عبّاد الذي أُسقطت إمارته بعد دخول المرابطين الأندلس والوزير عبد المجيد بن عبدون وأبو القاسم بن الجدّ المعروف بالأحدب وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرية وأبو عبد الله ابن أبي الحضال الذي كان يُعدّ من أنبههم وأكبرهم مكانة لديه، وهو أحدج

---

[1] تلخيص أخبار المغرب ص 163 – 164

من انتهى إليه علم الأدب وأخوه أبو مروان[1] وهكذا تبدل بلاط يوسف بن تاشفين من بلاط يتسم بالخشونة والبساطة إلى بلاط متألق متحضر[2].

أما الحركة الفكرية المرابطية في الأندلس، فلدينا معلومات مفيدة عنها، فقد احتفظت بكثير من مظاهرها العلمية والأدبية، وهي استمرار لما كان عليه الأمر خلال عهد الطوائف. وقد بذلت دولة المرابطين رعايتها لطائفة كبيرة من العلماء والأدباء الأندلسيين واستخدم بلاط مراكش والأمراء والحكام بالأندلس كثيراً منهم في مناصب الوزارة والكتابة، أسوة بما كان في عصر الطوائف، ولعل في مقدمة من ظهر من الكتّاب والأدباء في العهد المرابطي في الأندلس عبد الرحمن بن محمد أسباط المتوفى 487 هـ وخلفه في منصب الكتابة أعظم كتّاب الأندلس هو محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي الذي كان من كتّاب الدولة في عهد يوسف بن تاشفين كما ضم البلاط المرابطي عدة من أعلام الكتّاب وأئمة البلاغة منهم أبو بكر بن عبد العزيز البطليوسى كما لمع اسم الكاتب، الفتح بن خاقان الذى أشتهر بأسلوبه البليغ المسجع ومن كتبه " قلائد العقيان "و" مطمح الأنفس "ويحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى المعروف بابن الصيرفى وهو من أعلام العصر المرابطي في البلاغة والأدب والتاريخ ومن كتبه في تاريخ الأندلس " الأنوار الجلّية في أخبار الدولة المرابطية " وكتاب " قصص الأنبياء وسياسة الرؤساء "

ويعقد الدكتور محمد مجيد السيد، فصلاً مهماً عن " الحياة الفكرية في دولة المرابطين بالأندلس، فيقول: إن عهد المرابطين كان فترة نيّرة متحضرة لا تقل تقدماً وازدهاراً عن فترة الخلافة والطوائف [3] وعلى الرغم من تعصب المرابطين الديني، لم يعارضوا النشاط الأدبي والثقافي أن لم يشجعوه وان اغلب حكام المرابطين كانوا يستدعون أشخاصاً معينين للاستفادة من علومهم مغدقين عليهم

---

[1] عبد الواحد المراكشي، م. ن ص 173.

[2] د. السيد عبد العزيز سالم، م. ن ص 748 نقلا عن ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس ص 247.

[3] الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ص 80.

العطايا والنعم فقد استدعى علي بن يوسف بن تاشفين، الفيلسوف المتزهد، مالك بن وهيب من اشبيلية إلى حضرة مراكش وصيّره جليسه وأنيسه [1]. كما اهتم المرابطون بالكتّاب والبلغاء الأندلسيين للإعراب عن رغباتهم ومخاطباتهم مشجعين إياهم على الكتابة والتأليف، وكان لإبراهيم بن يوسف بن تاشفين، دور كبير في تشجيع الكتّاب والشعراء[2] وهكذا يمكننا القول أن الحركة العلمية والأدبية في عهد المرابطين سواء في المغرب الإسلامي أو الأندلس قد حافظت على تقدمها وازدهارها حتى بعد سقوط دولة المرابطين.

---

[1] م. ب ص 160

[2] م. ن. ص 61 " يذكر الفتح بن خاقان في صدر كتاب " قلائد العقيان " إنه أقدم على تأليف كتابه هذا مدفوعاً بتشجيع من إبراهيم بن يوسف، كما يذكر ابن خفاجة في مقدمة ديوانه " إنه انصرف منذ زمن بعيد عن نظم الشعر لولا الأمير إبراهيم وحثه على قوله ومعاناته "

الموحدون / حاضرتهم مراكش / واشبيلية

كانت دولة الموحدين، دولة حامية للعلوم والآداب والفنون، حيث كان مؤسسها محمد بن تومرت من أقطاب علماء عصره، فقد أفسح في دعوته للعلم وحضَّ على تحصيله بقوة وحماسة فقال: " العلم أعزّ ما يطلب وأفضل ما يكتب وأنفس ما يدّخر وأحسن ما يعمل ، وهو الذي جعله الله سبب الهداية الى كل خير وهو أعزّ المطالب وأفضل المكاسب وأنفس الذخائر وأحسن الأعمال " [1] كما كان عبد المؤمن بن على من ألمع علماء عصره ، التف حوله العلماء والكتاب والشعراء فبسط عليهم رعايته وغمرهم بصلاته. وكذلك كان يوسف بن عبد المؤمن بن على من أكابر علماء عصره، وكان أديباً متمكناً وفقيهاً ومحدثاً بارعاً شغف بالدراسات الفلسفية وقد جمع حوله طائفة من أعظم علماء العصر ومفريه وفي مقدمتهم أبو الوليد ابن رشد وأبو بكر ابن طفيل وأبو بكر بن عبد الملك بن زهر وهم من أساتذة الفلسفة والطب في هذا العصر، وكان ولده المنصور عالماً مستنيراً متمكناً من الحديث الشريف والفقيه واللغة، وكان بلاطه يضم العلماء و الأدباء و الشعراء و الأطباء و المهندسين والكتّاب والمؤرخين فيجزل لهم الصلات ويجرى لهم المرتبات العالية المنتظمة [2].

وعلى الرغم من تردي الأوضاع السياسية لدولة الموحدين في أواخر أيامها، فإننا نجد أمراءها لا يبتعدون عن أهل العلم والأدب والثقافة حتى لقد أصبحت النزعة العلمَية هي الغالبة في البلاط الموحدي سواء في مراكش أو في اشبيلية، فقد جرى خلفاء الموحدين على سياسة إطلاق حرية البحث والتفكير والرأي باندفاع كبير إذا ما قورن بما كانت عليه دولة المرابطين.

---

[1] محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ص 645

[2] المصدر نفسه ص 646

ويمكن أن نستفيد من الفصل الذي عقده الأستاذ محمد عبد الله عنان عن الحركة الفكرية والعلمية خلال عصر الموحدين، حيث يورد لنا أسماء جمهرة من العلماء والفقهاء والمفكرين والشعراء و الأدباء، ممن كانوا يختلفون إلى بلاط الموحدين أو كانوا يعيشون في كنفهم وممن تلقوا منهم الرعاية والصلات سواء من أهل المغرب أو من الأندلسيين، ويمكن أن نلاحظ تأثيراتهم العلمية والثقافية في المغرب أو الأندلس حيث كانت تستهوي علماء المغاربة الحياة في مدن الأندلس أو أن علماء الأندلس كانوا يختلفون إلى مجالس الموحدين في مراكش[1].

كما أتخذ الموحدين مجالس العلم، يحضرها الأمراء والعلماء، وكان لها نظام خاص، إذ يتصدر الأمير المجلس ثم خطيب الجماعة ثم قاضي الجماعة بمراكش، فرئيس الأطباء فأكبر علماء الحضرة فباقي الأعلام الحاضرين على اختلاف مراتبهم، ثم تبدأ المناقشة والمناظرة حول مسألة علمية يلقيها الأمير أو أحد العلماء وتناقش ثم تختم الجلسة.

---

[1] للاستزادة والإطلاع انظر: محمد عبدالله عنان، عصر المرابطين والموحدين ج 2 ص 649 – 680

بنو مرين / حاضرتهم مراكش أو فاس

لا شك فى ان عهد بنى مرين يعد استمراراً لما كان عليــه عهــد الموحــدين وبخاصة فى الجوانب الحضارية والأحوال الفكرية والثقافية والعلمية منذ ظهر عدد من العلماء والمنكرين فى مدينة فاس وفى مراكش أو فى المدن والمراكز الأخرى التى أتيح لهم ان يبسطوا سيطرتهم ونفوذهم عليها ومعروف ان بعض من تــولى أمر الدولة المرينية كان من الفقهاء المتبحرين فى العلم، فقد عــرف عــن أبــى يوسف يعقوب انه كان من متقني العلوم الدينية وعارفاً بالحديث [1].

ومن الفقهاء والذين نسمع عنهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن مرزوق الــذى ولاه الأمير أبو الحسن المريني أعمالاً سلطانية عدة [2] وأرسله فى سفارات لتميزه فى العلم والمعرفة، وأبو القاسم محمد بن جزى الذى كان أحد شيوخ الوزير لسان الدين بن الخطيب كما كان "فقيهاً حافظاً قائماً على التدريس مشاركاً فى علوم عدة عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث، مستوعباً للأقوال، جماعــة للكتــب حسن المجلس، ممتع المحاضرة " [3].

---

[1] ابن أبى زرع، الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ص 59.

[2] المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج5 ص 413.

[3] المصدر نفسه ص 414.

الفصل الثالث عشر

النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية

1- بنو مدرار: الإمارة المدرارية.
2- بنو رستم: الإمارة الرستمية.
3- الأدارسة: إمارة الادارسة.
4- الأغالبة: إمارة الأغالبة.
5- الدولة الفاطمية.
6- دولة المرابطين.
7- دولة الموحدين.
8- إمارة بنى مرين.

الفصل الثالث عشر

النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية

(1)بنو مدرار / الإمارة المدرارية:

قامت إماراتهم على مبدأ الخوارج الذى يبيح لكل فرد فى الدولة الإسلامية ان يحكم إذا توفرت فيه شروط وصفوها طبقاً لمبدئهم، ولكنهم أخذوا بنظام الوراثة فى الحكم بعد قيام إمارتهم وقد اتخذ حكم بنى مدرار الاستقلال عن النفوذ العباسي فى بداية عهودهم ولكنهم دخلوا فى تبعية الخلافة حتى وصفهم احد المؤرخين بانهم مجرد أعمال للعباسيين[1].

حكم الإمارة ستة عشر أميراً تراوحت سلطتهم بين القوة والضعف وفى عهد الأمراء الأواخر ضعفت السلطة السياسية فى الإمارة نتيجة للصراع بين أسرة بنى مدرار وتدبير المؤامرات بعضهم للآخر، وربما كان ذلك بسبب الانحياز الى مبدأ أهل السنة والتخلي عن مبادئ الخوارج التقليدية.

ومن الجدير بالذكر ان امارة المدرارين، تشكل فى أساسها تجميعاً للخوارج فى مناطق المغرب الأقصى يغلب عليه الطابع الديني المذهبي لذلك اصبحت مدينة سجلماسة بوتقة لتجمع عناصر مختلفة من قبائل المغرب وخاصة بطون قبائل مكناسة وصنهاجة اللثام من مسوفة ولمتونة وزويلة وكذلك جماعات من بلاد السودان وبعض الاندلسيين واليهود، وقد ساهم هؤلاء جميعاً فى عمران المدينة وازدهارها وظهورها كمركز اجتماعي، ولا ريب فى ان هجرة القبائل الى سجلماسة واختلاطها بجماعات السودان والاندلسيين المتحضرين نسبياً ترك أثراً فى أحوالها واستقرارها وأحدث تغيرات ملموسة فى عاداتها وتقاليدها وأساليب حياتها فترك معظمها حرفة الرعى واتجه نحو الزراعة والصناعة والتجارة ويبدو ان هذا النشاط خلق حافزاً للتطورات الاجتماعية وأوجد موازين جديدة للقوى الاجتماعية داخل المدينة مما أدى الى اتساعها وازدياد عمرانها شيئاً فشيئاً ويظهر

---

[1] د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 94.

بصورة خاصة ان استقرار الصفات الاجتماعية التى نزحت إليها من المشرق وخصوصاً من بغداد ودمشق ومصر نقل الى سكان المدينة طباع سكان المدن الكبرى المزدهرة وحقهم على ممارسة حياة الترف والرفاهية ويشير ابن الخطيب الى ان أمير سجلماسة اليسع بن أبى القاسم 508/174هـ "بنى سور المدينة وقسم داخل السور على القبائل "[1] فازدهرت المدينة وأصبحت حاضرة لبنى مدرار[2] وأحس ابن حوقل بمنزلة أهل سجلماسة ورفاهيتهم بقوله "سجلماسة مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال للمروءة وسماحة ورجاحة "[3] أما البكرى فيتحدث عن غنى أهلها وكثرة أموالهم[4] ويصفها المقدسى فى القرن الرابع الهجرى قائلا: "سجلماسة قصبة جليلة وأهلها قوم جياد بها علماء وعقلاء "[5].

ولما كانت مدينة سجلماسة مدينة تجارية فلابد ان يظهر فيها النفوذ الإجتماعى للفئات التى تدير النشاط التجاري لذلك تبدو مظاهر الترف والثراء واضحة وبخاصة فى عهد بنى مدرار حيث بلغت أوج تقدمها الإجتماعى متمثلاً فى مبانيها وفنها المعماري وتقدمها العلمي وتتركز فى سجلماسة كما فى غيرها من مراكز الحضارة فى العالم الاسلامي خلال هذه الفترة مظاهر الحضارة.

---

[1] أعمال الأعلام ص 143 .

[2] اليعقوبى، كتاب البلدان ص 359.

[3] صورة الأرض ص 90.

[4] المغرب ص 148.

[5] احسن التقاسيم ص 65.

ومعالم الترف الإجتماعى[1] مثل الحمامات والقصور والمنشآت ودور العلم[2] وكذلك بروز العلاقات الاجتماعية الجديدة داخل الأسرة أو بين العناصر والفئات التى كان يمثلها التجار والمسافرون المسلمون الذين وفدوا إليها من المدن الإسلامية الشهيرة فى المشرق الإسلامي مثل البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والسكان الأصليين على اختلاف قبائلهم ونحلهم أو بينهم وبين الأقليات من الأديان وخاصة اليهود الذين سيطروا على الحياة الاقتصادية بسبب استحواذهم على تجارة الذهب [3] .

غير أن أغلب القبائل المنضوية داخل حدود إمارة المدرارين جذبهم الاهتمام بالأنشطة الاقتصادية وبخاصة الزراعة حيث تقوم على المياه التى يوفرها نهر ملوية الذى تقع على منحنياته مدينة سجلماسة حيث يحول هذا النهر المناطق التى تحيط بالمدينة الى سهول فيضيية صالحة للإنبات الزراعى فكانوا يكثرون من الأراضى الزراعية وتوسيع رقعتها بحفر الخلجان وشق القنوات مما يساعد على الاستكثار من الغروس وخاصة النخيل[4] كما احتفروا الأحواض واختزنوا فيها

---

[1] وذلك بالقياس الى حياة القبائل الرحل فى البوادي الصحراوية وبراري سجلماسة واودغست ونواحي لمطة وفزان، ففيها مياه عليها قبائل مهملين لا يعرفون الطعام ولا ترد الحفطة ولا الشعير ولا شيئا من الحبوب والغالب عليهم السقاء والانتشاح بالكساء وقوام حياتهم بـالـلبن واللحم فيذكر الحميرى ان السجلماسيين واغلبهم من القبائل التى هاجرت الى المدينة اكتسبوا كثيرا من المهارات فى الآداب العامة ومنها مهارة الطبخ تعلموها من السودانيات الماهرات فى عمل الأطعمة ولاسيما أصناف الحلاويات مثل الجوزنيات واللوزنيجات والقاهرات والكنافات والقطائف والمشهيات (الروض المعطار فى خبر الأقطار ص 64).

[2] ابن حوقل، المصدر السابق ص 84.

[3] يشير صاحب الكتاب الإستبصار فى عجائب الأمصار الى ان سكان سجلماسة نقموا على اليهود بسبب سيطرتهم على الاقتصاد واستعدوا عليهم داعية الفاطميين أبى عبد الله للانتقام منهم حيث أمر هذا الأخير بقتل أغنيائهم واخذ أموالهم وفرض عليهم امتهان احدى حرفتي: الكنافة أو البناء وكانت هاتان الحرفتان من الحرف الرذيلة لكنهم ما لبثوا ان عادوا الى مزاولة دورهم فى الحياة الاقتصادية (مجهول ص202).

[4] ابن الخطيب، المصدر السابق ص 139.

المياه لري مزارعهم ولشربهم وأغراضهم الأخرى[1] وبذلك اصبحت منطقة سجلماسة عبارة عن واحة مغمورة بالبساتين والغروس ومقسمة الى أحواض تملؤها مياه وادى نهر ملوية بفرعيه الشرقى والغربى.

ويلقى ابن حوقل ضوءاً مفيداً على طبيعة النشاط الزراعى والمواسم الزراعية فى المناطق التى تدخل تحت نفوذ المدرارين ويقارنها مع الزراعة فى مصر التى كانت تتم بالارواء من ضفتي نهر النيل فيشبه نهر ملوية بنهر النيل لما يزيد فى الصيف فيتم الزرع حسب زرع مصر وكانوا يزرعون سنة ويتركون الأرض فى السنة التالية كما ان بعض الأراضى تغدق بالمياه فيتم استصلاحها فتزرع لمدة سبع سنين متوالية [2] .

ولعل من أهم منتجاتهم الزراعية، الأعناب والزبيب الظلى[3] والتمور التى كانت على أنواع حيث بلغت ستة عشر صنفا يذكر ياقوت منها: "العجوة والدقل ويقول أن أكثر أقوات أهل سجلماسة من التمر " [4] . كما ان لهم رطباً أخضراً مثل السلق فى غاية الحلاوة " [5] كما زرعوا القمح والشعير وعرفت لديهم أنواع من الحبوب ليست قمحاً ولا شعيراً صلب المكسر لذيذ المطعم وخلقه بين القمح والشعير[6] ويسمى البكرى هذا النوع من الحبوب (الصيني)[7] والى جانب غرس الأشجار وزراعة الحبوب ظهر اهتمامهم بزراعة القطن والكمون والكرويا والحناء[8] وأنواع من الخضر والثمار والرمان وجميع الفواكه والمحاصيل بحسب فصول

---

[1] البكرى، المغرب ص 148 ثم انظر كتاب الإستبصار ص 201 يقول: " ولهم مزارع كثيرة يسقونها من النهر فى حياض كحياض البساتين ".

[2] صورة الأرض ص 90.

[3] البكرى، م. ن. ص 148.

[4] معجم البلدان ج3 ص 162.

[5] ابن حوقل، المصدر السابق ص 90.

[6] م. ن. ص 90.

[7] المغرب ص 151.

[8] الأدريسى، صفة المغرب وارض السودان (قطعة من كتاب نزهة المشتاق) ص 98.

السنة كما اعتنوا بتربية الماشية والأغنام والأبقار فكانوا "يبيحون البلاد للمراعي والزرع والمياه لورود الإبل والماشية "[1].

أما فى مجال الصناعة فان بعض من السكان لا يعدمون الاشتغال ببعض الصناعات اليدوية، مثل صناعة النسيج التى كانت تعتمد على القطن الذى ينتج محلياً وعلى الصوف الذى يصفه البكرى بانه من أجود الأصناف ويعمل منه بسجلماسة ثياب يبلغ الثوب منها بأكثر من عشرين مثقالاً [2] لذلك اشتهر اللباس السلجماسى فى بلدان المغرب والمشرق والأندلس[3] ويفيدنا ياقوت بما ذكره عن مهارة النساء السجلماسيات فى صناعة النسيج وتفوقهن فى صناعة الأرز فقال: (ان لنسائهم يد صناع فى غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الارز تفوق الأرز القصبية التى بمصر يبلغ ثمن الازار خمسة وثلاثون ديناراً وأكثر كأرفع ما يكون من القصب الذى بمصر ويعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغونها بأنواع الأصباغ " [4] .

وهناك حرف تتعلق بالبناء مثل الحدادة والنجارة وصناعة السكر وتكرير الملح[5] وصناعة الأحذية [6] الى جانب صناعة الأوانى الخشبية من شجر يعرف (تامجاثت)* وهو اسم المنطقة التى كان يؤخذ منها وصناعة المصوغات الذهبية والعضية والحلي يقوم بها صاغة مهرة فى مدينة سجلماسة اغلبهم من أهل

---

[1] ابن حوقل، م. ن. ص 100

[2] المغرب ص 147.

[3] وهذا اللباس يشبه اللباس الدرجينى فى ثوبه ولونه ولكنه يفوقه جودة (انظر د. الحبيب الجنحانى، المغرب الإسلامى ص 174).

[4] معجم البلدان ص 192.

[5] القلقشندى يصبح الأعشى فى صناعة الانشا ج5 ص 164.

[6] الشماض، السير ص 248.

* يصفه البكرى (شجر يعظم ورقة هدب كورق الطرفاء ويصنع منه آنية سجلماسة ودرعه) ص 156.

الذمة[7] ،وكانت معادن الذهب والفضة تستخرج من المناجم والمحاجر فى منطقة درعة [1] أو من الذهب المستورد من بلاد السودان[2] كما يوجد معدن الفضة بجبل مجاور لمدينة سجلماسة، ويؤكد البكرى أنها بلاد مشهورة بالذهب[3] كما يؤكد الأصطخرى أنها بلاد قريبة من معدن الذهب بينها وبين ارض السودان وارض زويلة ويقال انه لا يعرف بلداً للذهب أوسع ذهباً ولا أصفى منه[4].

وفى التجارة تحتل امارة بنى مدرار مكانة مرموقة بين إمارات ودول المنطقة بسبب نشاطها الذى كان يتركز فى مدينة سجلماسة التى اصبحت على حد قول الدكتور الحبيب الجنحانى مركزاً تجارياً عالمياً فى تلك الفترة، ويعزى ذلك الى تجمع الثروة فيها ولاسيما الذهب الذى أتاح لهم مزاولة التجارة على نطاق واسع فأصبح أهلها من أغنى الناس وأكثرهم مالاً [5]. وكان الاتجار بالذهب يحتل المنزلة الأولى بين تجارات المدراريين ويفهم مما جاء عند البكرى[6] وياقوت[7] ان حصول السجلماسيين على الذهب تبدو أهميته دون البضائع والتجارات الأخرى حتى أصبح هذا المعدن عند سكان المدينة "جزاف عدد بلا وزن".

ولا غرو، فان النشاط التجاري يتمثل بجميع البضائع التى كانت تحملها القوافل التجارية سواء المتجهة الى سجلماسة أو المنطقة فهى ولعل أهم السلع التى كانت تصدرها هذه المدينة الى بلاد السودان وغانة والتكرور ومدينة واودغست هى

---

[7] (واغلبهم من اليهود أو الاندلسيين والفرس والمشارقة) د. الحبيب الجنحانى ، المصدر السابق ص 175 .

[1] ابن الفقيه الهمدانى، مختصر كتاب البلدان ص 80.

[2] د. الحبيب الجنحانى، المصدر السابق ص 175.

[3] المغرب، المصدر السابق ص 151.

[4] مالك الممالك ص 34.

[5] المغرب الإسلامى ص 176.

[6] المغرب ص 157.

[7] معجم البلدان ص 151.

القمح والتمور والزبيب والثمار المجففة والمنسوجات القطنية والصوفية والنحاس المصنع والاحجار الكريمة والخرز والملح والحناء والماشية [1]. أما وارداتها من اودغست فهي أشجار الصمغ ومن السودان الذهب والرقيق[2] وفي نطاق التجـارة الخارجية فيستورد التجار السجلماسيون الفستق من مدينة قنصه ويحملون السكر والكمون والكراوية والأحذية الى القيروان [3] .

وتبادل تجار بنى مدرار مع بلاد الأندلس، السلع والمتاجر، فكـان المـدراريون يصدرون القمح والسكر والكروم والتمور فى مقابل الثياب والمطـرزات القطنيـة والكتانية والحريرية التى اشتهرت بها قرطبة [4]، ونتيجة لتطور صناعة النسـيج القطني فى سجلماسة فقد استوردت القطن الاشبيلى الخام الشهير فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، فيشير الحميرى الى ما يفيد بجودة القطن فى اشبيلية وتجهيـزه إلى سجلماسة[5] كما انه نتيجة لهذا التبادل التجاري، ان توطدت العلاقـات بـين الطرفين وقدمت التسهيلات للتجار الاندلسيين المدرارين فى جلب السلع التى كـان يروق لهم المتاجرة فيها .

ويبدو أن امارة بنى مدرار عقدت أوثق الصلات ببلاد التكرور وغانة التى كانـت تعرف ببلاد السودان الغربـي واحتلت العلاقـات التجارية مكانة متميزة وأصبحت سجلماسة مركز الاتصال بين بلاد المغـرب الإسلامـى وبين بلاد السودان حيـث تتجمع القوافل فى مدينـة درعة عند خروجها من إمـارة بنـى مدرار، وعرفت " أيو الأتى " بأنها أولى المـراكز السودانـية التى كانت تنزلها هذه القوافل[6].

---

[1] البكرى، المصدر نفسه ص 158-159، الأدريسى، نزهة المشتاق ص 60.

[2] البكرى، المصدر نفسه ص 159.

[3] د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 208.

[4] د. محمود اسماعيل، الم صدر السابق ص 209.

[5] الروض المعطار ص 59.

[6] د. محمود اسماعيل، م. ن. ص210.

ويسلك التجار القادمون الى الإمارة المدرارية أو الخارجون منها مع قوافلهم طرقاً برية وبحرية ولعل أهمها طريق تربط سجلماسة بمدينة وجدة، تبدأ من هذه الأخيرة الى مدينة صاغ ومنها الى تافلييت ثم الى جبل بنى يرنييان وقير ومنه الى مدينة الاحساء ثم الى مسلي منتهياً بسجلماسة[1]، وكانت هذه الطريق تتصل بطريق أخرى فى موضع معين من المشرق الإسلامى مبتدئة من بغداد والبصرة مارة بالانبار وهيث والرقة وحران والرها وتل موزن وحلب ودمشق وطبرية والرملة والفسطاط والإسكندرية ومنها برقة ثم الى طرابلس ثم تصل الى تاهرت عاصمة الرستمين ومنها الى سجلماسة والطريق الثانية التى تربط امارة المدراريين مع الإمارة الرستمية مبتدئة من سجلماسة ومنتهية بورجلان[2] والثالثة بإمارة الادارسة من مدينة فاس الى سجلماسة أما الطرق البحرية فهى التى تنتهى عند موانى المدراريين على ساحل الأطلنطى مبتدئة من موانئ الأندلس مثل اشبيلية وشاطبة . وكان ميناء بحريت من الموانئ الشهيرة التى دأبت على تصدير البضاعة الى سجلماسة وتابحريت مدينة مسورة على ساحل البحر وهى محط للسفن ومقصد لقوافل سجلماسة[3] .

وتحدثت المصادر عن العملة السجلماسية وأهميتها فى محيط التداول حيث اقتنى أمراء الأندلس منها كثيرا واتخذوها وسيلة للتبادل وربما كان ذلك بسبب محافظتها على قيمتها النقدية أو لأنها ضربت من الذهب الإبريز الذى كان يفضله الاندلسيون لذلك اصبحت حركة التبادل التجاري فى امارة بنى مدرار تتم بمقايضة الذهب وبخاصة فى عهد الأمير الشاكر لله[4] حيث ضرب السكة باسمه ولقبه وكانت تسمى "الدراهم الشاكرية " [5] وهى عملة طيبة للغاية [6] وان العملة التى ضربها

---

[1] البكرى، المصدر السابق ص 80.
[2] البكرى، المصدر السابق ص 77.
[3] م. ن. ص87.
[4] ابن خلدون، العبر ج 6 ص 131 السلاوى، الاستقصا ج1 ص 113.
[5] م. ن. ص 270.
[6] السلاوى، م. ن ص 119 "يوجد هناك صورة لدينا ضرب فى عهد الشاكر بالله : الكتاب دائرية الوجه الأول : بسم الله ضرب هذا الدينار سنة ستون وثلاثين وثلاثمائة (363)-محمد رسول الله- الإمام الشاكر لله أما الوجه الآخر فغير واضح ونصعب قراءته وهناك شكوك تحوم حوله ونجد دينارا آخر ضرب سنة 345هـ الوجه الأول : عبد الله - لا اله الا الله وحده لا شريك له والوجه الاخر - محمد رسول الله - الإمام - الشاكر لله -بسم الله ضرب هذا الدينار سنة خمس وأربعين وثلاثمائة(انظر د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 304) .

سنة 336هـ كان لها وزنها 19 غم وقطرها 39ملم والتى ضربها سنة 340 هـ وزنها 21غم وقطرها 40.10 ملم[1] .

(2) بنو رستم / الإمارة الرستمية:

إمارة مستقلة استقلالاً تاماً عن سطوة العباسيين ونفوذهم وكان ينبغي ان تكون "الإمامة" (السلطة) فيها متداولة تطبيقاً لمبادئ الخوارج فى موضوع الخلافة الإسلامية ولكنهم انتهجوا النظام الوراثى فى الحكم وأوجدوا ما أطلقوا عليه "مجلس الشورى" أو "مجلس المستشارين" ويكون الإمام مسئول أمامه عن تنفيذ ما ينص عليه مبدأ الشورى الذى اتخذه الخوارج الإباضيون وكان هذا المجلس يتألف من (الشراة) الخوارج وشيوخ المذهب وزعماء القبائل ووجوهها ويتكون من سبعة من رجال الإمارة وصفوا بانهم أصحاب الصلاح والزهد والعلم وكانت سياسة عبد الرحمن بن رستم مؤسس الإمارة تقوم على إرساء نظمها وإدارتها وذلك بإيجاد القوانين والرسوم التى تحكم مسيرتها كما التزم بسياسة المهاونة مع القوى الخارجية ووضع هدفاً لتحقيق المصاهرات السياسية مخالف بنى مدرار وهم إخوانه فى المذهب بمصاهرة احد أمرائها وهو اليسع بن أبى القاسم.

والظاهر ان سياسات الأمراء الأوائل قد أثمرت فى تقوية الإمارة وجعلتها تتقدم فى خطوات ملموسة فأصبحت مثابة لأهل المغرب والمشرق واستحدثت القوانين التى تنظم الاحوال الاقتصادية والعلمية والفنية والاجتماعية فى الإمارة وذلك لجميع السكان والطوائف الإسلامية التى هاجرت واستوطنت فيها.

لقد تمخض قيام امارة الرستميين وتأسيس مدينة تاهرت حاضرة لها عن تحولات اجتماعية ملموسة فى حياة السكان وبخاصة منطقة المغرب الأوسط فقد ترتب عليه الانتقال من حياة البداوة والترحال والرعي الى حياة الحضارة والاستقرار حيث ظهرت المعالم الحضارية المتمثلة بمخلفاتهم المادية مثل دور الإمارة والقصور والمباني والضياع والمنشآت العامة مثل الفنادق والحمامات

---

[1] Lavoio x, M. H. Cataloque des nmonnaies Muslu-Mane de la Bibloitheque Natiamale "Lspagne et Atrique" Paris-1891, P 402.

والمساجد ومراكز العبادة والتصوف فكان عهد افلح بن عبد الوهاب من العهـود الزاهرة الذى "شمخ فى ملكه وابتنى القصور واتخذ لها أبواباً من الحديد وتنـافس الفاس فى البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع واجروا الأنهار إليهـا "[1] وكان الرستميون قد تأثروا ببناء منشآتهم وقصورهم بالتقاليد المعمارية العراقيـة والسورية فقد كان نظام البناء فيها أشبه بالقصور التى شيدها الخلفاء الأمويـون فى بلاد الشام[2].

إن القبائل التى ناصرت الرستميين وبخاصة لماية ولواته وهـواره وزواغـه ومطماطة وزناته ومكناسه قد استقرت فى مدينة تاهرت وضـواحيها أمـا قبائـل مزاته وسدداته فكانت تنتجع من مواطنها فى مواسم معينة باتجاه المدينة لإصابة الماء والكلأ كما فضلت قبيلة نفوسه البقاء فى المنطقة الجبليـة قـرب طـرابلس وعلى أية حال فان ما ينتقل من جميع هذه القبائل المنتجعة الى تـاهرت يصـبح جزءاً من سكانها ويتحول الى الحياة الحضرية.

وبمرور الزمن ظهر فى مدينة تاهرت خليط سكاني غير متجانس وتعقيدات فى طبيعة العلاقات بين سكان المدينة المتحضرين بمظاهر الترف والبذخ وبين القبائل الظاعنة أمام ابوابها حيث احتفظت بطبيعتها القبلية[3]. وتاهرت مثل غيرهـا مـن المدن الإسلامية المعاصرة لها برزت فيها طبقة جديدة من السكان حـازت علـى الثراء والعقارات[4]وعلى النفوذ والامتيازات فى الإمارة والحكومة[5]
إن هذه الطبقة الاجتماعية كانت تسمى لضمان مصالحها وديمومتها وكان عليهـا ان تتطلع الى السلطة وتنتزع لها صلاحيات داخلها وتعمل على تكـريس نفوذهـا

---

[1] ابن الصغير المالكى، أخبار الأئمة الرستميين ص 26، النفوس، الأزهار الرياضية ص 42.

[2] لم يتبق من هذه المنشآت شئ يذكر حيث تخرجت عمائرها وأصبحت أطلالا وان الاستنتاجات تقوم على المصادر التاريخية بهذا الخصوص.

[3] د. الحبيب الجنحانى، المغرب الإسلامى ص 113.

[4] يمكن ان نطلق على هذه الطبقة "الأرستقراطية" كما هو الحال بالنسبة للمدن الإسلامية الأخرى فى حقبة العصور الوسطى.

[5] ابن الصغير المالكى، أخبار الأئمة الرستميين ص 26-31.

وكان لهذا أثره الواضح فى نشوب الثورات والانتفاضات وحدوث دوامة من الفوضى السياسية ومزيد من الصراع المصحوب بالمؤامرات داخل سلطة الإمارة.

وكان الانصراف الى الحياة الاقتصادية قد ترتب عليه قيام حركة التطور الإجتماعى فادى الى حياة مترفة وباذخة وتحولت مدن غدامس وورجلان وودان وزويلة من مجرد قرى صغيرة مغمورة على حافة الصحراء الى منافذ وثغور داخلية آهلة بالحركة والنشاط كما غدت مراكز حضارية تزدان بالعلم والثقافة والسياسة والفن [1].

ولدينا بعض المعلومات عن التحولات الاجتماعية التى أصابت الرستميين فى مضمار الحضارة وعن تشبههم بالمشارقة فى امتلاك القصور والضياع والمنازل والحصون واقتناء الجواري والغلمان والعبيد والحشم والانصراف الى حياة الترف والولع بالفنون والآداب وإقامة الأسمطة والمآكل للاطعام فى أيام الأعياد ونصب الاحتفالات والمهرجانات التى كانت تحضرها الوفود من العامة والأجناد أو من الخاصة والأمراء ورجال الجيش والبلاط أو من وفود الدول والإمارات الأخرى وسفاراتهم [2].

ومن التطورات التى شهدها المجتمع الرستمي ظهور المرأة على مسرح الأحداث السياسية والاجتماعية فقد كان لبعضهن دور فى الحركة والدعوة الاباضية[3] كما أسهم بعضهن الآخر فى الحياة الفكرية والثقافية حيث كن يحضرن الدروس والمناظرات التى كانت فى المساجد[4] ومن النساء اللاتي برزن فى السياسة "غزالة" أم شبيب بن يزيد الشيبانى و"غزال" زوجة أبى اليقظان محمد بن

---

[1] د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 217.

[2] النفوسي، الأزهار الرياضية ص11، 25، 48، ابن الصغير المالكى أخبار الأئمة الرستميين ص 31،34،49،52 .

[3] الشماخى، السير ص 193.

[4] لقد كان فى كل مسجد قسم خاص للنساء يفصله عن قسم الرجال جدار مخرم يستر النساء ولا يحجب عنهن صوت المدرس.

أبى اليقظان التى أرغمت زوجها على تقليد ابنها يوسف ولاية العهد و "دوسر" ابنة يوسف بن محمد بن أبى اليقظان التى كان لها دور معروف فى الأحداث التى أودت بالإمارة الرستمية[1]. أما من برزن فى علم الفلك والنجوم فمنهن أخت عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم حيث نافست أخيها افلح فى تتبعه واهتمامه بهذا العلم[2] .

وتقترن التطورات الاجتماعية فى امارة الرستميين بالتحولات الاقتصادية التى شهدتها والزراعة تأتى فى مقدمة الاهتمامات التى انصرف الناس إليها حيث شهدت ازدهاراً ملحوظاً ولعل أوضح صورة للنشاط الزراعى ما يذكره الأصطخرى بقوله: "ان مدينة تاهرت كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه[3] " وكذلك ما أشار إليه المقدسى وهو من أهل القرن الرابع الهجرى ومعاصر للرستميين قوله:"ان تاهرت عاصمة الرستميين قد أحدق بها الأنهار والتفت بها الأشجار وغابت فى البساتين ونبعت حولها الأعين " [4] ويؤكد معاصره ابن حوقل أن أهل تاهرت "لهم مياه كثيرة تدخل على أكثر دورهم وأشجار وبساتين وهى احدى معادن الدواب والماشية والغنم والبغال ويكثر عندهم العسل والسمن[5] " والظاهر أن الاهتمام بالزراعة استمر حتى بعد زوال امارة بنى رستم فيذكر البكرى فى القرن الخامس الهجرى " إن تاهرت تقع فى سفح جبل على نهر يسمى (مينه) ونهر آخر يجرى على عيون تجتمع يسمى (تاتش) ومنه شرب أهلها وارضها وفيها جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسناً وطعماً ومشماً "[6] أما

---

[1] انظر للاستزادة: د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 218، محمد على دبوز المغرب الكبير ج3 ص 109.

[2] الشماخى، السير ص 193.

[3] المسالك والممالك ص 34.

[4] احسن التقاسيم ص 228.

[5] صورة الأرض ص 86.

[6] المغرب ص 66-67.

صاحب كتاب الإستبصار فيؤكد المعلومات التى جاءت عند البكرى "ان تاهرت فى منطقة بساتين كثيرة فيها جميع الثمار"[1] كما يتحدث عن قلعة هوارة بضواحي تاهرت أنها قلعة منيعة فى جبل خصيب فيه بساتين وثمار وأشجار ومزارع وأعناب"[2].

أما المناطق الزراعية، فاهمها منطقة الجانب الغربي والشمالي من الإمارة وتشتهر بزراعة الحبوب ومنطقة الجانب الشرقى وهى بلاد نفوسة وتمتاز بالكروم والأعناب والتين والحبوب ومنطقة جرية الشهيرة ببساتين الزيتون والنخيل والكروم ومنطقة الجنوب وهى موطن النخيل ومنطقة الواحات ومنطقة وارجلان الكثيرة الزرع والضرع من الحبوب والنخيل ومنطقة بلاد الجريد وهى قسطيلية ونفطة تنتج التمور والحبوب والحنطة والشعير[3] ويستفاد من إشارة النفوسي وهو مؤرخ مطلع نقل معلوماته عن الرستميين من مصادر معتمدة ان الرستميين اختاروا موقع عاصمتهم فى مكان "جيد الهواء كثير المياه خصب الأرض " [4] والظاهر انهم أفادوا من هذه المياه اذ شقوا القنوات فزرعوا الكتان والسمسم وسائر الحبوب وغرسوا الأشجار وأقاموا البساتين[5] .

والى جانب الزراعة فى امارة الرستميين ظهر الاهتمام بالصناعة التى كانت تقوم خبرة الصناع والمهرة وأصحاب الحرف من الأمصار والأقطار الذين استوطنوا تاهرت والمدن الأخرى فبرزت صناعة المنسوجات الصوفية والكتانية والقطنية والحريرية والزرابى المزركشة وصناعة القوارير الزجاجية والاوانى الخزفية البراقة والملونة والحلي الذهبية والفضية واوانى النحاس الأحمر والأصفر المنقوش والخشب المحفور والمموه والمرصع بالعاج أو الصدف والمصنوعات

---

[1] مجهول ص 176.

[2] م . ن. ص 178-179.

[3] بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية (رسالة ماجستير لم تطبع بعد) الورقة 150 .

[4] الأزهار الرياضية ص 134.

[5] البكرى، المصدر السابق ص 68.

الحديدية بأنواعها مثل الأسلحة والأقفال والاوانى والتحف المعدنية وصناعة الافاوية والعطور والأدوية المركبة والعقاقير الطبية وأنواع الصبغة ذات الألوان الزاهية[1] وصناعة ضرب النقود والسكة من الذهب المجلوب من بلاد السودان[2]. وهناك صناعة مرتبطة بالزراعة والماشية مثل صناعة المحاريث والمناجل والفؤوس، كما توجد معاصر الزيتون ومطاحن القمح الموزعة على الأنهار العديدة[4].

ومن الجدير بالذكر ان وفرة المناجم والمحاجر فى بلاد الرستميين ساعد كثيرا على ظهور معظم الصناعات وارتقائها وتطورها وكثرة المشتغلين فيها من العناصر غير المغربية مثل الاندلسيين والعرب المشارقة واليهود الذين كانوا يقيمون فى تاهرت[5] وجاء عند الدكتور الجنحانى ان الحفريات التى أجريت فى منطقة تاهرت عثرت على قطع من الخزف والاوانى دللت على وجود صناعات يدوية فيها كما ان المدينة عرفت مصانع تنتج الاوانى وما تحتاجه حركة البناء ولاسيما القصور والمنازل والمباني من الخزف والمنقوشات الملونة[6].

أما النشاط التجاري فى امارة الرستميين منذ اخذ دوره فى التحولات الاجتماعية حيث لعب التجار الرستميين دور الوسيط التجاري بين المشرق الإسلامى والمغرب الإسلامى طوال فترة القرن الثالث الهجرى فكانت التجارة تنقل عبر الصحراء من بغداد والبصرة وتسلك الطريق نفسه الذى يؤدى الى تاهرت وسجلماسة عاصمة بنى مدرار كما نقل الرستميون تجارتهم الى بلاد الأندلس حيث وصلوا الى موانئها المهمة مثل شاطبة وندمير ومرسي أفلة[7] كما استقبلوا التجار الاندلسيين.

---

[1] أبو زكريا، السيرة وأخبار الائمة الورقة 42،41،37 ، الدرجينى . طبقات الاباضية الورقة 47.

[2] ابن الصغير المالكى، أخبار الائمة الرستميين ص 12، 13.

[4] د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 205 – 206 .

[5] النفوسي، المصدر السابق ص 9.

[6] د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 205.

[7] بحاز إبراهيم بكير، المصدر السابق الورقة 193-195.

ويمكن القول، ان منافذ الإمارة الرستمية اصبحت محطات لرحيل القوافل من المشرق والمغرب والأندلس على السواء ويبدو ان طائفة من التجار العراقيين كان لهم مساجدهم ومنازلهم وفنادقهم وأسواقهم الخاصة[1] مما يشير الى اهتمام الرستميين بتجارة المشرق وايلاء التجار المشارقة رعايتهم فكفلوا لهم الحماية والأمان فى طرقهم وبلادهم[2] .

ومن مظاهر الحركة التجارية ما كان يفد من تجار القيروان الى تاهرت وما كان يخرج من تاهرت الى القيروان من القوافل التجارية تنقل مختلف السلع والمتاجر وذلك نتيجة للتسهيلات التى كان يقدمها الرستميون للتجار وتأمينهم على نقل التجارة وكثيرا ما آثر بعض التجار والحرفيين الاندلسيين والمدراريين والعراقيين وغيرهم الإقامة فى تاهرت والعمل فى أسواقها وحوانيتها.

وكان الرستميون يستوردون كثيرا من السلع والأمتعة من بلاد السودان وأهمها الذهب الخام لاستعماله فى ضرب النقود والعملة أو لاتخاذه حلياً وكذلك ريش النعام وجلود الحيوانات والأبنوس كما استوردوا السلع الأندلسية عن طريق الموانئ فى تنس ومستغانم ووهدان وكانوا يصدون الثياب القطنية والكتانية والحريرية التى كانت تشتهر بها قرطبة[3] كما تصدر الى السودان المنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية والاوانى الزجاجية والخزفية والأصواف والتحف المعدنية والعطور والبخور والافاوية[4] إضافة الى الملح والنحاس والودع[5] كما خرجت قوافل الرستمين الى بلاد الأندلس حاملة القمح والعاج والجلود المصنعة التى كانت تحصل عليها خاماً من السودان وغانة[6].

---

[1] د. محمود اسماعيل، المصدر نفسه ص 209.

[2] بحاز إبراهيم بكير، المصدر نفسه الورقة 175.

[3] ابن الصغير المالكى ص 18.

[4] النفوسي، الأزهار الرياضية ص 137.

[5] القلقشندى، صبح الأعشى ج5 ص164.

[6] د. السيد عبد العزيز سالم ج2 ص 577.

ويشير الأصطخرى الى الطريق التجارية التى كانت تربط كلا من تاهرت وسجلماسة وكانت مسافته بينهما تقرب من خمسين مرحلة[1] وهذه الطريق كانت تعج بالقوافل من كلتا العاصمتين وهي محملة بالسلع والمنتوجات لغرض تبادلها.

ولا غرو فان نشاط التجار الرستميين ترك آثاراً اجتماعية فى مدينة تاهرت ونجد كثيراً من التفصيلات عند المؤرخين والجغرافيين عن مظاهر العمران والرفاهية وتنوع الحضارة فى هذه المدينة ونخص منهم ابن الصغير المالكى الذى يشير الى ان أهل تاهرت "علت وجوههم سيماء الحضارة والرفاهية وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى[2] ".

ومن الجدير بالذكر ان منطقة ورجلان ومدينة ورجلان فى الصحراء كانت من اكبر القواعد التجارية فى الإمارة الرستمية وتتركز تجارتهم مع السودان فيذكر النفوسي بهذا الصدد قائلاً: "وكان أكثر المسافرين لتجارة السودان فى ذلك العهد من أهل مدينة ورجلان وهواره " [3] كما أن قبيلة هواره من أكثر القبائل التى تولت النشاط التجاري فى شرق طرابلس وفى المغرب الأوسط وفى الصحراء وفى تاهرت وفي جبال أوراس وفى المغرب الأقصى وقد تخصصت فى التجارة مع بلاد السودان[4] فضلاً عن ان أهل جبل نفوسه وهم رعايا فى الإمارة الرستمية قد تولوا مهمة النشاط التجاري مع السودان. أما تجارة الرستميين مع مصر فقد كانت هوارة ونفوسة وبعض القبائل الأخرى تتولاها فقد كانت تجوب صحراء سرت ناقلة البضائع التجارية بين المدن الرستمية فى المغربين الأدنى والأوسط وبين مصر[5].

---

[1] المالك والممالك ص 37، 38.

[2] أخبار الأئمة الرستميين ص 13.

[3] الأزهار الرياضية ص 174 .

[4] محمد على دبوز، تاريخ المغرب الكبير ج3 ص 348 (جاء ان قبيلة هواره انشأت مدينة اهفار) وجعلتها مركزا لتجارتها مع السودان.

[5] محمد على دبوز ن المصدر نفسه ص 351 .

(3) الأدارسة / إمارة الأدارسة:

امارة مستقلة، وهى تمثل آمال العلويين فى إقامة كيان سياسي لهم طالما افتقدوه فى المشرق الإسلامى بعد ان خذلهم العباسيون غداة إسقاط دولة الأمويين هناك، اذ كانوا يطمحون لتكوين دولة ترتكز على مقومات سياسية وإدارية وقد حققوا أهدافهم حيث برزت إمارتهم في المغرب الأقصى، وهى تتحد فى الإجراءات العباسية التى كانت تستهدف القضاء عليها وتصفية أمرائها.

كان نظام الحكم فى امارة الادارسة وراثياً، حيث تولاها عشرة أمراء جميعهم من سلالة إدريس بن عبد الله، وبعد وفاة إدريس الثانى تولى ابنه محمد فقسم الإمارة الى أعمال (وحدات إدارية) لكل عمل منها دواوين وكتاب وجباة. وقد تمتعت امارة الادارسة بأسباب القوة والمنعة واستطاعت ان تبسط سيطرتها على اغلب القبائل المغربية فى منطقة المغرب الأقصى ومنها اورية وصدينة وزناته وزواوة ولواته وسدراته ونفزة ومكناة وغمارة، لذلك يمكن القول ان قيام الإمارة يمثل فى جانبه الإجتماعى اتجاهاً يبلور صيغة لحركة جديدة ذات طابع قومي– إذا صح التعبير – فقد قامت على جهود هذه القبائل وكان انتصارهم لدعوة الادارسة قد تم باختيارهم منطلقين من مبدأ أحقية العلويين وهم آل البيت فى خلافة المسلمين لأنهم ورثوا باعتقادهم على النبوة وأسس الحكم وقد أفضت حركة الادارسة الى حركة ذات طابع محدد وأصبح لحكمهم آثار مهمة فى كيان المجتمع، اذ اعتمدوا مثل الإسلام وشريعته ومبادئه وأفكاره قوانين أساسية تنظم حياة المجتمع والفرد وتسيره وتحولت حياة القبائل الى الاستقرار الإجتماعى فى داخل المدن وأسهمت فى التحولات الاجتماعية والاقتصادية وأحدثت تطورات واضحة فى تقاليدها وعاداتها.

تتميز الحياة الاجتماعية فى مدينة فاس، بعدوتيها، عدوة الاندلسيين وعدوة القرويين، بالاستقرار والأمن وانصراف الناس الى مزاولة أعمالهم فأدى ذلك الى العمران والازدهار وقد جذبت هذه المدينة إليها كثيراً من بطون القبائل والوافدين فأصبحوا من سكنتها ولعل إرساء الحكم على أسس قوية كان يشجع هؤلاء

وغيرهم على الاستقرار فى المدينة، فيشير الجزنائى الى ان "استقامة الأمر لإدريس بن إدريس فى المغرب الأقصى، وتوطد ملكه وعظم سلطانه وقوة عسكره جعل وفود الناس إليه من سائر البلدان "[1].

والى جانب القبائل المغربية من زناته وأوربة وصنهاجة وغمارة فقد ضمت فاس نحواً من خمسمائة فارس من افريقية والأندلس وهم من العرب واغلبهم من القيسيين الازد والخزرج ومدلج وبنى يحصب، ويذكر ابن خلدون ان إدريس بن إدريس قد سر بوفادتهم عليه ونزوعهم الى بلاده فأجزل لهم ووصلهم وقربهم منه وجعلهم بطانته واستوزر منهم عمير بن مصعب الازدي الملقب بالملجوم "[2].

وشهدت فاس ازدهاراً فى العمران فى عهد يحيي بن محمد بن إدريس فبنيت فيها الحمامات والفنادق للتجار وبنيت الأرباض وأسست أم البنين فاطمة بنت محمد الفهرى المسجد الجامع بعدوة القرويين[3] وفى هذا الإطار يلقى الجغرافيون ضوءاً مفيداً على الحياة الاجتماعية فى مدينة فاس فيصفها اليعقوبى "أنها كثيرة العمارة والمنازل" [4] ويشير ابن حوقل الى الفتن الدائمة والقتل الذريع المتصل بين أهل العدوتين "[5] ولعل هذا المؤرخ يشير الى الأحداث والفتن التى وقعت فيها نتيجة تدخل الأغالبة والفاطميين وأمويي الأندلس بشؤونها الداخلية واستعداء السكان بعضهم على بعض والظاهر ان هذا الوضع استمر حتى القرن الخامس الهجرى فيذكر الأدريسى الفتن والمقاتلات بين المدينتين (أى العدوتين) ثم يخلص الى القول "ان أهل مدينتي فاس يقتل فتيانهم بعضهم بعضاً[6] ".

---

[1] زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ص 13.

[2] العبر وديوان المبتدأ والخبر ج4 ص 26، الجزنائي، المصدر نفسه ص 13.

[3] ابن خلدون ن المصدر نفسه ص 29.

[4] كتاب البلدان ص 357.

[5] صورة الأرض ص 90.

[6] نزهة المشتاق ص 75-76.

وقد ضمت مدينة فاس فضلاً عن القبائل الموالية للأدارسة المتحضرين وبعض العرب الوافدين والأفارقة والاندلسيين عدداً من اليهود حتى ان البكرى يؤكـد ان "فاس اكسر بلاد المغرب يهوداً يختلفون منها الى جميع الآفاق" [1] وربمـا تـرك هؤلاء اليهود تأثيراتهم الاجتماعية نظراً لدورهم فى الحياة الاقتصـادية حيـث ان اغليهم كانوا تجاراً أو أصحاب أموال وعقارات أو مرابين أو كانوا يزاولون أعمالا ومهنا تتصل بالمال والنقود.

ولعلنا نستطيع ان نستنتج مما جاء عند بعض المؤرخين حول قيام إدريس بـن عبد الله مؤسس امارة الادارسة بفتح بلاد تامسنا وساله وتاولا وماسه التى كـان أكثر سكانها على دين النصرانية واليهودية والمجوسية ان بعـض هـؤلاء ربمـا هاجروا الى مدينة فاس واستوطنوها وقد أشار الى ذلك البكرى بقوله: "ان هنـاك قوماً من قبيلة زراغة يعرفون ببني الخير وقوم زناته يعرفون ببني يرعش كـانوا يدينون بالمجوسية والآخر باليهودية وبعضهم بالنصرانية يسـتوطنون المنـاطق القريبة من مدينة فاس وقد نزل بنو الخير فى عدوة القرويين وبنو يـرعش فـى عدوة الاندلسيين " [2] ولكن لا توجد معلومـات تشـير الـى حـدوث الفوضـى والإضطرابات فى داخل المدينة بسبب تباين الأديـان والنزعـات ولعـل سياسـة الادارسة التى كانت تقوم على التسامح من جهة ونشاطهم فى التأثير الإجتمـاعى والاقتصادي على أهل الذمة ونشر الإسلام بين صفوفهم من جهة أخرى كان عاملاً أساسيا يحول دون ذلك.

لقد أسهمت القبائل المغربية المنضوية تحت نفوذ الادارسة الى جانب الفئـات الأخرى من السكان بعد التطورات السياسية والاجتماعية التى شـهدتها الإمـارة بقسط كبير فى عملية التحولات الاقتصادية وتتضح التأثيرات التى أحدثها هـؤلاء

---

[1] المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص 115.

[2] المغرب ص 114.

فى مجالات الزراعة فيما كانوا يقومون به بتحويل الأراضى والمناطق التى بسطوا عليها سيطرتهم الى أراضى صالحة للزراعة وطالما نسمع عن مزاولـة السـكان وانصرافهم الى الزراعة والاهتمام بمتطلباتها[1] فيتحدث اليعقوبى عن النهر العظيم الذى يقال له "فاس" وهو اعظم من جميع انهار الأرض"[2] وربما تكمن أهميته فى الاعتماد عليه فى الإرواء الزراعى ويؤكد ابن حوقل "ان هذا النهر كبيـر غزيـر المياه"[3] مما ساعد على تحويل منطقة فاس الى أراضى خصبة صالحة للزراعـة وتبدو مظاهر الاهتمام بالزراعة فيما كانوا يقوم به الناس من العناية ببسـاتينهم التى كانت تحوى أنواعاً من الثمر فيقول البكرى فى معرض حديثه عن مدينة فاس "وعلى باب دار الرجل فيها رحاه وبستانه بأنواع الثمر وجـداول المـاء تخـرق داره"[4] ولعل المعلومات التى جاءت عن اختيار موضع مدينة فـاس وتخطيطهـا وبنائها تفيدنا فى الاستنتاج ان هذه المنطقة كانت منطقة زراعية حيـث جـاء ان المكان الذى اختير لإقامة المدينة فيه عيون كثيرة تزيد على السـتين عينـاً وان مياهها تفيض على الأرض فسيحة فتروى الغياض ذات الأشجار الملتفة المطـردة العيون والأنهار"[5].

أما فى مجال التجارة فلابد ان يكون لإمارة الادارسة بحكم موقعها فى المغـرب الأقصى على طرق القوافل التى كانت تربط فاس بعواصم بـلاد المغـرب ومنهـا تاهرت والقيروان وسجلماسة، دور ملموس فى النشاط التجاري حيث كـان لهـا نصيب من تجارة المشرق الإسلامى التى كانت تصل من بغداد والكوفة والبصـرة ومن حلب ودمشق وطبرية والفسطاط والإسكندرية. وكذلك لم تعدم وجود صـلات

---

[1] م. ن. ص 115.

[2] البلدان ص 357.

[3] صورة الأرض ص 90.

[4] المغرب ص 117.

[5] انظر: د. السيد عبد العزيز سالم، استنتاجه الذى توصل إليه من قراءة بعض النصـوص المتعلقـة بتأسيس مدينة فاس فى عهد إدريس الثانى (المغرب الكبير ج2 ص 490).

تجارية مع إمارات الخوارج فى المغربين الأدنى والأوسط فتشير المصـــادر الـــى انتظام سير القوافل بين فاس وسجلماسة حيث كان الطريق ممهداً بين المـــدينتين ويبدأ من فاس الى صفروى فقلعة مهدى فتاوله ثم الى وادى شعب الصفا ثم يمـــر عبر الجبل الكبير الى الجنوب حيث تقع مدينة سجلماسة وكانت القوافل ترتاد هذا الطريق فتخرج من باب الفوارة فى مدينة فاس الى سجلماسة ويؤكد المؤرخـــون توافد الكثيرين من التجار وطلبة العلم من فاس الى سجلماســـة ونشـــاط التجـــار المدرارين الواسع فى أسواق فاس[1].

وعلى الرغم من ان معلوماتنا عن السلع والمتاجر التى كانت تصـــدرها امـــارة الادارسة الى المراكز التجارية فى المغرب الإسلامى أو عن طريقها الى المشـــرق الإسلامى نادرة ولكن على ما يبدو ان السلع والبضائع التى كانت ترد الـــى فـــاس هى نفسها التى كانت تصدرها تاهرت وسجلماسة والقيروان وأهمها الفستق مـــن مدينة قفصه والسكر والكمون والكراوية والأحذية من سجلماسة وكـــذلك القمـــح والكروم والتمر فضلاً عن الثياب والمطرزات القطنيـــة والمنســـوجات الحريريـــة والصوفية والكتانية كما كانت تأتيها القوارير الزجاجية وأوانى الخـــزف والتحـــف المعدنية والعطور من تاهرت وذلك على الرغم من ان العلاقات التجارية بين فاس وتاهرت كانت فى نطاق محدود[2].

وتوجد لدينا معلومات قليلة ومشتقة عن عملة الادارسة من الدراهم والـــدنانير ولكن الأستاذ ليفى بروفنسال يغنى هذه المعلومات ويعززها ببحوثه واســـتنتاجاته فقد وجد فى المكتبة الأهلية بباريس درهماً ضرب فى مدينة فاس سنة 189هـــ، وفى متحف مدينة خاركوف، درهم آخر ضرب فى مدينة فاس سنة 185 هـ كما عثر على عملات يظهر فيها اسم إدريس الثانى ضربت فى مدينتي وليلى وتدغـــة تحمل التواريخ المتعاقبة لسنوات 181هـ ، 182هـ ، 183 هـ واستنتج كذلك ان

---

[1] ابن أبى زرع الأنيس المطرب ج1 ص 53، الأدريسى، نزهة المشتاق ص 10 الجزنائى، زهرة الآس ص 29 ثم انظر د. محمود اسماعيل، الخوارج فى المغرب ص 208-209.

[2] ابن خلدون، العبر ج4 ص 422، ابن الخطيب، أعمال ص 13.

كذلك ان معظم العملات التى تحمل اسم إدريس بن إدريس ضربت فى مدينة العالية (أى عدوة الاندلسيين) فى سنوات198هـ ،207هـ ،208هـ ،209هـ ،210هـ ،214هـ[1] ويشير ابن خلدون الى ان فاس كانت مركزاً لضرب السكة وصناعتها[2] ولكن من المؤسف لا يوجد لدينا ما يشير الى حجمها وعيارها وقطرها ووزنها وأقيامها.

وهناك إشارات تدل على وجود بعض المظاهر الصناعية فى امارة بنى إدريس فنشاهد على نهر فاس ثلاثة آلاف رحى منصوبة تطحن الحنطة بثمن قليل[3] كما توجد الارحاء لرفع المياه من النهر الى الدور والمساكن أو الى البساتين والأراضى للارواء وان هذه المطاحن والأرحاء كان يشغلها الصناع والمهرة والحرفيون وذلك بقوة جريان الماء وكان اغلب هؤلاء من القرويين أو الاندلسيين اذ تركوا تأثيراتهم فى الحياة الاقتصادية فأنشأوا الأسواق والحوانيت وأقاموا الدور والحوانيت للبيع والشراء كما زاولوا بعض الصناعات المرتبطة بأعمال البناء والعمران.

أما المعلومات التى أوردها الجزنائى فيما يتعلق بوجود صناعة الاطرزة بواسطة أنوال الحياكة التى كانت تعمل النسيج وكذلك صناعة الصابون الذى كان يعد من أهم مستلزمات المدينة وصناعة دباغة الجلود وصناعة تشبيك الحديد والنحاس وصناعة عمل الزجاج وصناعة الورق والطابوق فى مدينة فاس فى عصر دولتي المرابطين والموحدين[4]، أن هذه الصناعات لابد أن تكون استمرارا لما كانت عليه فى عهد الادارسة .

---

[1] الإسلام فى المغرب والأندلس ص 15-19

[2] العبر ص 423.

[3] زهرة الآسى فى بناء مدينة فاس ص 33.

[4] زهرة الآسى فى بناء مدينة فاس ص 33.

(4) الأغالبة / إمارة الأغالبة:

تشكلت امارة الأغالبة فى مناطق المغربين الأدنى والأوسط، وكان بنو الأغلب قد نصبهم العباسيون ولاة شبه مستقلين يحكمـون ويحـافظون علـى ممتلكـات العباسيين ونفوذهم الروحي والمادي فى تلك المناطق ويقفون ضد توسـع الإدارة والخوارج بعد قيام إماراتهم، فشرعت قوانينهم وأنظمتهم وفقـاً لـذلك ووجهـوا جيوشهم لصد الهجمات المحتملة التى قد تقوم بها العناصـر المناوئـة للخلافـة العباسية أو لمبادرتهم بالهجوم على المناطق والأنحاء التى تسـيطر عليهـا تلـك العناصر ولكن بعد انتهاء عهد إبراهيم بن الأغلب مؤسس الإمـارة وتـولى ابنـه زيادة الله بدأوا يتجاهلون الى حد ما مخالفتهم للعباسيين خدمة لمصـالحهم التـى استجدت وذلك نتيجة للظروف والملابسات التى كانت تلف المغرب الإسلامى وبعد ان واجهوا كثيرا من المتغيرات على مدى نصف قرن من بدايـة تنصـيبهم فـى المغرب وافريقية ووجودهم منفردين فى الدفاع عن الخلافة العباسية

ويمكن القول، ان الاستقلال المحدود الأفق الذى فوضه الخليفة العباسى هارون الرشيد لإمارة الأغالبة حدوته اشتراطات الضمانات المالية والاستمرار بـدفع مـا أطلق عليه الجزية السنوية لبيت مال الخلافة والتزام أمراء الأغالبة بتسديد هـذه الإعانات وتنفيذ إجراءات الخلافة يحتم على هـذه الأخيـرة تثبيـتهم بولايـاتهم وتزويدهم بشعار التقليد والخلع والإعلام مما يجعل حكم الإمارة يتخذ أسلوباً وراثياً فتولاها احد عشر أميرا تميز الأوائل منهم بالقوة والنفوذ مما أتاح لهم الانصراف القيام بالإصلاحات فقد اتخذوا إضافة الى القيروان عاصمة لهم، ومدينـة القصـر القديم "العباسية" اذ نقلوا إليها بعد اكتمال بنائها سلاحهم وعددهم وسـكنوها مـع عبيدهم ورجالهم وأصبحت دارهم ومستقرهم[1] وهذا لا يعنى إهمال القيروان فقـد غدت لهم حاضرتان تنافسان اجتماعيا وثقافياً.

والظاهر ان اتخاذ بنى الأغلب لحاضرة جديدة، لم يغير فى البنـاء الإجتمـاعى لمدينة القيروان حيث لا توجد لدينا معلومات عن هجرة مؤثرة منها الى العباسـية

---

[1] ابن الأثير، الكامل ج6 ص 56.

سوى ما وقع اختيارهم على بعض الجماعات والفئات والعناصر التي تؤيدهم سياسيا بل يمكن القول، ان القيروان احتفظت بكيانها الإجتماعى كما زاد في مكانتها اتخاذها حاضرة للاغالبة ومركزا سياسيا واقتصاديا حتى وصفت أنها "أم أمصار وقاعدة أقطار، وكانت اعظم مُدن المغرب قطرا وأكثرها بشراً وأوسعها أحوالاً "[1] .

وحسب المعلومات التى بين أيدينا فان القبائل المغربية لا يشكلون نسبة عالية من السكان لإمارة بنى الأغلب على الرغم من انهم يؤلفون السواد الأعظم من سكان المغرب الإسلامي وإشارة ابن عذارى الى طاعة القبائل المغربية لإبراهيم بن الأغلب[2] تعنى دخول هذه القبائل تحت نفوذه حينا ثم خروجها عليه في أحيان أخرى مما يجعل استقرارهم الإجتماعى متأثراً الى حد كبير بموقفهم السياسي، ولكن من الملاحظ ان المشارقة هم الأكثرية فى سكان مدينة القيروان.

إن الأغالبة ينتمون الى عرب بنى تميم مما يوفر فرصة لهؤلاء فى ان يحتلوا مكانة لا تدانيها مكانة العناصر والأقوام الأخرى، ثم ان الصراع بين العناصر المؤيدة للاغالبة من عرب المشرق وبين عناصر من قبائل المغرب، اقنع الأغالبة بضرورة الاحتفاظ بعناصر احتياطية في الجيش يمكن استخدامها عندما تحين معارضة العناصر المعادية أو لندلاع ثوراتهم الذين ذاقوا الأمرين من سياسة الولاة العباسيين القائمة على التمييز والاضطهاد.

غير أن العرب الذين أقاموا فى مدينة بلزمة وبعضهم كان من أعقاب العرب الفاتحين وهم قيسيون وبعضهم الآخر من العرب الشاميين الذين دخلوا البلاد في الحملات العسكرية التى كانت ترسلها الخلافة العباسية لإخماد حركات المعارضة

---

[1] الأدريسى، نزهة المشتاق ص 110 .

[2] البيان المغرب ج1 ص 92.

ضد الأغالبة الى نكبات أدت الى تصفياتهم[1]، ويشير ابن عذارى الى ان تصفية الجند العرب البلزميين على يد الأغالبة كان من "أسباب انقطاع دولة بنى الأغلب اذ كان أهل بلزمة فى نحو ألف رجل من أبناء العرب والجند الداخلين الى افريقية عند افتتاحها وبعده، وكان أكثرهم من قيس وكانوا يذلون كتامة فلما قتلهم إبراهيم استطالت كتامة ووجدت السبيل للقيام مع الفاطميين ضد بنى الأغلب"[2].

ويبدو ان ما دفع الأغالبة، قتل هؤلاء وغيرهم من عرب تميم الذين كانوا يستقرون فى تونس ويتمتعون بامتيازات كثيرة، انهم كانوا وراء الأحداث السياسية التى كانت تقوم بها عناصر من قبائل المغرب ضد حكم الأغالبة أو تأجيج الأحداث التى كان يقوم بها الخارجون عليهم والتحريض ضدهم وأحيانا الاشتراك معهم أو قيادتهم فى الثورات التى كادت ان تودى بكيان إمارتهم[3].

ولعل الجند العرب الذين استكثر منهم الأغالبة فى جيوشهم كانوا يشكلون طبقة متميزة ونظامية وبعضهم كان يستنفر للحرب وهم يحاولون التمويه لمصالحهم وامتيازاتهم فأعلنوا ثوراتهم بوجه الأغالبة وعمالهم فى القيروان والمدن الأخرى[4] واصبحوا خطراً على إمارتهم وبخاصة فى عهد الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب حتى وصل بهم الأمر الى درجة انهم كتبوا إليه ان "ارحل عن افريقية ولك الأمان فى نفسك ومالك فقاتلهم زيادة الله وقضى عليهم"[5] .

---

[1] فى سنة 280هـ استقدم الأغالبة منهم سبعمائة من أبطالهم فى القيروان وابتنيت لهم دارا كبيرة وضعوا فيها ثم قتلوا جميعا (ابن عذارى، البيان ج1 ص 123)

[2] م . ن . ص 124 .

[3] ابن الاثير ، الكامل ج6 ص 104 ، ابن خلدون ، العبر ج4 ص 419 .

[4] من ثورات الجند ثورة عمرو بن معاوية القيسى فى مدينة القصرين سنة 208هـ وثورة منصور الطنبذى بتونس سنة 209هـ وثورة عامر بن نافع فى سبيبة سنة 210هـ والثورات فى مدينة بلزمة وقد اثار قمع الأغالبة لهذه الثورات عرب تميم وعرب الجزيرة والاربس وباجه وقمودة .

[5] ابن عذارى البيان ص 201 .

أما الفئة الاجتماعية الأخرى فى امارة بنى الأغلب فهم المشارقة الذين قدموا من خراسان وكان بعضهم جنداً فى الجيش[1] وكان يعيش غالبية هؤلاء المشارقة فى القلاع البيزنطية القديمة فى قابس والقيروان، وبونه وباجه ومجانه أو فى القلاع القديمة بإقليم توميديا الروماني مثل قلاع طبنة وباغاية والاربس[2] وقد ترك هؤلاء تأثيراتهم فى الحياة الاجتماعية وخاصة فى مدينة القيروان حيث كان بعضهم من العلماء والفقهاء أو كانوا من أصحاب الحرف والمهن أو الصنائع.

وهناك الى جانب الجند العرب والقبائل المغربية والمشارقة الروم القدم[3] وهم من أعقاب سكان قرطاجنة وكانوا يقيمون فى القلاع البيزنطية القديمة مثل طبنة وباغاية وفى مدن الجريد الصغيرة التى يبدو إنها اتخذت ملاذاً لغير العرب من أهل البلاد كما أقام بعضهم فى مدينة القيروان باعتبارها حاضرة البلاد وأملاً فى الحصول على فرصة عمل يعيشون منه[4] .

ونقرأ كذلك عن وجود الأفارقة، وهم نصارى من بقايا الفينيقيين واللاتين أقاموا فى إقليم الجريد ومدن قنصة وتوزر ونفطة وتقيوس والجامة واقامت طائفة منهم فى مدينة طبنة ومدينة باغاية وفى السهول الساحلية[5] وقد قامت سياسة بنى التغلب على التسامح معهم وفوتح البعض منهم باعتناق الإسلام فرفض[6] .

ويشكل "العبيد السود" الذين جلبوا من منطقة الصحراء أو من بلاد السودان فئة طارئة على المجتمع وقد اتخذ أمراء الأغالبة بعضهم حرساً لهم أو جنداً كما ان هناك "العبيد البيض" وهم الصقالبة الذين حملوا من صقلية وسردانية وقلورية

---

[1] من المعروف ان القاضى أسد بن الفرات الفقيه الذى قاد الحملة الى صقلية فى عهد الأمير زيادة الله بن إبراهيم كان خراسانياً.

[2] د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج2 ص 417 .

[3] اليعقوبى، البلدان ص 135 .

[4] د. السيد عبد العزيز سالم، المصدر السابق ص 419 .

[5] م . ن . ص 420 .

[6] ابن عذارى، المصدر السابق ص 122 .

ومالطا وقد سمى هؤلاء بالفتيان ولعبوا دوراً مهماً فى امارة الأغالبة من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية [1].

ولعل أهم مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية فى القيروان خلال هذه الفترة هو الثراء فقد تجمعت لدى السكان الثروة الذهبية التى كان الحصول عليها ميسوراً بواسطة الاتجار وكانت هذه المظاهر واضحة فى الأسرة الحاكمة وفى بعض الفئات الاجتماعية وفى طليعتها فئة التجار كما ظهر ذلك فى بناء المنازل الرفيعة وفى التفنن فى اللباس والمأكل .

وكان المجتمع القيروانى مقسماً إلى فئات اجتماعية على رأسها فئة التجار التى كانت فئة بارزة فى المجتمع ومحظوظة اجتماعيا ويلاحظ أن عدداً من علماء القيروان كانوا من هذه الفئة إذا اشتغلوا فى ميدان التجارة فحازوا على أموال كثيرة. وهناك فئة الجند وفئة العلماء الذين تعرض عدد كبير منهم إلى الاضطهاد نتيجة لمواقفهم فى مسائل تتصل بالدين والحياة العامة وفئة أهل الذمة من اليهود والنصارى التى استقرت فى القيروان والظاهر أن فئة الرقيق أو العبيد كانت تشكل الدعامة الأساسية لإمارة الأغالبة حيث يبرز دورها فى الحياة الاقتصادية فهم القوة المنتجة الأولى[2] ودورها يشبه إلى حد كبير دور طبقة العمال فى الوقت الحاضر. أما الفئة الأكثر عددا فى مجموع السكان فهم طبقة العامة (الفقراء) أو طبقة

---

[1] كان بعضهم يشرف على دار السكة فسجلت أسماؤهم على العملات كما نقشت أسماء البعض منهم على النقوش التاريخية والمنشآت ومن هذه الأسماء المسجلة: اسم مسرور الخادم مولى الأمير زيادة الله بن إبراهيم واسم خلف الفتى ونصر وفتح الله نقشت جميعها على قبة المحراب بجامع الزيتونة (د. السيد عبد العزيز سالم، المصدر نفسه ص 420)

[2] وقد تعدد اختصاصهم فتشمل عمل الجواري فى المنزل للخدمة والرضاعة وتربية الأطفال وشئون الطحن والطبخ وجلب الماء وهناك فئة منهن خصصن للزواج وكذلك فئات الحدادين والنجارين والبناءين وأصحاب المهن والصناعات المختلفة فى أكثر مرافق الحياة العامة (انظر للاستزادة ك د. الحبيب الجنحانى. المغرب الإسلامى ص 92).

السواد وهى تتألف من عناصر العبيد والإجراء أو النازحين من الريف كما ضمت إليها عدداً من النخبة المثقفة وهذه الفئة قد نالها فى عهد الأغالبة مـن البـؤس والحرمان ما جعلها وراء اغلـب الانتفاضـات السياسـية والدينيـة والحركـات الاجتماعية فى القيروان[1] .

أما الأحوال الاقتصادية التى تميزت بها منطقة المغرب الأدنى فى عهـد الأغالبـة فيزودنا المؤرخ والجغرافي، اليعقوبى بمعلومات مهمة عنها وبخاصة فيما يتعلـق بالزراعة والصناعة والتجارة مما يساعدنا على معرفة عوامل الازدهار الإجتماعى والاقتصادي والسياسي الذى اتسم به عهد الأغالبة والظاهر أن قيام إمارة الأغالبة فى هذه المنطقة قد رافقه نوع من الاستقرار السياسي والاجتماعى الذى دفع كثيراً من السكان إلى مزاولة الزراعة والاهتمام بمتطلباتها فظهرت المناطق الزراعيـة التى حددها اليعقوبى وأهمها المنطقة الواقعة بين قمودة والساحل حيث البسـاتين والقرى المتصلة ثم منطقة بلاد الجريد جنوب مدينة قمودة ومنطقـة بـلاد باجـة الخصبة إلى الشمال منها[2]. وقد أبدى اليعقوبى دهشته لمظهر الخضـرة وكثـرة الأشجار فى هذه المناطق وخاصة الأولى منها وأهم أشجارها الزيتـون والنخيـل والكروم[3] أما المنطقة الأخيرة فكانت متخصصة بزراعة الحبوب وخصوصاً القمح وكذلك الفواكه وقصب السكر واشهر مدن هذه المنطقة هى "جلـولا" التـى تقـع بالقرب من القيروان وأغلب زراعتها قصب السكر الذى كان ينتج بكميات وفيرة[4] ومدينة تونس التى وصفت بأنها أطيب ثمراً وأنقى فاكهة من جميع مداين إفريقية فمن ذلك اللوز الفريك والرمان الضعيف والاترج الجليل والتين الجارمى والسفرجل

---

[1] المصدر نفسه ص 85-94.

[2] البلدان ص 349.

[3] م. ن. ص 350.

[4] البكرى، المغرب ص40.

المتناهي والعناب الرفيع والبصل القلورى[1] ومدينة قنصة التى كانت أكثر بلاد المغرب فستقاً ثمرها مثل بيض الحمام وفيها أنواع الفواكه والثمر[2] .

وهكذا أصبحت الزراعة من الضرورات التى تتطلبها الحياة الاقتصادية فى المغرب الأدنى فالمحصولات الزراعية والغذائية مثل الحبوب والثمار والكروم والزيتون والتمور وغيرها كانت سلعاً للتجارتين الداخلية والخارجية وليس أول على ذلك من المعلومات والإشارات التى جاءت عند بعض المؤرخين[3] والجغرافيين والبلدانيين[4] .

كما نقرأ عن وجود بعض الصناعات المتقدمة فى منطقة المغرب الأدنى التى تبسط إمارة الأغالبة سيطرتها عليها، منها صناعة السفن فى تونس حيث استمرت دار الصناعة التى أمر بإنشائها الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان لغرض تكوين أسطول بحري دفاعي لمواجهة الأخطار المتأتية من الإمبراطورية البيزنطية وقد استعين بأقباط مصر الذين كانوا يمتلكون الخبرة والدراية فى صناعة السفن[5] وقد

---

[1] م. ن. ص41.

[2] م. ن. ص47.

[3] ابن عذارى، البيان المغرب، ابن الأثير، الكامل ابن خلدون، العبر، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، المقرى، نفح الطيب.

[4] اليعقوبى، البلدان، ابن حوقل، صورة الأرض، الأصطخرى، المالك والممالك البكرى، المغرب فى بلاد افريقية والمغرب، المقدس، احسن التقاسيم.

[5] يذكر البكرى بناء المسلمين للسفن فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان فى مدينة تونس (ترشيش) فقد كتب الخليفة الى أخيه عبد العزيز وكان واليا على مصر حنذاك ان يوجه الى معسكر تونس ألف قبطي من أقباط مصر بأهلهم وأولادهم ويوصلهم الى تونس وكتب الى حسان بن النعمان يأمره ان يبنى لهم دار الصناعة لتكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر وان يصنع بها المراكب ويجاهد الروم فى البر والبحر وان يغار منها على ساحل الروم فيشغلوا عن القيروان نظرا للمسلمين وتحصينا لشأنهم فوصل القبط الى حسان بن النعمان وهو مقيم بتونس فأجر البحر من مرسى رادس الى دار الصناعة وجر البربر الخشب وجعل فيها المراكب الكثيرة وأمر القبط بعمارتها فى المغرب (ص38-39).

تطورت هذه الدار وتوسعت فى صنع المراكب العسكرية التى استخدمت فى التوسع البحري[1].

والى جانب دار الصناعة فى تونس وقعت الإشادة إلى قيام صناعة الآلات الحديدية اللازمة لصناعة السفن التى كانت تعتمد على الحديد الذى كان يجلب من منـــاطق استخراجه فى مدينة مجانة[2] أما دار الصناعة فى مدينة سوسة فـــلا يقـــدم لنـــا البكرى تفصيلات كثيرة عنها سوى إنها كانت لتصليح السفن أو كانت مرفأ لرسو المراكب والسفن الحربية والتجارية للتأكد من صلاحيتها لركوب البحر[3] .

وكذلك نسمع عن صناعات كانت تقوم على الحديد مثل صـــناعة الســـيوف ولجـــم الخيل والآلات والعدد الحديدية المرتبطة بالبناء والعمـــران مثـــل أبـــواب الـــدور والمنازل والمنشآت والقصور والمساجد وأبواب الأسوار والحصـــون والمحـــارس والخانات وآلات القطع والحفر وبعض أنواع من الأسلحة. والظـــاهر أن المحفـــز لهذه الصناعات وغيرها توفر الحديد والفضة والكحل والزنك والرصاص[4] حيـــث قامت صناعات مختلفة مثل صناعة التحف الذهبية والفضية والنحاسية إذ اقتنـــى منها الأمراء والوجهاء فى قصورهم وبخاصة التحف والسروج المفضضة واللجم المذهبة والسيوف المحلاة وصفوف الآنية من الذهب والفضة[5] .

أما صناعة الزجاج الذى كان مظهراً من مظاهر المدنية ومستلزماتها فهناك ما يشير إلى وجودها فى مدينة القيروان، وينهض حي الزجاجين فى المدينـــة دلـــيلا على ازدهار هذه الصناعة وكذلك صناعة الخـــزف المتـــأثرة بالتقاليـــد العراقيـــة

---

[1] ومنها الاستيلاء على جزيرة صقلية حيث اصبحت جزءا من البلاد الإسلامية فى عهد الأمير زيادة الله إبراهيم بن الأغلب.

[2] اليعقوبى، المصدر السابق ص 349.

[3] المغرب ص 34.

[4] اليعقوبى، المصدر نفسه ص 350.

[5] ابن عذارى ن المصدر السابق ص 138، 148.

والمشرقية، حيث كان الصناع العراقيون يستخدمون لتزيينه واجهات محاريب المساجد وأبواب القصور بزخارف التربيعات الخزفية ذات البريق المعدنى[1].

وكان لمدينة القيروان تراثها فى صناعة المنسوجات الحريرية الرفيعة والثياب[2]. كما إن الحياكة فى مدينة سوسة كانت كثيرة، وكان يغزل بها غزل يباع زنة المثقال منه بمثقالين من الذهب، وكانت منتوجات مدينة القيروان من المنسوجات ترسل إليها لإجراء عملية القصر وجعلها ناصعة البياض[3] ، وعرفت مدينة طرافى بنوع من الألبسة تسمى "الكساء الطرافى"[4] وهناك صناعة السجاد المحلية التى اشتهرت بها القيروان وبعض المدن الأخرى حيث كانت هذه الصناعة استمرار منذ العهد الرومانى .

ومن الصناعات المتخصصة التى كانت تعتمد على الإنتاج الزراعى صناعتان أولاهما صناعة زيت الزيتون يستخرج من الزيتون الذى كان ينتج فى المناطق الساحلية وفى الأقاليم الزراعية، يوضح البكرى إن أشجار الزيتون والنخيل تغطى السهول الرملية (بالقرب من مدينة صفاقس الحالية) ففى هذه المنطقة الساحلية بساتين وقرى متصلة كل منها تضم معصرة للزيت[5] . أما الصناعة الثانية فهى صناعة النبيذ أو الشراب باستخلاصه من الكروم التى تكثر زراعتها جنوب إقليم قمورة وقسطيطنية [6]، فضلاً عن صناعة السكر من القصب الذى تنتجه مدينة

---

[1] البكرى، المصدر السابق ص 35 .

[2] م.ن. ص 36 .

[3] م.ن.ص 37 .

[4] م . ن. ص 47

[5] م . ن. ص 24، 26 .

[6] وكان أمراء الأغالبة يدمنون على شرابه ومنهم محمد بن الأغلب بن إبراهيم وزيادة الله بن عبد الله .

جلولا وإنتاج العسل الجيد ، وإنفراد تونس بصناعة آنية الماء من الخزف التى كانت تعرف بالريحية[1] .

أما صناعة السكة والنقود، فقد ارتقت فى عهد الأغالبة، وكانت تضرب فى دار الضرب أو دار السكة فى القيروان وفى العباسية، ويلاحظ أن الدنانير الذهبية حافظت على وزنها وحجمها وعيارها طوال عهد الأغالبة، أما الدراهم الفضية فكانت تضرب صحاحاً أو أجزاءاً من قطع معدنية صغيرة [2] .

وتشكل التجارة فى الأجزاء التى تهيمن عليها إمارة الأغالبة من المغرب الأدنى، حجر الزاوية فى النشاط الاقتصادى فقد كانت القيروان مركزاً للتجارة العالمية ونقطة لقاء بين المغرب والمشرق الاسلاميين من جهة وبين التجارة (المتوسطية)* وقوافل التجارة الصحراوية من جهة أخرى[3] حيث استقبلت قوافل التجارة من سائر أنحاء المغرب ومن مراكزها فى تاهرت ومجلماسة وفاس وقرطبة واودغست فضلاً عن بلاد المشرق الاسلامى وبلاد السودان . ولم تكن العلاقات السياسية غير الودية بين هذه الدول والإمارات، لتحول دون توطيد صلاتها التجارية، فمن جهة ترتبط القيروان بخط سير القوافل الخارجة من تاهرت إلى القيروان وهاز والمسيلة وأدنة وطبنة وباغاية ومجانة وسبيبة[4] كما يربطها خط آخر يخرج من سجلماسة إلى تاهرت ثم إلى القيروان[5]. أما التجارة التى كانت تحصل عليها إمارتا الخوارج الرستميون والمدراريون وإمارة الأدارسة، من الأندلس، فينقلها التجار إلى القيروان بواسطة القوافل التى اعتادت السير على الطرق المعتادة، ومن جهة كافية، فان نصيب القيروان ومدن المغرب الأدنى

---

[1] وهى شديدة البياض ورقيقة وشفافة ليس لها نظير فى جميع الأقطار وعامة الأمصار (م . ن . ص 41).

[2] ابن عذارى، البيان ج1 ص 120-121.

* منحوتة نسبة للبحر المتوسط (بحر الروم).

[3] د. الحبيب الجنمانى، المصدر السابق ص 61.

[4] البكرى، المصدر السابق ص 143-146.

[5] الأصطخرى، المالك والممالك ص 37، 38.

الأخرى كبير فى تجارة المشرق التى تأتى من بغداد والبصرة فضلا عن توطد الصلات التجارية بين بغداد وحاضرة العباسيين وإمارة الأغالبة، تلك العملات التى كانت تعكسها علاقات التحالف بين الطرفين وتجنى القيروان من التجارة الخارجية بكونها احدى مراكزها، بصناعات وسلعا كثيرة، فتحصل من سجلماسة على السكر والكمون والكراوية والأحذية وعن طريق تاهرت وسجلماسة تحصل على السلع السودانية التى كانت تزداد أهميتها على البضائع والمواد الأخرى، أما الثياب القطنية والكتانية والحريرية والأنسجة المطرزة فكانت تفد إليها من قرطبة التى نالت فيها شهرة واسعة [1].

والظاهر أن تجار القيروان، كانوا نشطين فى نقل تجاراتهم بين مراكز التجارة فى العالم الاسلامى ، فكانوا يختلفون إلى عواصم دول المغرب ومراكزه التجارية المهمة فضلاً عن بغداد ومدن المشرق ، ويشير ابن الصغير المالكمية إلى حرية المتاجرة التى كان يخطى بها تجار القيروان فى أسواق تاهرت ، حيث كانوا يفدون إليها بأعداد كثيرة [2] .

ونذكر البضائع والسلع التى كانت تصدرها القيروان وأهمها الزيتون وزيت الزيتون والآلات المصنعة من الذهب والفضة والسيوف ولحم الخيل وبعض المنسوجات السوسية والسجاد والنبيذ والآلات الحديدية المستخدمة فى صناعة السفن والمراكب ولكن التجارة التقليدية للتجار القيروانيين هى تصدير فستق مدينة قنصة الذى ينتشر بأفريقية ويحمل إلى مصر والأندلس وسجلماسة وأثواب مدينة طراف [3] وتمور مدينة توزر، وتتسرب تجارة هذه السلع إما برا أو بحراً[4] عن طريق موانى تونس وسوسة اللتان تمتلكان مراسى كبيرة على ساحل البحر أما فى نطاق التجارة المحلية، فيسود نشاط فى تبادل المحصولات الزراعية وبعض

---

[1] الحميرى، صفة جزيرة الاندلس ص 21.

[2] أخبار الائمة الرستميين ص 13.

[3] والملاحظ ان الكساء الطرافى كانت تختص به التجارة الى مصر (البكرى، المصدر السابق ص 47).

[4] البكرى، المصدر نفسه ص 34 .

المصنوعات المحلية ويشير البكرى إلى تزويد مدينة جلولا لمدينة القيروان بقصب السكر وأحمال كثيرة من الفواكه والبقول[1] ومدينة سوسة بكثير من الأمتعة والتمر واللحوم والفواكه[2] ومدينة قنصة بالتمر وأنواع الفواكه والتمر[3].

وتعكس أسواق القيروان وأسواق المدن الأخرى، صورة عن النشاط التجارى الذى يسود فى إمارة الأغالبة وعن حركة التطور العمرانى فى منطقة المغرب الأدنى ومن أسواق القيروان، السوق الكبير الذى يسمى "سماط القيروان" وسوق البزازين وسوق السراجين وسوق الضرب وسوق الجزارين وسوق الزجاجين وسوق النحاسين وسوق القطانين وسوق الدجاج وسوق الغزل وسوق الخرازين وسوق الأحد وحوانيت الرهادنة [4].

وهكذا يبدو التأثير الذى تركه الأغالبة فى الحضارة العربية الإسلامية واضحا وجليا فيما خلفوه من معالم حضارية فكرية ومادية، وقد لعبت القيروان التى اتخذوها حاضرة ملكهم دوراً أساسياً فى ترسيخ المفاهيم الحضارية وغدت مركزاً مشعاً من مراكز العلم والثقافة والاقتصاد والتطور الإجتماعى فضلاً عن كونها دائرة لسياستهم وقاعدة لجيوشهم وقوتهم العسكرية، لقد واصلوا الاهتمام بإنشاء المدن التى أصبحت محطات علمية، كما أنشأوا العمائر الكبرى التى احتلت مكانة بارزة فى تاريخ الحضارة الإسلامية مثل المسجد الجامع فى القيروان وجامع الزيتونة فى تونس والمسجد الجامع فى سوسة وحصنوا المدن وأقاموا لها الأسوار وحفروا المواجل وأسسوا نواة الأسطول الإسلامى.

لقد قدم الأغالبة صورة واضحة عن الاستقلال الذاتي وعن ارتباطهم بسياسة التحالف المرنة مع الخلافة العباسية التى كانت تقوم على إدراك لطبيعة ظروف المغرب الإسلامى فعملوا فى إطارها ببعد سياسى فترسخت إمارتهم وتدعمت أركانها وتوطد حكمهم.

---

[1] البكرى، المصدر السابق ص 32 .

[2] م . ن. ص 34-35 .

[3] م.ن .ص 47 .

[4] د. الحبيب الجنحمانى، المصدر السابق ص 67-68 .

(5) الدولـــة الفاطميـــة:

قامت الدولة الفاطمية على أنقاض بعض الإمارات والـدويلات فـي منـاطق المغربين الأوسط والأقصى، وقد أفاد الفاطميون من نظمها ورسومها وذلـك بعـد قيام دولتهم، وكان عبيد الله المهدي اتخذ الإجراءات التى تضمن توطيـد سـلطته السياسية والإدارية ومنها تلقبه "أمير المؤمنين" وهو لقب الخلفاء العباسيين دون غيرهم، وتعيين بعض رجاله فى مناصب مهمـة فـي الدولـة مثـل المشـرفين والمنظمين لبيت المال وتسمية القضاة للقيروان ورقادة وجعل القضاء مستقلاً عن سلطته ونفوذه وتنظيم ديوان الكتابة والرسائل وديوان الخراج وديـوان الحجابـة وتعيين العمال والولاة والجباة والسعاة فى عموم منطقة دولـة الفـاطميين وفـي منطقة قابس وتقييد الموالى وأبناء العبيد وأمثالهم فى ديوان العطاء واسـتحداث الدور لضرب النقود والسكة.

ويبدو أن عبيد الله المهدي قد استأثر بما يطلق عليـه فـي الوقـت الحاضـر بالسلطة المطلقة فى الحكم، فسعى إلى تجريد أبى عبد الله قائد جيوشه ومؤسـس الحركة الفاطمية من سلطاته وإبعاد رجاله عنه ثم الإجهاز بتصفيته مبرراً ذلك بانه كان يسعى إلى إفساد هيبة الإمام المعصوم وهيبة الدولة والإحاطة به، كما جـرد بعض بطون كتامة ممن عهد إليهم وظائف فى الجيش والدولة من مناصبهم.

ويمكن القول أن عبيد الله المهدي، استطاع أن يحول الحركة الفاطمية من دعوة سرية إلى نظام دولة تقليدية مستقرة لها رئيس وموظفـون رسـميون وتقاليـد ورسوم وأنظمة وبخاصة فيما يتعلق بالنواحى الإدارية، حيث عهد إلى أنصاره من القبائل أن تقوم بالمحافظة على استتباب الأمن والقضاء على الاضطرابات وتحقيق الاستقرار كل فى منطقته وذلك من خلال تولى مناصب القضاء وتنظيم الـدواوين والحياة الاجتماعية والاقتصادية بتعيين المحتسبيين والجباة والمحصلين ومراقبـة الأسواق والإشراف على الباعة وأصحاب العتياريات.

وعلى الرغم من أن التنظيمات الاجتماعية فى القيروان هى استمرار لما كانت عليه الحال فى عهد الأغالبة الرستميين والمدراريين، غير إن هناك بعض التطورات بعد استحداث مدينة المهدية، فقد ظهرت فيها طبقة جديدة حاكمة كونتها قبيلة كتامة من مئات من بطون قبائل عجيسة وزواوة وزويلة حيث كانت تنتقل بين المهدية ومدينة زويلة. ونقرأ عن تميز المهدية بالقصور والمنشآت التى زودت بالمواجل وصهاريج المياه والاهراء وتحصينها بأسوار منيعة لها أبواب حديدية، كما عمرت بالأسواق والأرباض والحمامات والفنادق وكذلك مدينة المسيلة أو المحمدية التى جعلها الفاطميون مأوى للنازحين من الأندلس لأغراض سياسية واجتماعية.

أما المدن والمناطق التى كان ورثها الفاطميون عن الأغالبة وأهمها رقادة وتونس وقرطاجنة وطرابلس وتنس وبرقة، فقد تحركت لتتخذها بطون قبيلة كتامة وبعض القبائل الأخرى المناصرة لهم موطناً لها "فبنيت فيها القصور والبيوت والمنشآت وعمرتها فكانت لها فيها أهل وذرية وجماعة"[1] .

وكان الفاطميون وجهوا اهتمامهم لإنعاش الحياة الاقتصادية، فلم يكد يتم لهم الاستيلاء على أجزاء من المغرب الأدنى وبعض المغربين الأوسط والأقصى حتى استطاعوا أن ينشروا الثراء والرخاء بين رعاياهم لأنهم وطدوا أنفسهم على خلق حضارة تنافس حضارة العباسيين، بل ينبغى أن تتفوق عليها فى جميع الميادين وخلال حكمهم للمغرب نقرأ كثيراً من النصوص التى تقدم صورة جلية عن هذا الرخاء والغنى الذى كان عليه الناس والذى تجسد فيما بعد فى الازدهار الزراعى ونظم الري والنشاط التجاري وقيام الصناعات وتعددها واستقرار النظام النقدى وليس أول على أهمية الأحوال المالية لدى الفاطميين من توليه عبيد الله المهدي فى بداية تأسيس الدولة وقيامها لأبى جعفر الخزرى على بيت المال وأبى القاسم

---

[1] ابن عذارى، المصدر السابق ص 167.

بن القديم لديوان الخراج ولبى بكر الفيلسوف المعروف بـــابن العمـــودي لـــديوان السكة ولعبودى بن حباسة لديوان العطاء[1] .

وفى نطاق النشاط التجاري، فقد ورث الفاطميون عن الأغالبة أسس هذا النشاط وتقاليده ومؤسساته فى بلاد المغرب، فقد آلت إليهم القيروان التى كانـــت مركـــزا للتجارة العالمية ونقطة التقاء للطرق التجارية الداخليـــة والخارجيـــة إلـــى بـــلاد المشرق والأندلس، كما ورثوا موانى تنس وسوسة اللتان كانتا ترتبطان بعلاقـــات تجارية بحرية مع موانى الأندلس والإسكندرية وكذلك ما ورثه الفـــاطميون مـــن أساطيل بحرية تجارية عن الأغالبة حيث أصبحت من ممتلكاتهم.

ويصح القول أن النشاط التجاري لمدينة القيروان والمراكز التجاريـــة الأخـــرى خلال العهد الفاطمي فى المغرب هو استمرار لما كان عليه فى أواخر عهد الأغالبة مع بعض الفروق التى يمكن القول بازدياد هذا النشاط وتوسع المراكز الاقتصادية وتوطد العلاقات التجارية بعد أن أسس الفاطميون مدينة المهدية فأصبحت مينـــاءا وقاعدة لتجارتهم مع الأسكندرية وبلاد الشام والعراق وصقلية والأندلس[2].

وأخيرا فلا غرابة إذا ما أدركنا عمق التأثيرات التى تركهـــا الفـــاطميون مـــن جوانبها الاجتماعية والاقتصادية، فقيام الدولة الفاطمية فى المغرب وانتقالها إلـــى مصر هو أهم الأحداث السياسية فى القرن الرابع البحرى حيث أمتد سلطانهم على معظم بلاد المغرب ومصر وبلاد الشام والجزيرة الفرانية وكان لهم دعاة منبثـــون فى كل صقع وناحية[3].

---

[1] ناصر خسرو ، سفرنامه ص 77 ، 79 ، 91 ، 103 .

[2] قال البكرى، انها مرفأ لسفن الاسكندرية والشام وصقلية والأندلس ومرساها منقور فى حجـــر صـــلد يسع ثلاثين مركبا على طرفى المرسى (المغرب ص 30) .

[3] ابن النديم، الفهرست ص 189.

(6) دولـة المرابطـين:

اقترن قيام دولة المرابطين فى المغرب بتأسيس مدينة مراكش عاصمة لها فقد أصبحت مركزاً سياسياً ولعبت دورها فى توجيه الأحداث السياسية، والظــاهر من نظم المرابطين وتقاليدهم ورسومهم هى استمرار لما كانت عليه فــى الــدول والإمارات التى فوض المرابطون أركانها، فلم يكن غريباً أن نرى المرابطين بعــد تولى على بن يوسف بن تاشفين يشيدون إمبراطورية كبرى تستند إلــى أنظمــة وقوانين. استطاعت أن تشرعها أو تستمدها من شرائع كانت سائدة فى المنطقة.

ونلاحظ بعد ظهور مراكش والمدن الأخرى التى أسسها المرابطون، بــدأت تظهر صورة الحياة الاجتماعية المدينة، اذ تبدلت حياة أغلب القبائــل التــى كــان معظمها منتقلاً إلى حياة مستقرة وذلك بعد أن وضع المرابطون الأساس لحركــات إصلاحية بين القبائل والبطون وذلك بتشجيعها على الإقامة فى المدن و الحواضــر وبخاصة بعد أن تحولت حركتهم الدينية إلى حركة سياسية، كما عنى المرابطــون بإدخال الإصلاحات والتعمير للمدن وبذلك فهم يقــدمون صــورة واضــحة عــن اهتماماتهم فى الانتقال إلى أساليب جديدة فى الحياة الاجتماعية والمدنية، فيشــير ابن أبى زرع إلى احتلال يوسف بن تاشفين مدينة فاس فبادر إلى تحصينها وتهديم ما يفصل بين المدينتين بحيث جعلها مدينة واحدة ثم سورها وشرع فــى إبتنــاء المساجد فى احوازها وأزقتها وشوراعها فإذا اكتشف زقاقا لا يقوم فيــه مســجد عاقب أهله، وبنى فيها الحمامات والفنادق والأرجاء وأصلح أسواقها[1].

لقد كان للمرابطين الفضل فى قيام تجمعات عمرانية مهمة مثل مكناس وتلمسان ومراكش وبمرور الزمن اكتسبت أهمية اقتصادية كبيرة، حيث أصــبحت مراكــز تجارية تربط بلاد المغرب بالأندلس من جهة وبلاد المغرب والأنــدلس بالمشــرق الإسلامى من جهة أخرى وكانت مدينة مراكش تضم عناصر مختلفة من القبائــل المغربية والسودانيين الأندلسيين وقد ازدادت نفوسها فى عهد على بن يوسف بن

---

[1] الانيس المطرب بروض القرطاس ص 91 ثم انظر: ابن خلدون ، العبرج6 ص 380 . د. السيد عبــد العزيز سالم ، المصدر السابق ص 701 .

تاشفين، حتى أن سليمان عبد الغنى مالكه لا يبالغ كثيراً فى أن عدد سكانها قد بلغ نحو المليون[1] وعلى الرغم من أن قبائل صنهاجة وهم لمتونة وجدالة وسوفة ولمطة يشكلون الغالبية فى عدد السكان ولكن العرب المشارقة تزايد وجودهم فى هذا العهد حتى أقيمت لهم جامعة قوية فى تلمسان تتحكم فى الطريق إلى المغرب الأقصى، ومهما يكن من أمر فإن الاستقرار والازدهار الاقتصادى أدى إلى نمو سكان العاصمة مراكش حتى أنها احتوت على مائة قبيلة[2] .

ومن المفيد أن نشير إلى انقسام مجتمع مدينة مراكش فى عهد المرابطين اللى فئات ثلاث رئيسية، الفئة الأدنى التى انحصرت فيها السلطة وتتمثل فى يوسف بن تاشفين وأولاده وأحفاده من بعده وقد تمتعت هذه الفئة بالرئاسة والسيادة ليس فى مجتمع مدينة مراكش، بل فى جميع المجتمع المغربي واستأثرت قبيلة لمتونة بالمناصب المهمة بالمدينة فاكتسبوا الأموال وحازوا رقاب الرجال وكثروا فى كل مكان وساعدهم الوقت والزمان[3].

والفئة الأخرى تتمثل فى "الكافة" التى نسميها المصادر "العامة" وهم من أهل المدن والحواضر. أما الفئة الثالثة فهى المتفرقة من القبائل الضاعنة والمتجولة فى خارج المدن ومضارب البراري والصحراء.

وظهرت المرأة فى الحياة الاجتماعية فى دولة المرابطين، وكانت السيدة زينب زوجة يوسف بن تاشفين تتمتع بمكانة عظيمة وتشترك فى شئون الدولة المختلفة كما برزت تميمة بنت يوسف بن تاشفين طالبة للعلم وحافظة للشعر وقد اتخذت الكتاب وظهرت أمامهم فى غير حياء ولا خجل [4].

---

[1] بحثه الموسوم، بعض ملامح الحياة الاجتماعية فى مدينة مراكش فى عصر المرابطين والموحدين ، مجلة الداره / العدد الثالث / السنة الثامنة عشر 1986 / ص 176 .

[2] م . ن . ص 180.

[3] م. ن . ص 177 نقلا عن ابن عذارى، البيان المغرب ج 4 ص 25 .

[4] ابن عذارى، البيان ص 26 .

وكان المرابطون يعيرون اهتماماً بسبل الحياة لسكان المدن، بتوفير المياه اللازمة للشرب والدواب فاحتفروا الآبار وانشأوا الصهاريج الكبيرة وعملوا السقايات واستغلوا مياه العيون كما شقوا الطرق وعبروها وبنوا القصور للأمراء وكبار رجال الدولة [1]، إلى جانب ذلك فقد حرص المرابطون على عقد مجالس العلم يحضرها الأمراء والعلماء والأدباء ورجال الدولة ، كما أوجدوا مجالس لبحث مشكلات الدولة والحياة الاجتماعية التي يواجهها الناس، وهناك أيضاً مجالس الوعظ والمجالس العامة التي كان يعقدها الأمراء وكبار رجال الدولة في قصورهم ويحضرها الأدباء والشعراء وكان للفقهاء والعلماء، المكانة الخاصة لدى أمراء المرابطين حيث جعلوا منهم فئة مرهوبة الجانب مسموعة الكلمة وأصبح لهم دور بارز في الحياة السياسية والاجتماعية العامة وسيطروا سيطرة تامة على مقاليد الأمور، وهذا يعكس صورة الحياة الاجتماعية لهذه الفئة المهمة في المجتمع المرابطي.

أما عناصر السكان من غير المسلمين في دولة المرابطين، فهناك جماعات متفرقة من النصارى واليهود في بلاد المغرب، وقد عاشوا في ظل التسامح الديني يباشرون أعمالهم المختلفة وخاصة في مجال التجارة والصناعة، والظاهر أن المرابطين لم يتعرضوا لهم ولطقوسهم وحرياتهم الدينية لسوء فيما عدا بعض الحالات التي أساء فيها هؤلاء تصرفاتهم فصب عليهم المرابطون جام غضبهم فعاقبوهم واخذوا العهود منهم [2].

إن الاهتمام الذي كان يوليه المرابطون في إصلاح أسواق المدن، يدل على تنشيطهم للحياة الاقتصادية ووضع الأساس لها، فقد وصف الأدريسي مراكش في

---

[1] ولعل هناك بعض النسوة كن يرفعن الحجاب عن وجوههن في الطرقات العامة أو في الأسواق وقد ذكر النويري ما يشير الى ان محمد بن تومرت .

[2] كان على بن يوسف بن تاشفين يتخذ بين حين وآخر إجراءات إخراج اليهود من مراكش ليلا فيما يسمح لهم بالعمل بها نهارا وذلك لانه كان يخشى ان يغدروا بالمسلمين (سليمان عبد الغني مالكه ، المصدر السابق ص 182) .

عهد المرابطين بان وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة [1] مما يوضح لنـا النشـاط التجارى فى دولة المرابطين، كما قامت فى المدن الجديدة التى أسسها المرابطون وكذلك فى المدن التى وقعت فى مناطق نفوذهم صناعات أصبحت بضائع تجاريـة ينقلها التجار إلى الآفاق وكانت الأعمال التجارية فى مراكش قـد انقسـمت إلـى قسمين، التجار الذين اختصوا بالتجارة الخارجية وكانوا يستوردون إن يصـدرون إلى الدول والأقاليم المجاورة والبعيدة مختلف أنـواع السـلع والبضـائع وتجـار التجزئة الذين كانوا يبيعونه بضائعهم فى متاجرهم وحوانيتهم وقـد زادت أهميـة التجار والتجارة باحتلال مراكش مكانتها فى بلاد المغرب الأقصى[2].

أما نقود المرابطين وسكتهم، فقد أكد ابن عذارى، انه فى سنة 464 هـ، ضرب الأمير يوسف بن تاشفين، السكة بدراهم مدورة زنة الدرهم منها، درهم وربع من الفضة سكة من حساب عشرين درهماً للأوقية، وهو الدرهم الجوهري المعلوم فى تلك الحقبة، كما ضرب أيضاً الدينار الذهبي باسم الأمير أبى بكر بن عمر وذلك فى دار السكة فى مدينة مراكش[3] .

وقد كانوا سعوا إلى هذا الإجراء حالما أتموا بناء مراكش وأقاموا دار السـكة فضربت فيها دراهم فضية ودنانير ذهبية، يبـدو إن المـرابطين كـانوا يبـذلون محاولاتهم لكى يرفعوا من قيمة نقودهم فيزيدون وزنها وعيارها ويتجملون فـى حجمها لكى يجعلوها عملة مطلوبة تفرض وجودها وتضاهى العملات فـى الـبلاد الإسلامية الأخرى.

أما الروايات التى يسوقها بعض المؤرخين والكتاب التى تعزو سبب خـروج المرابطين من الصحراء يرجع إلى عوامل اقتصادية تقوم على رغبة المرابطين فى

---

[1] نزهة المشتاق ص 55 .

[2] وجد اسم تاجر من الأسكندرية مات فى ميناء المرية الاندلسي سنة 519 هـ حيث كانت الأندلس تحت نفوذ المرابطين، وكان منقوشا على احد قبور المدينة ما يدل على انه مات أثناء سفره وهو ينقل تجارة من الأقمشة الفاخرة ذات الشهرة العالمية (د.حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ج4 ص 409)

[3] البيان المغرب ج4 ص 131.

التحكم فى طرق التجارة الشمالية والتمتع بأراضي المغرب الخصبة، فان اغلبها صحيحة إلى حد ما وذلك إلى جانب العوامل الأخرى وذلك على الرغم من أن الطريق التجاري الصحراوى الممتد بين اودغست جنوبا وسجلماسة شمالا، كان طريقاً معروفاً منذ القديم، وكذلك كانت قبائل صنهاجة التى حملت راية المرابطين ودعوتهم تعيش فى مناطقها الصحراوية وتقاسى أهوال الجدب والقحط[1].

(7) دولة الموحدين:

قامت فكرة الموحدين لتأسيس دولتهم السياسية على مبدأ "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" ووجوب الاعتماد فى استقاء الأحكام على القرآن والسنة بإعتبارهما شريعة المجتمع دون غيرهما وموافقة آراء أبى الحسن الاشعرى "مذهب الاشعرية" سوى مسألة الصفات فأنهم وافقوا المعتزلة فى نفيها.

وضمن هذه التوجهات، فقد خالفوا المرابطين فى آرائهم لتولى أمر الحكم فى الدولة السياسية وتنظيماتها الإدارية والعسكرية، ولكنهم قطعاً قد أفادوا كثيرا مما كانت عليه الدول والإمارات السالفة عليهم فى بلاد المغرب من رسوم وقوانين وضعية مع التمسك بما يرون أحقيتهم فى الخلافة دون غيرهم من المسلمين لأنهم – على حذر عمهم – من أكثر المسلمين إيمانا وأصحهم مذهبا، مما جعل علاقاتهم بالخلافة العباسية متردية لتجاوزهم على سلفتها الروحية التى تحكم العالم الإسلامى فضلاً عما عرفوا به من تنظيمات خاصة بهم، فقد رتبوا مؤسسة السلطة السياسية على شكل هرمي يبدأ بالقمة التى يمثلها أهل العشرة وفى مقدمتهم محمد بن تومرة ثم أهل الخمسين ويليهم أهل السبعين ثم المائة وأخرهم أهل الألف. وهذه الطبقات مؤلفة من رجال القبائل والعناصر والأقوام التى انضوت تحت سلطانهم وكان لهذا التأليف الهرمي فى السلطة شروط وقوانين وأحكام تحدده. وكان لأهل العشرة أو لأصحاب العشرة السلطة المطلقة فى تصريف شئون الدولة

---

[1] د. حسن إبراهيم حسن ، المصدر السابق ص 415 ، د. احمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس ص 276، سليمان عبد الغنى مالكة، المصدر السابق ص 181.

والجيش والرعية، فمنهم الخلفاء والأمراء والقادة وأصحاب الدواوين وكبار الموظفين، ولم يكن للفقهاء والعلماء ذلك الدور البارز فى رسم سياسة الدولة والسيطرة على مقدرتها ومقاليد الأمور فيها كما كان الحال عليه أيام دولة المرابطين.

شهدت مراكش فى عهد الموحدين تقدما، فقد اهتموا بها أقاموا فيها كثيرا من المنشآت وقصدها الناس من كل مكان حتى اكتظت المدينة بسكانها واضطر خلفاء الموحدين على توسيعها فضمت عناصر سكانية متباينة وفى مقدمتها القبائل المغربية الموالية وهى العناصر الغالبة فى سكان المدينة، وكانت قبيلة المصاعدة التى قامت على أكتافها دولة الموحدين، تستأثر بالنفوذ الاجتماعي والسياسي فى المدينة لأنها كانت من اكبر قبائل المغرب وقد احتلت مركز الصدارة فى المغرب الأقصى وأصبحت لهم منزلة كبيرة لدى الموحدين ويأتي العرب المشارقة ليمثلوا العنصر الثانى من السكان، وقد بدأت صلة الموحدين بهؤلاء منذ عهد الخليفة عبد المؤمن بن على، حين أذاع بين الناس نسبة العربى[1]. وقد حرص الموحدون على تشجيع هؤلاء للهجرة من أفريقيا إلى المغرب الأقصى فاستقر كثير منهم حول مراكش وشاركوا فى الحياة الاجتماعية، كما كان بعضهم جندا فى جيش الموحدين فأقطعوهم بعض الأراضى وأنفقوا عليهم النفقات الواسعة[2] والى جانب قبيلة المصامدة وبعض القبائل الأخرى المساندة والعرب المشارقة ، فهنالك أجناس أخرى صغيرة من السودانيين والروم والصقالبة إذا استخدم الموحدون منهم فى جيوشهم ، كما شاركت الجوارى السودانيات فى الحياة الاجتماعية فى مدينة مراكش حيث عرف عنهن مهارات فى طهى الطعام وإعداده[3] ، ومن العناصر الأخرى التى سكنت مراكش الأتراك الغز فانضم بعضهم إلى الجيش وصارت لهم الأعطيات والمرتبات الشهرية والاقطاعات[4] ، وكان لقبيلة كومية أيضا مكانها فى المجتمع الموحدى ، فقد تولى بعض أفرادها "الوزارة" .

---

[1] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب ص 183 .
[2] ابن عذارى، المصدر السابق ص 152 .
[3] كتاب الإستبصار فى عجائب الأمصار ص 216 .
[4] ابن الأثير، الكامل ج 8 ص 296 .

نستخلص من ذلك أن الموحدين استحدثوا من فئات السلطة الحاكمة ، مسلماً اجتماعياً جديداً ، أرسى قواعده محمد بن تومرت ، فقد اختص من استجاب لدعوته بمكان الصدارة فى الدولة فقد لقبائل هرغة وهنتاتة وجنفسية وهزرجة ووريكة وكوفية ، كثيراً من البر والكرم فضلاً عن العطاء المنظم ، وبذلك ظهر المجتمع فى عهد الموحدين فى أربع عشرة فئة ، أولها أهل الجماعة وآخرها فئة "الغرات" وهم الموالى[1]. وتتمتع هذه الفئات بحسب سلمها الإجتماعى بالامتيازات والاعطيات والمرتبات ، كما إن علماء الموحدين كانت لهم منزلتهم اللائقة بهم وكذلك القضاة ورجال القضاء حيث كانت لهم كلمتهم المسموعة لدى الخلفاء والأمراء والقادة .

ولم يكتف الموحدون بما وجدوه فى البلاد من القصور والمنشآت العامة بل زادوا عليها ومن أشهر قصورهم "قصر الحجر" الذى شيده على بن يوسف بن تاشفين وقصر الخليفة عبد المؤمن بن على كما شهدت مراكش إنشاء العديد من المساجد منها المسجد الكبير الذى أنشأه يوسف بن تاشفين والمسجد الجامع الذى أقامه عبد المؤمن بن على والمعروف بجامع "الكتبيين" وأسسوا كذلك المدارس التى ألحقت بالقصور لتخريج الحفاظ والقراء والمحدثين. وسعوا أيضاً إلى بناء البيمارستانات " المستشفيات " ومنها البيمارستان فى مدينة مراكش الذى اشرف على تشييده عبد المؤمن بن على وكذلك إقامة الحمامات العامة والفنادق والأسواق المسقفة.

أما الاحتفالات الدينية فمن أهم مناسباتها صلاة الجمعة والاحتفال بقدوم شهر رمضان والاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى وكذلك الاحتفالات والمهرجانات

---

(1) الموالى تعنى السادة أو العبيد على السواء والمقصود هنا العبيد أو الإماء (ويأتي بعد أهل الجماعة ، أهل الخمسين وأهل السبعين ومعهم الطلبة "وهم علماء الموحدين" والحفاظ "وهم صغار الطلبة" ثم أهل الدار (أفراد البيت الموحدى)

ثم أهل هرغة (قبيلة محمد بن تومرت) ثم أهل تيمنلل ثم قبيلة كدميوه او جديموه ثم أهل حنفيسة وأهل حفتاته ثم تليها القبائل التى ناصرت الموحدين فى البداية وليست من قبيلة مصمودة ثم الجند وأهل العساكر (ابن عذارى ، البيان ص، 154 ، سليمان عبد الغنى مالكه ص 178) .

العسكرية التى كانت تتضمن استعراض الجند والعساكر قبل الخروج إلى الحرب إضافة إلى الاحتفالات بالوفود والسفراء والمبعوثين ورسل الملوك والأمراء والقادة أو عند الانتهاء من تشييد أحد المساجد أو الجوامع أو القصور أو المدارس أو لدى العفو عن المسجونين والمحبوسين.

ومن المظاهر الاجتماعية ارتياد الناس للحدائق والمتنزهات ومنها "الحديقة الكبرى" التى أمر بإنشائها وغرسها الخليفة عبد المؤمن بن على والبستان الكبير بمراكش الذى كان خصيصا للأمراء كما أقيمت وسط هذه المتنزهات البرك التى أشبه ما تكون بالمسابح فى الوقت الحاضر.

وعلى الرغم من إن خلفاء الموحدين وأمرائهم وبخاصة الأوائل منهم كانوا عزوفين عن متع الحياة ومباهجها مما يحول دون ممارسة الرعية لها وخصوصاً فيما يتعلق بالغناء والموسيقى ولكن التأثيرات التى تركتها الأندلس فى هذا الجانب أصبحت مجالس الغناء والموسيقى والطرب تعقد فى قصور الحكام والأمراء.

ويولى الموحدون اهتمامهم بالنواحى الاقتصادية فقد تميزه مراكش فى عهودهم بنشاطها التجاري حيث أصبحت لا تقل شهرة عن المراكز التجارية الذائعة الصيت مثل القيروان وتاهرت وسجلماسة واودغست وغيرها ويتوضح حجم هذا النشاط التجاري مما ورد عن كارثة الحريق الذى شب فى سوق مراكش سنة 607 هـ حيث ذهبت أموال جسيمة لا تحصى للتجار الواردين والقاطنين والقاصين والدانين وأدى إلى افتقار طبقة كبيرة من ذوى اليسار والثروة[1] وينقل ابن عذارى، إن الخراج بلغ فى عهد الموحدين مائة وخمسين بغلاً من أفريقيا وحدها عدا بجاية وأعمالها وتلمسان وأعمالها وان عبد المؤمن بن على وجه همه لتشجيع الزراعة وإصلاحها وتنظيم الحياة الاقتصادية يساعده فى ذلك اتساع رقعة دولة الموحدين واستتباب الأمن فيها واستقرار الحياة الاجتماعية وتشجيع التجارة والصناعة[2] لذلك فان الازدهار الإقتصادى الذى عرفته دولة الموحدين يجد موارده من الأندلس الغنية بثرواتها فضلا عن بلاد المغربين الأوسط والأقصى.

---

[1] د.حسن إبراهيم حسن ج 4 ص 416، سليمان عبد الغنى مالكه، المصدر السابق ص 181 .

[2] البيان المغرب، المصدر السابق ص 33.

لقد ضمت مراكش العديد من أصحاب الحرف والصناع الذين كونوا فيما بعد طوائف عدة وكان معظم هؤلاء الحرفيين قد استبقى الموحدون على حياتهم لدى دخولهم مراكش للاستيلاء عليها وانتزاعها من المرابطين اذ حرص عبد المؤمن بن علي على حياة الحاذقين والنابهين منهم لاحتياج الدولة إليهم[1] وخاصة في إنتاج الأسلحة والبناء والتشييد ونشر الثقافة وغيرها من مظاهر العمران[2] .

(8) إمارة بني مرين:

قامت دولة بني مرين بعد الانهيار الذى منيت بد دولة الموحدين حيث فقدت نفوذها وسلطتها فى بلاد المغرب والأندلس فتمكنوا من مؤسساتها الإدارية والسياسية والعسكرية أعلنوا استقلالهم فيما كانوا يحكمونه ويديرونه من أملاك دولة الموحدين المترامية الأطراف.

ويمكن القول أن قوانين الموحدين ورسومهم ونظمهم وشرائعهم ظلت سارية المفعول فى دولة بنى مرين الذين يمثلون فى واقعهم ورتتهم السياسيين والإداريين فقد اتخذوا من مراكش عاصمة لهم بما يسرى فيها من تنظيمات سياسية وإدارية كان الموحدون أوجدوها ونحتوها لدولتهم وكانت البداية الحقيقية لبنى مرين كدولة سياسية وإدارية فى منطقة المغرب الأقصى وهى تلعب دورها المهم على نطاق المغرب الإسلامى فى عهد أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الذى سيطر على مراكش سنة 668 هـ ولما كانت الدولة المرينية قد بسطت سيطرتها من برقة شرقاً إلى منطقة السوس الأقصى والمحيط الأطلسى غربا فلابد لها أن تعتمد ما كان سائداً فى حكمها وإدارتها فى هذه المنطقة المتسعة الأرجاء وبخاصة فيما يتعلق بالدواوين وإدارة الجيوش والموظفين والعمال وأعطيتهم ومرتباتهم والاقطاعات التى كانت تمنح لهم وكذلك بتعيين القضاة والجباة وتنظيم ادارة المدن والحواضر والحياة الاجتماعية ويزودنا ابن الأحمر بمعلومات مفيدة عن أحوالها الاجتماعية وذلك من خلال الحديث عن مدينة فاس فيشير إلى أن بنى مرين اهتموا

---

[1] سليمان عبد الغنى، المصدر السابق ص 182.

[2] د. حسن إبراهيم حسن ج 4 ص 417-418.

بفاس اهتماما خاصا واعتنوا بأمرها وبنوا مدينة ألحقت بهـا سـميت "المدينـة البيضاء" وعرفت "فاس الجديدة" اذ اتخذوها دارا للإدارة[1] وكانوا أقاموا أسوارها وجامعها وأسواقها[2] واختط الناس فيها الدور والمنازل وأجريت فيها المياه إلـى القصور وأقيمت القناطر بطرقاتها مثل قنطرة وادى البخار وقنطرة مـرين[3] كمـا ابتنيت فى المدينة الجديدة الأسواق والحمام العظيم والقصور للـوزراء وعمـرت بالأسواق والمدارس والفنادق[4] وأجريت إليها المياه عن طريـق وادى الجـواهر وغدير الحمص[5] ووضعها ابن الخطيب "بأنها كالصباح أفق للغرر الصباح فيهـا منابت الروح المفترس ومجالس الحكم الفصل ودواوين الكتاب وخزائن محمولات الاقتاب وكراسى الحجاب وعنصر الأمر العجاب " [6] أما ابن أبى زرع فيلقى ضوءا مفيدا على المدينة الجديدة فاس فى عهد بنى مرين فيقول:"جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء واعتدال الهواء وطيب التربة وحسن الثمرة وسعة المحـرث وبهـا منازل مونقة وبساتين مشرقة ورياض مورقة وأسواق مرتبـة منسـقة وعيـون منهمرة وانهار متدفقة منحدرة وأشجار ملتفة وجنات دائرة بها مجتمعة"[5] وبذلك يشير هذا المؤرخ من طرف خفى إلى ازدهار الزراعة حيث تتخلل الأنهار ديارهـا وبساتينها وجناتها وشوارعها وأسواقها كما يذكر ابن الخطيب ما يدل علـى هـذا الازدهار فيقول: " وقيدت طرف الناظر المفتون ادواح الشجر بها وغابات الزيتون زيتها يعصر وخيرها لا يقصر وفواكهها لا تحصى ولا تحصر" [6] كمـا إن هنـاك بعض الصناعات التى كانت تقوم على حطب البلوط والفحـم وكـذلك إقامـة دور

---

[1] روضة النسرين في دولة بنى مرين ص 19.

[2] ابن أبى زرع، الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ص 186، 187.

[3] م. ن. ص 99.

[4] ابن الأحمر، روضة النسرين ص 20 .

[5] م. ن. ص 20 .

[6] مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ص 112.

[5] الذخيرة السنية ص 528، ثم انظر الجزنائى، زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ص 25، 26.

[6] شاهدات ص 108.

لصناعة القوارب والسفن الصغار المعروفة (بالحبالات) ووجود بعض الصناعات المحلية التى كان يزاولها الصناع والحرفيون والأرجاء المنصوبة على الأنهار تطحن الحبوب ويخرج منها حمل أثقالها واقذارها ورماداتها [1].

وهكذا فان عهد بنى مرين يعد استمرارا لما كان عليه عهد الموحدين فيما يتعلق بالأحوال الاقتصادية من تجارة وزراعة وصناعة وكذلك بما يختص بالأحوال الاجتماعية وعناصر السكان فى المدن ومظاهر أحوالها والحياة العامة فى الحواضر وبخاصة فى مدينتي مراكز وفاس وأحوال القبائل وخططها ومساكنها.

والظاهر إن بنى مرين نقلوا كثيرا من مظاهر الحضارة الأندلسية إلى بلادهم وخصوصا ما يتعلق بمظاهر العمران والعناية بالزراعة ومتطلباتها فاستقبلوا الأندلسيين الماهرين والحاذقين والمهندسين والبناءين وذوى الخبرة فى الصناعة، وكذلك العلماء والفقهاء والمدرسين وأصحاب الفن، وقد درجوا فى ذلك على ما كان يقوم به الموحدون فى هذه الجوانب.

---

[1] ابن أبى زرع، المصدر السابق ص 529 .

المصادر والمراجع

1- المصادر الأولية.
2- المراجع الثانوية.
3- البحوث والأطارح.
4- المراجع الأجنبية.

المصادر والمراجع

أ-المصادر الأولية:

ابن الأثير، عز الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت 630 هـ / 1232م)

1-الكامل فى التاريخ (بيروت – 1966)

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى(ت 658 هـ/ 1258م)

2-الحلة السيراء (القاهرة – 1963)

البلاذرى، أبو العباس أحمد بن يحيي بن جابر (ت 279 هـ / 892م)

3-فتوح البلدان (القاهرة – 1956)

الباروني، النفوسي سليمان بن عبد الله (ت 559 هـ / 1940م)

4-الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك ج2 .

5 -مختصر تاريخ الاباضية (تونس – 1958)

الجزنائى، أبو الحسن على (ت أواخر القرن الثامن الهجرى)

6-كتاب زهرة الأس فى بناء مدينة فاس (الجزائر – 1923)

ابن حزم الأندلسي، على بن أحمد بن سعيد (ت 456 هـ / 1063 م)

7-جمهرة أنساب العرب (دار المعارف بمصر – 1962)

ابن حوقل النصيبى، أبو القاسم محمد البغدادي الموصلي (ت367 هـ/977 م)

8-صورة الأرض (بيروت – 1938)

الحميدى، أبو عبدالله محمد بن أبى نصر فتوح بن عبدالله الازوى (ت488هـ/1892 م)

9-جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس (القاهرة – 1966 م)

الحميرى، أبو عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي (ت القرن التاسع الهجرى)

10-صفة جزيرة الأندلس (قطعة من الروض المعطار فى خبر الأقطار (القاهرة1937)

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هت / 1405 م)

11-العبر وديوان المبتدأ والخبر 0مصر - بولاق 7 أجزاء)
ابن خلكان، أبو العباسى شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681 هـ / 1282م)
12- وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان (مصر - 1310هـ)
ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (توفى فى حدود 300 هـ)
13-المالك والممالك (باعتناء دى غريه (بريل، ليدن - 1889م)
الدرجينى، أبو العباس أحمد (ت منتصف القرن السابع الهجرى)
14-طبقات الاباضية (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 12561 خ)
الدباغ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى (ت 690 هـ / 1296 م)
15-معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان (تونس - 1230 هـ)
الرقيق القيروانى، إبراهيم بن القاسم(توفى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى)
16-تاريخ أفريقيا والمغرب (تونس - 1988)
أبو زكريا، يحيي بن أبى بكر (ت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى)
17---السيرة وأخبار الأئمة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 19030 خ)
السلاوى، أحمد بن خالد الناصري (ت 1319 هـ / 1901 م)
18-الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدار البيضاء - 1954)
الشماخى، احمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت 928 هـ / 1521 م)
19-السير (القاهرة - الطبعة الحجرية)
ابن شاهين الظاهرى، غرس الدين خليل (ت 873 هـ / 1468 م)
20-زبدة كشف الممالك وبيان الطرق بالمالك (باريس - 1894م)
الأصطخرى، أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت 341 هـ / 952م)
21-مالك الممالك (القاهرة - 1961)
ابن الصغير المالكى (ت نهاية القرن الثالث الهجرى)
22-أخبار الأئمة الرستميين (باريس - 1958)
أبو عبيدة، مسلم بن أبى كريمة (ت أولخر القرن الثانى الهجرى)
23-رسالة فى أحكام الزكاة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 21582ت)

أبو عبيد البكرى، عبد الله بن عبد العزيز (ت 487 هـ / 1094م)

24-المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب (الطبعة الأوروبية -1857 م)

عبد الله بن أبى عبد الله المالكى (ت نهاية القرن الرابع الهجرى)

25-رياض لنفوس فى طبقات القيروان وأفريقية (القاهرة-1951)

ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن القرشي المصرى (ت 276 هـ/889م)

26-فتوح مصر والمغرب (القاهرة - 1961)

27-فتوح أفريقية والأندلس (الجزائر - 1947)

فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت 742 هـ / 1341م)

28-مالك الأبصار فى ممالك الأمصار(نشر أحمد زكى باشا(القاهرة/ 1924)

أبو الفدا، اسماعيل بن على بن عماد الدين صاحب حماة (ت732 هـ/1331 م)

29-المختصر فى أخبار البشر (القاهرة - 1325م)

30-تقويم البلدان (طبعة باريس - 1840)

القزوينى، أبو عبد الله زكريا الأنصارى (ت 628 هـ / 1230م)

31-آثار البلاد وأخبار العباد (دار صادر دار بيروت - 1960)

لسان الدين بن الخطيب محمد (ت 940 هـ / 1533 م)

32-أعمال الأعلام، القسم3 (دار الكتاب، الدار البيضاء - 1964)

مجهول (من أهل القرن الثالث الهجرى)

33-أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها (مدريد - 1867م)

مجهول (من أهل القرن السادس الهجرى)

34-الإستبصار فى عجائب الأمصار (الأسكندرية - 1958)

محمد بن احمد بن تميم العرب (ت 333 هـ / 944م)

35-طبقات علماء أفريقية (باريس - 1915)

محى الدين عبد الواحد بن على المراكشى (ت 647 هـ / 1247م)

36-المعجب فى تلخيص أخبار المغرب (القاهرة - 1949)

المقرى، احمد بن محمد (ت 1041 هـ / 1623م)

37-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (القاهرة – 1949)
المقدسي البشارى، محمد بن احمد (ت 375 هـ / 985 م)
38-أحسن التقايم فى معرفة الأقاليم (ليدن – 1907)
النعمان، أبو حنيفة المغربي (ت 636 هـ / 973م)
39-رسالة افتتاح الدعوة وابتداء الدولة (بيروت – 1970)
الوسيانى، أبو الربيع عبد السلام (ت 471 هـ /
40-سيرة أبى الربيع بن عبد السلام (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 911م)
اليعقوبى، أحمد بن أبى يعقوب بن واضح (ت 284 هـ / 897م)
41-كتاب البلدان (ليدن- 1891م)
42-التاريخ (النجف – 1358 هـ)
ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي (ت 626 هـ / 1228م)
43-حجم البلدان (بيروت – 1957)

مصادر مضافة أخرى:

ابن أبى دينار، أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم (ت 1092 هـ / 1681م)
44-المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس (المكتبة العتيقة ، تونس – 1967)
الأدريسى، الشريف أبو عبد الله محمد (ت 558 هـ / 1162م)
45-صفة المغرب وارض السودان ومصر (قطعة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق- ليدن – 1894م)
ابن ايبك الداوداري، أبو بكر بن عبد الله (ت حوالي 736هـ /1335م)
46-الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية (كتاب كنز الدور وجامع الغرر القاهرة – 1972)
ابن عذارى المراكشى، أبو عبد الله محمد (ت 695هـ / 1295م)
47-البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب (أربعة أجزاء)
الأول والثانى تحقيق ج.س كولان وليفى بروفنسال-دار الثقافة- بيروت- 1929

الجزء الثالث والرابع تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت

ب-المراجع الثانوية:

اسماعيل أحمد

48-نبذة فى تاريخ الصحراء القصوى (باريس - 1911)

د. إحسان عباس

49-العرب فى صقلية (القاهرة - 1959)

آدم متز Adam Mitiz

50-الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى(مجلدان: ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة وبيروت - 1967)

الدكتور حسن إبراهيم حسن

51-تاريخ الإسلام السياسي والدينى والثقافي ج3 (القاهرة - 1965)

52-تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة - 1958)

الدكتور حسن احمد محمود واحمد إبراهيم الشريف

53-العالم الإسلامى فى العصر العباسى (دار الفكر العربى-1977)

54-قيام دولة المرابطين (القاهرة-1957)

حسن حسنى عبد الوهاب

55-ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية (3 أجزاء تونس-1965، 1966)

الدكتور الحبيب الجنحانى

56-المغرب الإسلامى (تونس - 1976)

الدكتور السيد عبد العزيز سالم

57-المغرب الكبير ج2 (العصر الإسلامى) القاهرة-1966)

عثمان الكعاك

58-مراكز الثقافة فى المغرب (القاهرة - 1958)

الدكتور محمود اسماعيل

59-الخوارج فى المغرب الإسلامى (بيروت-1976)

الدكتور محمد حمدي المنياوي

60-الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمي (القاهرة-1970)

الدكتور موسى لقبال

61-دور كتامة فى تاريخ الخلافة الفاطمية (الجزائر-1979)

الدكتور محمد على دبوز

62-تاريخ المغرب الكبير (القاهرة-1943)

فاسيلى بارتولد Barthold .W.

63-تاريخ الحضارة الإسلامية (دار المعارف مصر- 1958)

ليفى بروفنسال Leve-Provencal

64-الإسلام فى المغرب والأندلس (القاهرة-1958)

ج-البحوث والأطارح:

بحاز إبراهيم بكير "أطروحته للماجستير المرسومة"الدولة الرستمية"

(جامعة بغداد-1983).

د.سوادي عبد محمد، بحثه " اباضية البصرة وتأثيراتها الفكرية والسياسية فى اباضية المغرب فى القرن الثانى الهجرى/ مجلة كلية التربية / العدد8 / جامعة البصرة-1982".

وبحثه " تأثر الفكر الأندلسي بالحركة العلمية فى المشرق الإسلامى مجلة عالم الفكر/ المجلد الثالث عشر/ العدد الثانى/ دولة الكويت-1982

د.سليمان عبد الغنى مالكة، بحثه " بعض ملامح الحياة الاجتماعية فى مدينة مراكش فى عصر المرابطين والموحدين / مجلة الدارة العدد الثالث / السنة الثانية عشرة المملكة العربية السعودية – 1986.

د-المراجع الأجنبية:

1. Andre Julien, Historie De A Frique du Nord (Paris-1951)
2. Farhy, Dr.A.Persian dansty in North Aerica, The Rustamides, The Islamic Review (England- 1962)
3. Hopkins Medivcal Moslem government in Barbary untilc the 6th cetury of Hijra (London,1958)
4. Heyed, W. Hostoire du commerce du levant au Mogen-Age (
5. Marcais, La, Berberie Musulmane et orient au Mogen-age (Paris, 1946)
6. Lewcki, melanges Berberes Ibadites Revue Des et udes Islamiques Annce cahier (Paris-1930).
7. Prescott, History of Ferdinand and Isabella the catholic (London sonnenechein)
8. Terasse, Historie du Moroco, des oriyines A, Letablissenient du protectoral Francais (casablanca-1949).

الخرائط والمصورات والمخططات

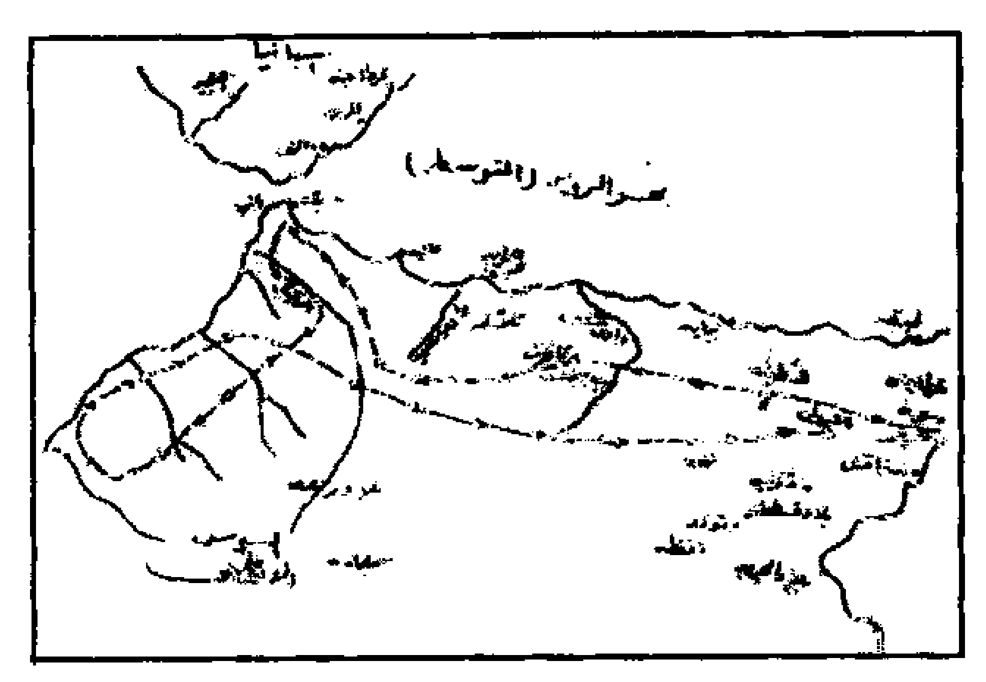
1- مخطط حملة عقبة بن نافع في المغرب الأقصى

2- خريطة الإمارة الرستمية

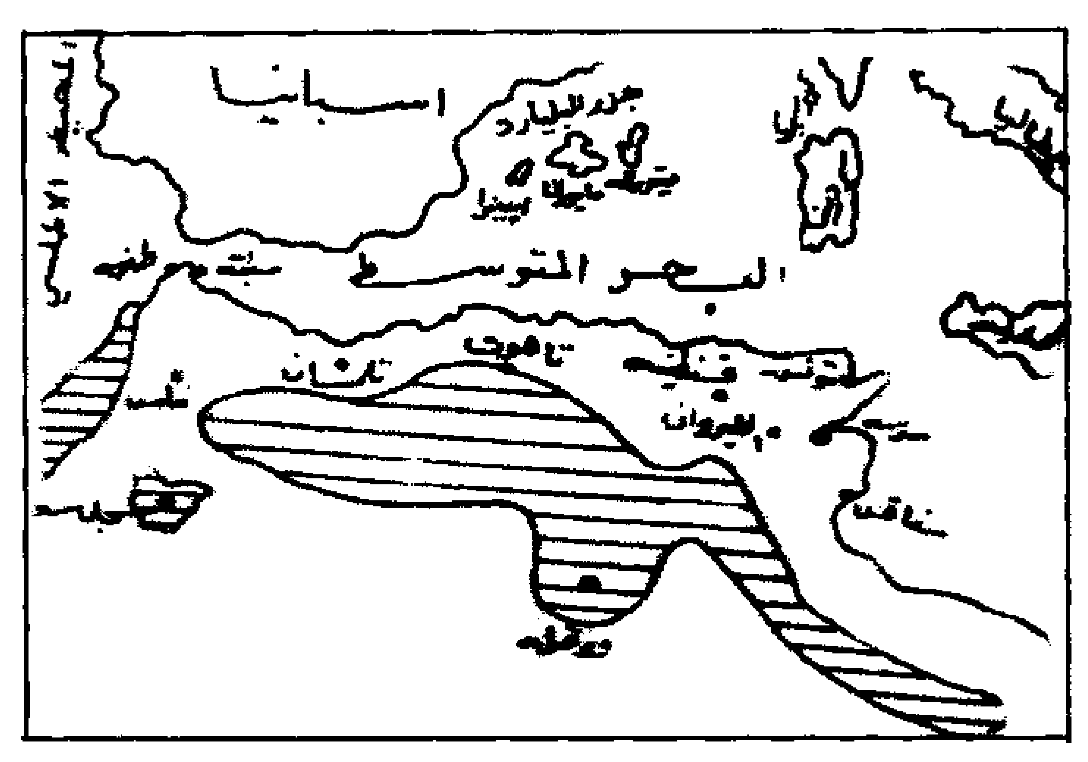
3- خريطة إمارة الأغالبة

4- خريطة إمارة الأدارسة

5- خريطة الدولة الفاطمية

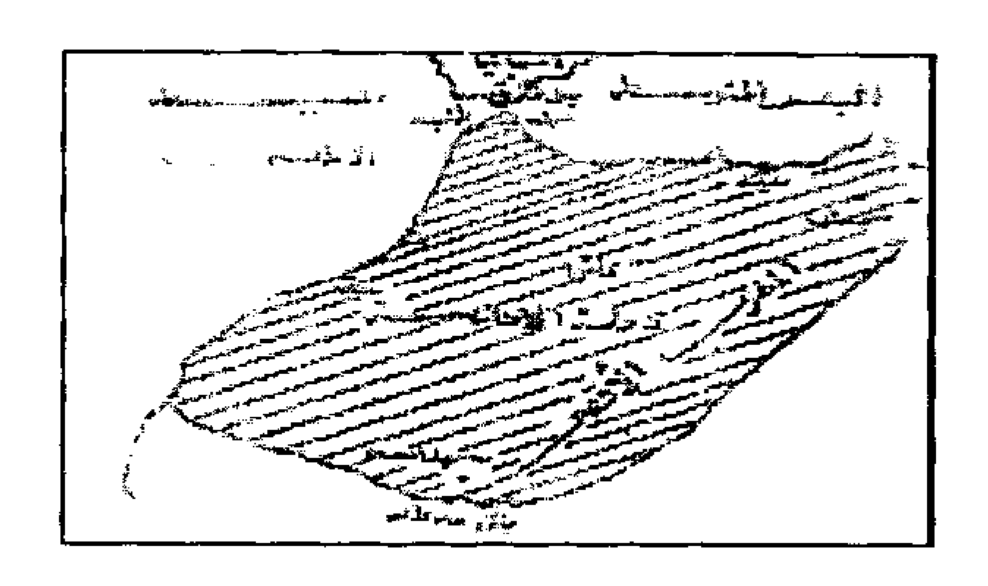


مخطط حملة عقبة بن نافع فى المغرب الأقصى



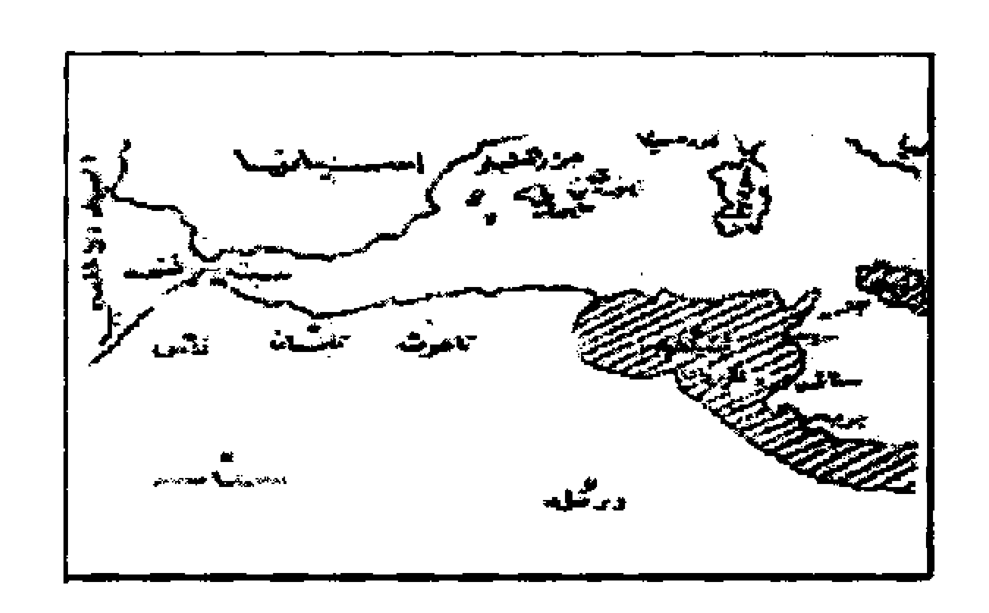
الإمارة الرستمية

(نقلاً عن الموسوعة العسكرية ج2 ط1 بيروت 1979)



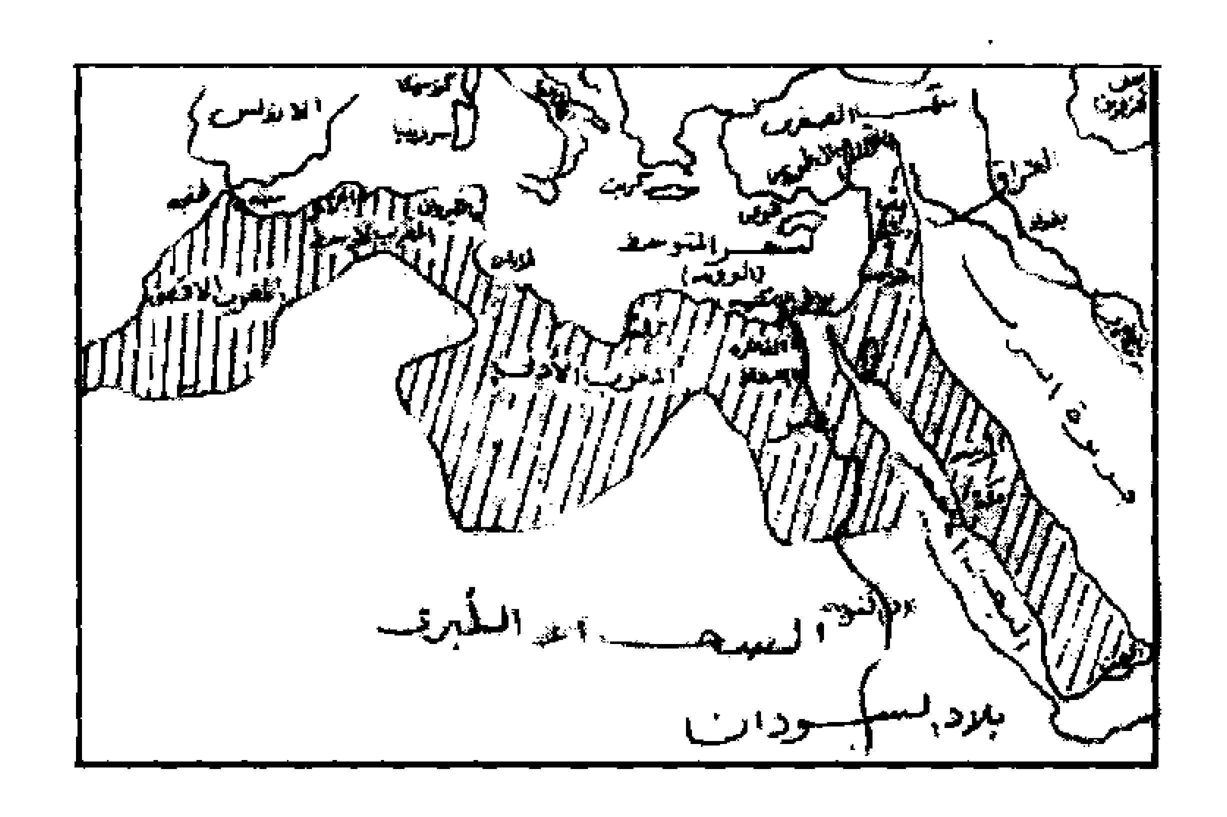
الحدود القصوى لإمارة الأدارسة

(نقلاً عن الموسوعة العسكرية ح2 ط1، بيروت-1975)



الحدود القصوى لإمارة الأغالبة

(نقلاً عن الموسوعة العسكرية ح2 ط1، بيروت-1979)



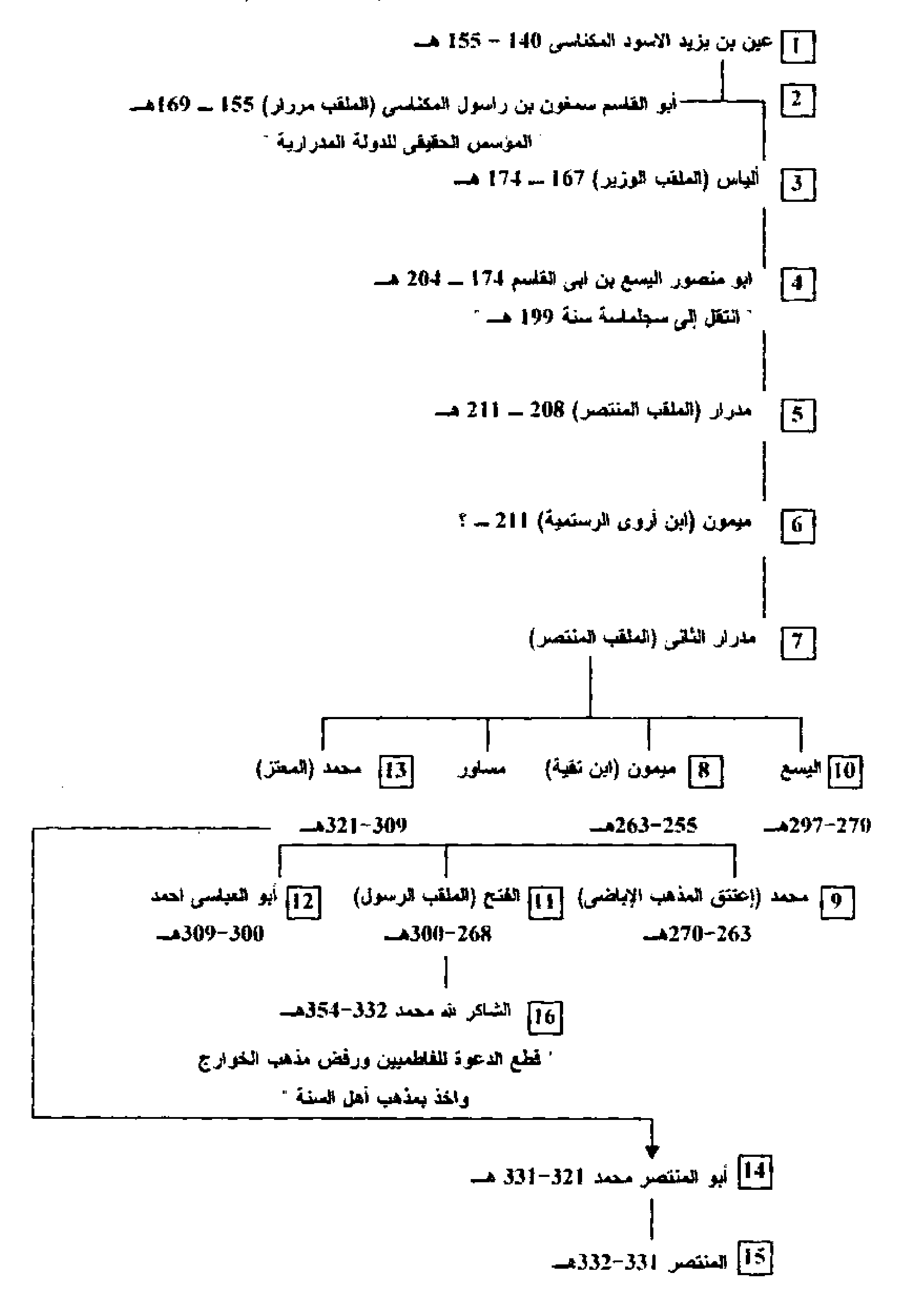
حدود الدولة الفاطمية فى أقصى أتساعها

(نقلاً عن الموسوعة العسكرية ج2 ط1، بيروت- 1979)

شجرات النسب والسلالات الحاكمة

1. بنو مدرار 140-354هـ/757-965م
2. الرستميون 144-283هـ/761-947م
3. الأدارسة 172 -375هـ/
4. الأغالبة 184- 296هـ/
5. الفاطميون 297-541هـ/909-1171م
6. المرابطون 448-541هـ/1056-1147م
7. الموحدون 524 -667هـ/

بنو مدرار 140-354هـ/757-965م



الرستميون144-283هـ/761-947م

1 عبد الرحمن بن رستم 144-171هـ
مؤسس الدولة الرستمية وباني مدينة تاهرت، بريع سنة 160 هـ

ابو الخطاب عبد الاعلى بن سمح المعافري اليمني
140-144 هـ(سقطه العباسيون فلم تقم دولته)

2 عبد الوهاب 171- 211هـ

3 افلح 211-240هـ

4 ابو اليقظان محمد 240-281 هـ

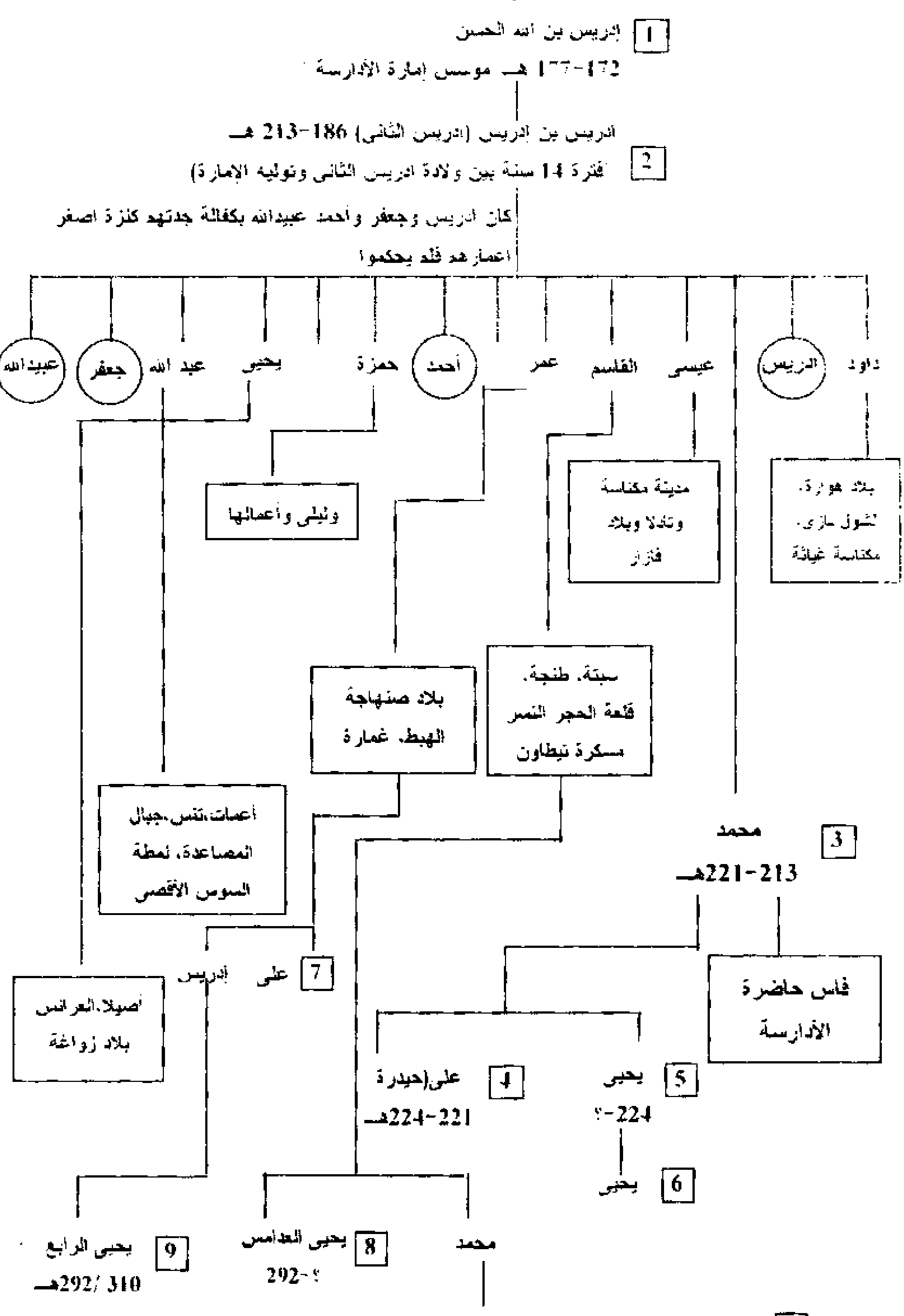
5 ابو حاتم يوسف 281-294هـ

6 ابو اليقظان بن أبي اليقظان 294-294 هـ

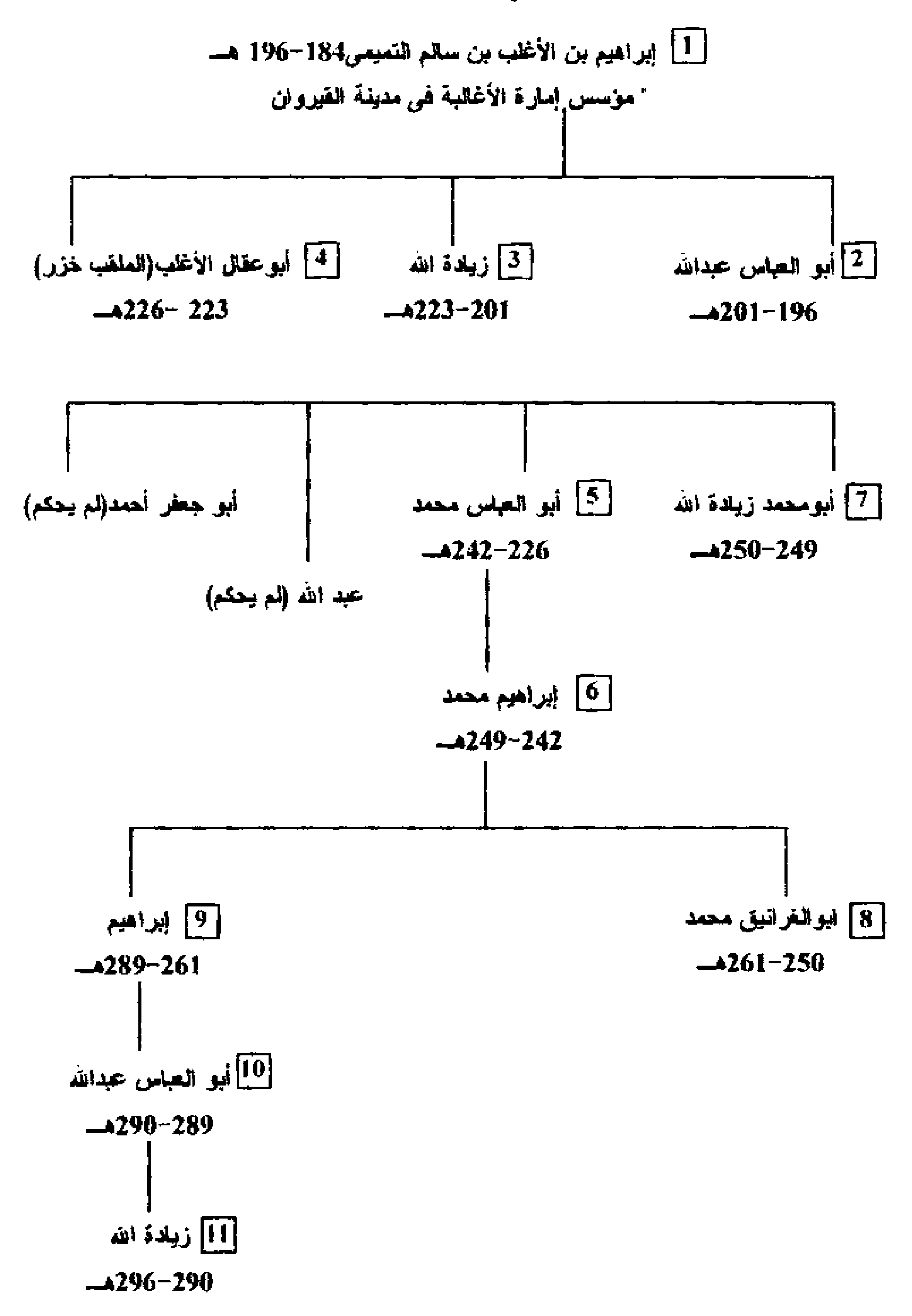
فترة حكم الفاطميون الدولة الرستمية 294-316 هـ

7 أبو اليزيد (صاحب الحمار، وهو إباضي نكاري قادم النفوذ الفاطمي ودعى للأمويين الأندلس)

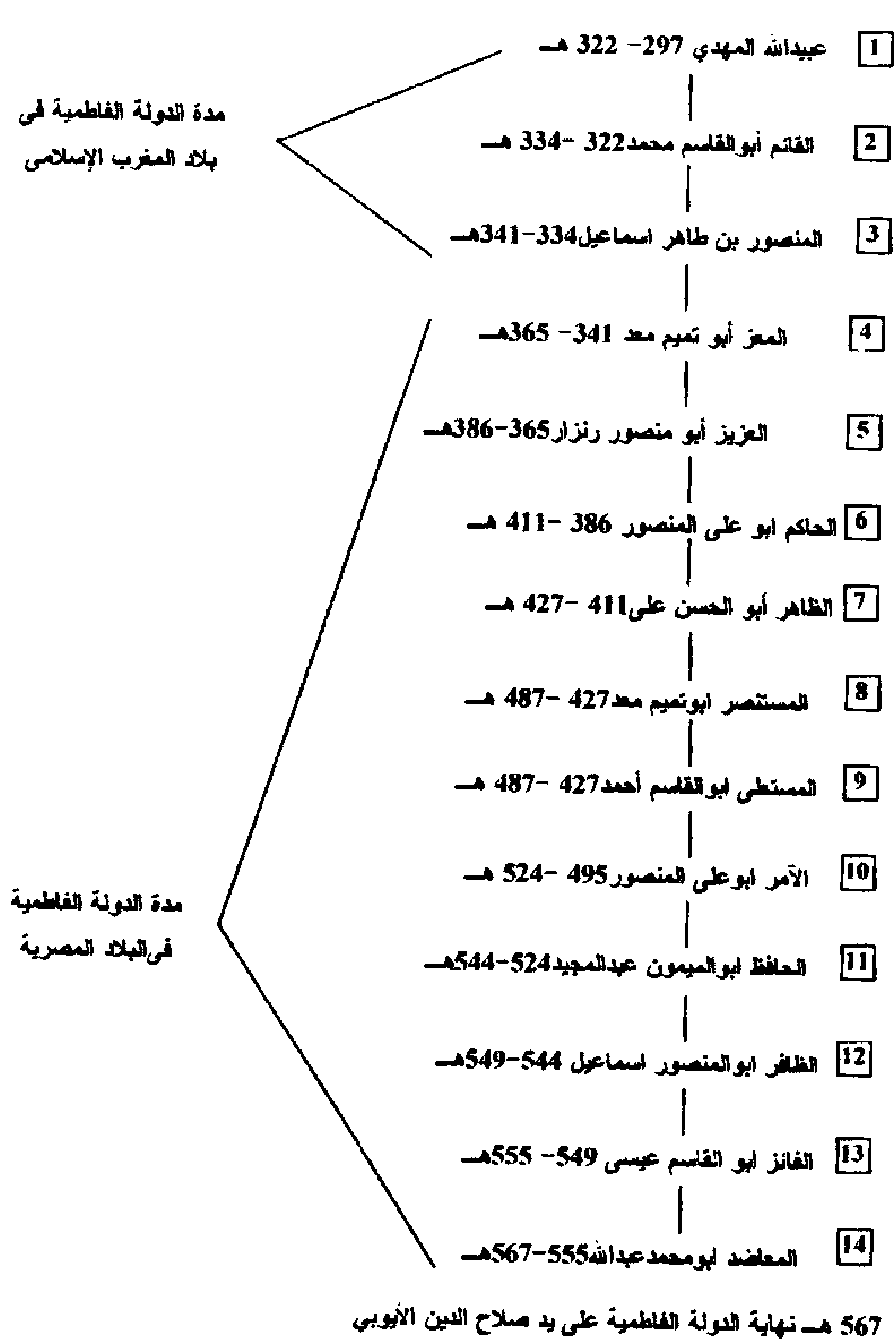
الأدارسة 172 –375هـ



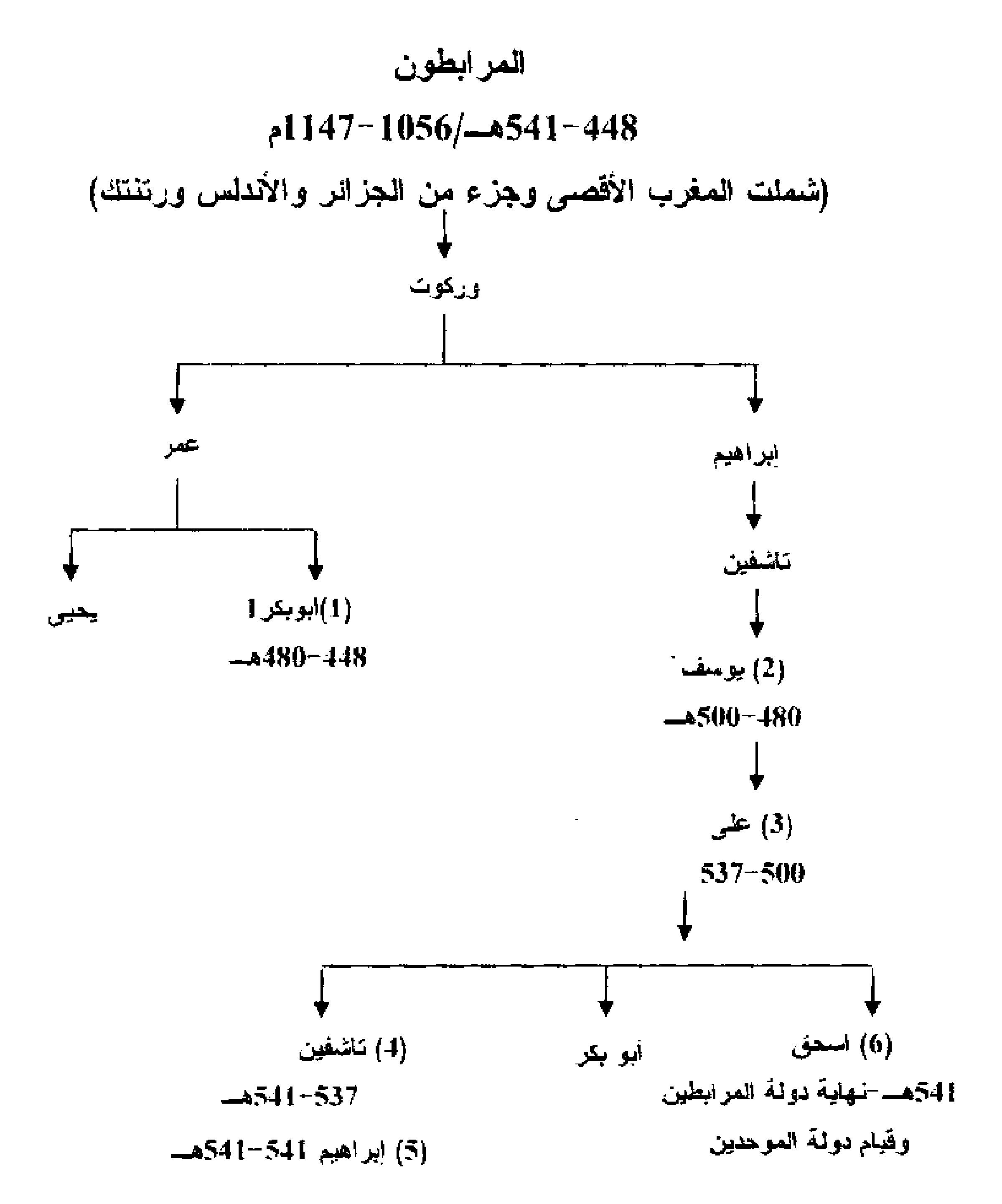
الأغالبة 184-296هـ

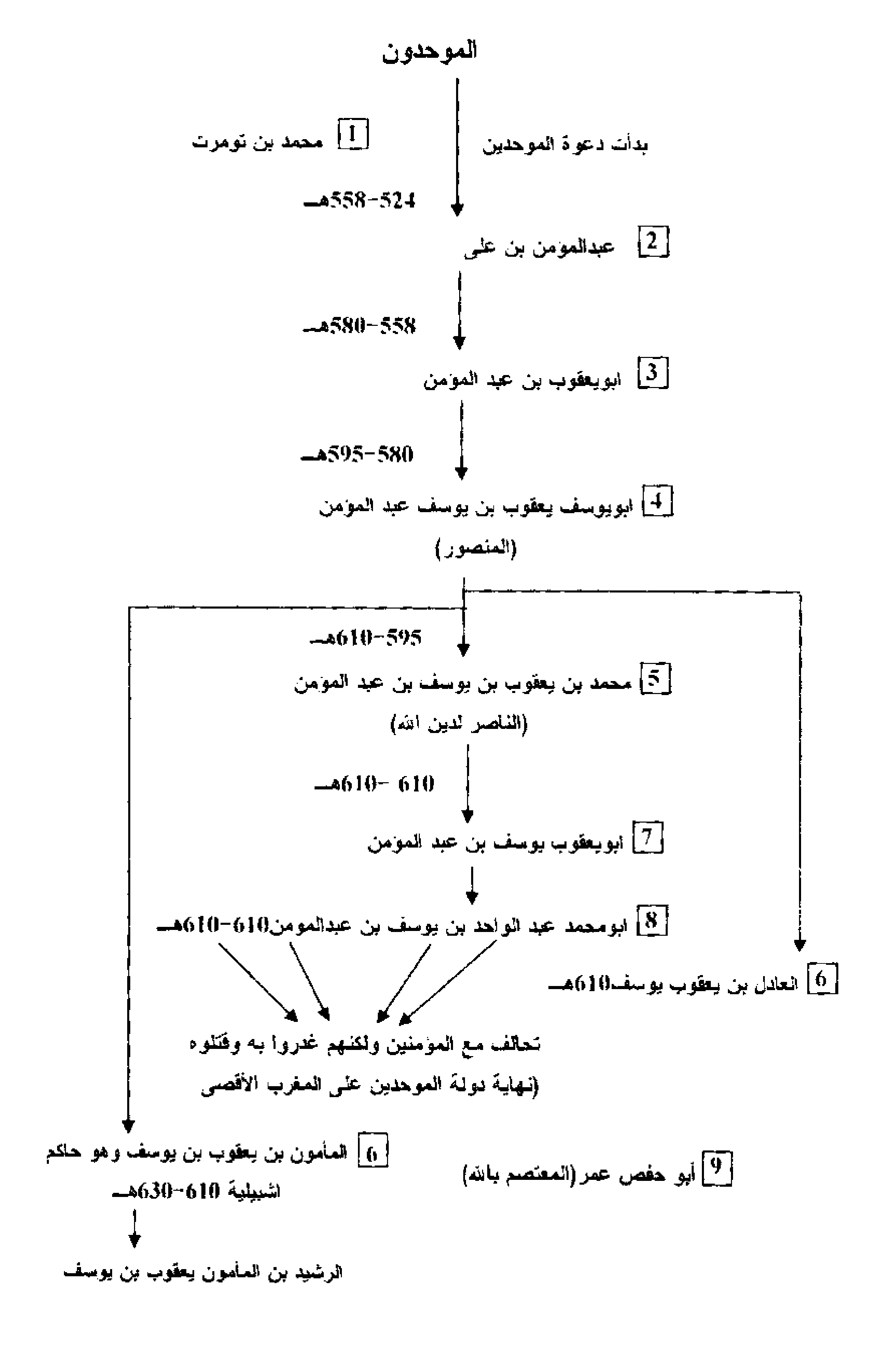


الفاطميون 297-541هـ/909-1171م



567 هـ نهاية الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي


المرابطون
448-541هـ/1056-1147م
(شملت المغرب الأقصى وجزء من الجزائر والأندلس ورتنتك)
وركوت
عمر
ابراهيم
تاشفين
يحيى
(1)ابوبكر 1
448-480هـ
(2) يوسف
480-500هـ
(3) على
500-537
(4) تاشفين
537-541هـ
(5) ابراهيم 541-541هـ
ابو بكر
(6) اسحق
541هـ-نهاية دولة المرابطين
وقيام دولة الموحدين


الموحدون
بدأت دعوة الموحدين
1 محمد بن تومرت
524-558هـ
2 عبدالمومن بن على
558-580هـ
3 ابويعقوب بن عبد المومن
580-595هـ
4 ابويوسف يعقوب بن يوسف عبد المومن
(المنصور)
595-610هـ
5 محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المومن
(الناصر لدين الله)
610 -610هـ
7 ابويعقوب يوسف بن عبد المومن
8 ابومحمد عبد الواحد بن يوسف بن عبدالمومن610-610هـ
6 العادل بن يعقوب يوسف610هـ
تحالف مع المؤمنين ولكنهم غدروا به وقتلوه
(نهاية دولة الموحدين على المغرب الأقصى
6 المأمون بن يعقوب بن يوسف وهو حاكم
اشبيلية 610-630هـ
9 أبو حفص عمر (المعتصم بالله)
الرشيد بن المأمون يعقوب بن يوسف

قبائل المغرب الإسلامى

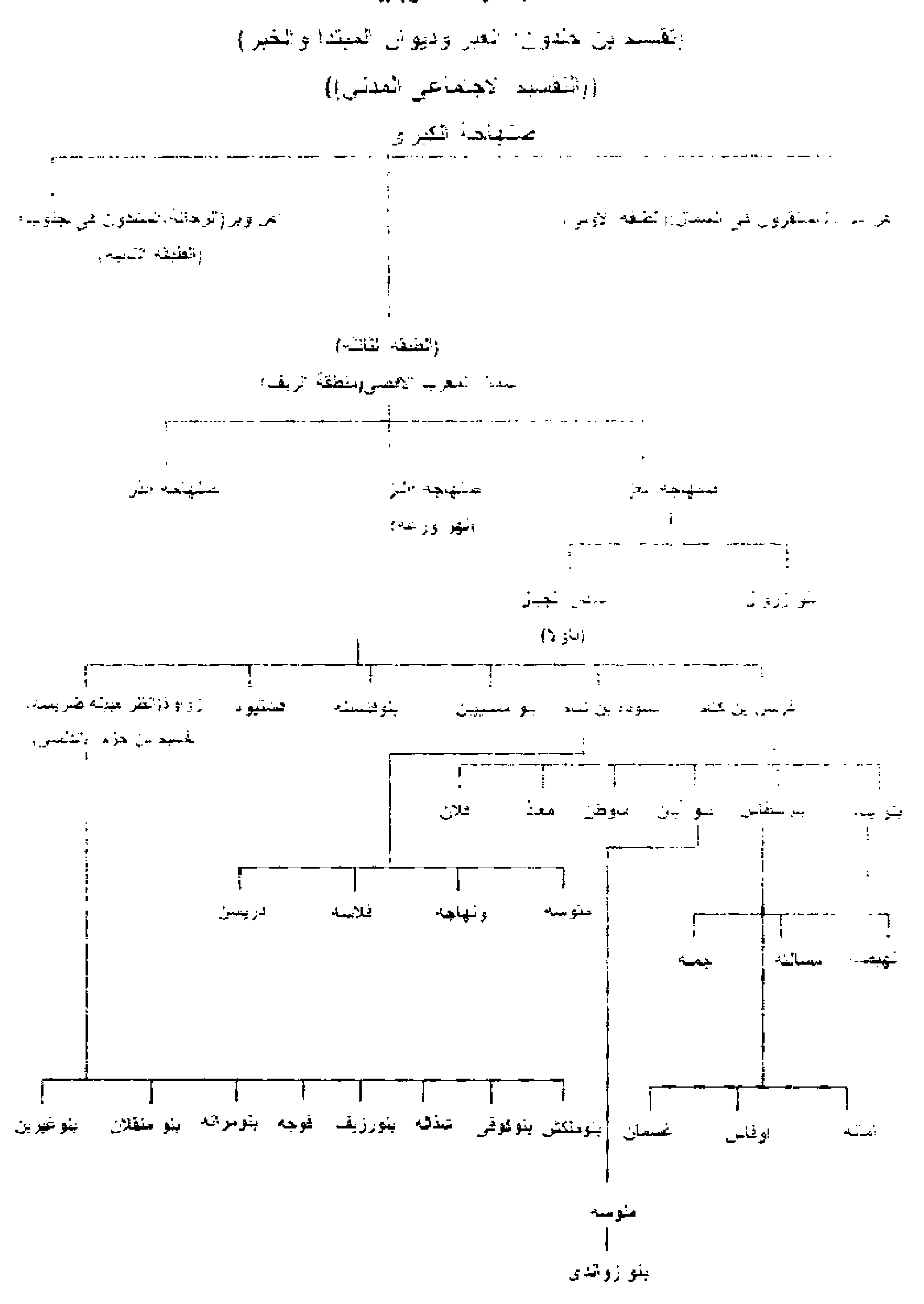
1- تقسيم ابن خلدون "التقسيم الإجتماعى المدني"

" كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر) "

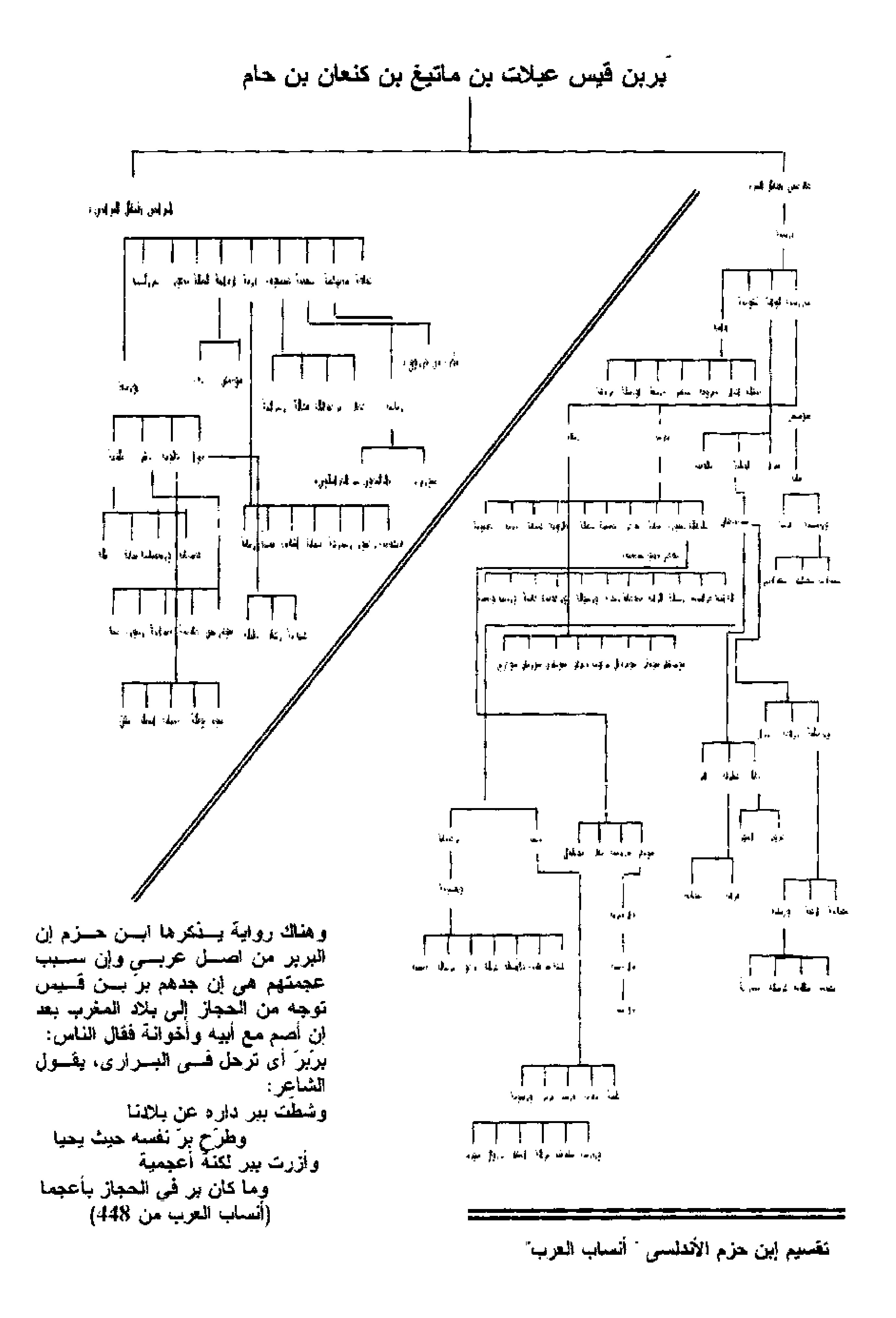
2- تقسيم ابن حزم الأندلسي "التقسيم العام"

" كتابه (أنساب العرب) "

القبائل المغربية



برّ بن قيس عيلان بن ماتيغ بن كنعان بن حام



وهناك رواية يـذكرها ابـن حـزم إن البربر من اصـل عربـي وإن سـبب عجمتهم هي إن جدهم برّ بـن قـيس توجه من الحجاز إلى بلاد المغرب بعد إن أصم مع أبيه وأخوانه فقال الناس: برّبرّ أي ترحل فـي البـراري، يقـول الشاعر:

وشطت ببر داره عن بلادنا
وطرّح برّ نفسه حيث يحيا
وأزرت ببر لكنة أعجمية
وما كان بر في الحجاز بأعجما
(أنساب العرب من 448)

تقسيم إبن حزم الأندلسي "أنساب العرب"

الملاحق

1- الملحق الأول "كتاب الخليفة العباسى،المستظهر بالله إلى معز الدولة".

2- الملحق الثانى "بنو عبد الحق".

3- الملحق الثالث "كتاب المعتمد بالله يستصرخ يوسف بن تاشفين أمير المرابطين"

4- الملحق الرابع "كتاب أبى يعقوب يوسف بن تاشفين إلى أبى القاسم ابن عباد".

5- الملحق الخامس "من وثائق الموحدين".

الملاحق

الملحق الأول

كتاب الخليفة العباسى المستظهر بالله، إلى معز الدولة العباسية وزعيم جيوشها المغربية على يد يوسف بن تاشفين احسن الله توفيق:

أما بعد:

فالحمد لله مقدم على كل مقال، ونال كل فعال، وهو ذو المن والأفضال الكبير المتعال. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد المؤيد بالتنزيل الذى كشف عن الأمة الغمة واستنقذ من الظلالة الأمة. وحمى به من المحارم ما كان مباحا واقترح به من القلوب زنادا اورى بعدما كان شحاحا وأليس الدين بعدما كان بالعراء من البسيطة جناحا وعلى أزواجه وذريته ما عقب مساء صباحا وخص العباس بن عبد المطلب عم النبوة ووارث الخلافة وشقيق الأبوة الميمون الظاهر الطاهر الأوائل والأواخر بالصلاة المستهلة العباد، المتصلة الإمداد ومواهب الله على أمير المؤمنين حبانس ومنانحه لديه كوامل نفانس وجناب الإسلام مريع وباع الحق وسيع ورياض العدل اريضة وعيون الحق عريضة ونظرة للرعايا على ما تقتضيه قصدها ومرادها ويقل عنهم شبا الأيام إذا رهف حدها والنصر لراتبه ألف والظفر لجيوشه حلف، وأعدائه للسيوف حصائد وللحقوف طرائد – وشكره لله تعالى ما ولاد شكر مؤذن بالمزيد وشاهد بصنع لا يبيد.

وعرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك، الموضح الإخلاص، السرية المطبوعة بطبائع الدين، المعربة عن تمسك بطاعته بحب الله المتين، الهاطلة سحائبها من سماء سيرتك، المضيئة مصابيحها من إخلاص طريقتك وأما ما نهيته من توفير الأجناد ومثابرتك على الجهاد ولدفع ادناس الكفرة فيما يليك من البلاد فانك وطائفتك من حزب الله (وحزب الله هم الغالبون) فاتخذ التقوى عما ذلك والحق منارك وكتاب الله وسنة رسوله شعارك وتجرد للدفاع عن الإسلام والمسلمين وحطم معارك فى نحور أعداء الله الكافرين وأعلن بالدعاة لأمير المؤمنين على المنابر، تكن الظافر بالأعداء والظاهر، والسلام عليك وعلى من قبلك من أهل

الطاعة سلام يهديكم إلى المقام المحمود ويكنفكم بظل الرحمة الممدودة ورحمة الله وبركاته.

"نقلا عن كتاب: الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية" لمؤلف أندلسى من أهل القرن الثانى عشر الهجرى (تحقيق د. سهيل زكار والأستاذ عبد القادر رزامه/ دار الرشاد الحديثة – الدار البيضاء –الطبعة الأولى 1979 / ص 87-88)

المحلق الثاني

"بنو عبد الحق "

منهم من درج ومنهم من عز وخلف

قال الفقيه الكاتب أبو على المليانى: يرجع نسبهم إلى بنى مرين ،وبنو ملاين يرجعون إلى زناته وزناته من أولاد جنان يحيى بن ضريس بن زحيك ابن عتلان ،وقد كان جماعة من العلماء ممن له اعتناء بهذا الشأن ينسبونهم لبر بن قيس المذكور واجاز كتابه انهم عرب صرحاء وانما تبربروا بالمجاورة والمخالطة للبربر قال ابن رشيق : ان البربر باجمعهم من ولد جالوت، إلا قبيلتى صنهاجة وزناته فانهما ينتسبان الى حمير .

أصل بنى مرين من أحواز تلمسان، قاعدة المغرب الأوسط ودار مملكة زناته على قديم الزمان – وكان وطنهم ما بينها وبين تاهرت من شرقها يجاورهم فى السكنى من زناته بنو يغمراس وبنو تجين وبنو مغراوة وبنو راشد، وغيرهم وكان غالبهم الفرسان.

قال ابن رشيق: اصل زناته من الشام وكانت دارهم بفلسطين وملكها جالوت فلما قتله داود عليه السلام جاءت البربر الى المغرب فانتشروا الى السوس الأقصى– وقد وقع ذكر البرابر فاشير الى طرف من أصول أنسابهم من جهة زناته وغيرها على جهة الانتصار.

وأعياض البربر هم: هوارة ومغلية وضرية ومغراوة وبنو يفرن وبنو مريع وسدداته ومسطاسة وملزوزة ونفرة وبنو غجدامة وولهاصة ولواته ومديونه ومطماطة وكتامة ومزاته ولمطة ومديونة وعجيسة ومكناسة وزواوة وصدفورة

وزهيلة ومسادة وزواجة ومغرة ومصمودة وغمارة وبنوزروال وبنو سعيد وبنو سنجوم وبنو يازين وينو خالد وبنو مرموشة وبنو شراحيل وبنو رتجين ولماية وغير هؤلاء هم بطون كثيرة وتفرعوا تفريقاً عريضاً، ليس هذا الموضوع محل بسط القول، وتقصى الأنباء، إنما بنى فيه على الاختصار واطراح التطويل.

نقلا عن كتاب: الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية المؤلف أندلسى مجهول من أهل القرن الثانى عشر الهجرى / ص 185-186).

الملحق الثالث

كتاب المعتمد بن عباد يستصرخ يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، فمن إنشائه وخطه ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

إلى حضرة الإمام، أمير المسلمين وناصر الدين محى دعوة الخليفة الإمام أمير المسلمين أبى يعقوب يوسف بن تاشفين.

من القائم بعظيم إكبارها الشاكر لإجلالها المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها اللائذ مجرمها المنقطع الى سمو مجدها المستجير بالله وبطولها محمد بن عباد.

سلام الله الكريم يخص الحضرة العلية المعظمة السامية ورحمة الله وبركاته. وكتب المنقطع الى كريم سلطانها من اشبيلية غرة جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وأربعمائة وانه أيد الله أمير المسلمين ونصر به الدين، إنا نحن العرب فى هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا وتغيرت أنسابنا بقطع المادة عنا من معيننا، نصرنا شعوباً لا قبائل ، وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر ، فقل ناصرنا وكثر شامتنا وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين ادفنش وأناخ علينا بكلكله ووطئنا بقدمه واسر المسلمين واخذ البلاد والقلاع والحصون ، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه ، ولو شاءوا لفعلوا ، إلا ان الهواء منهم عن ذلك ، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال – وأنت أيدك الله ملك المغرب

أبيضه وأسوده وسيف هندي ومنكبها الأكبر وميرته ورمحها ونزعت بوهني إليك واستنصرت بالله ثم بك واستعنت بحرمكم للجهاد في جهاد هذا العدو الكافر وتحيوا شريعة الاسلام والذبو عن دين محمد عليه الصلاة والسلام ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم والأجر الجسيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم والسلام الكريم على حضرتكم السامية ورحمة الله وبركاته

الملحق الرابع

كتاب ابي يعقوب يوسف بن تاشفين الى ابي القاسم بن عباد

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

من امير المسلمين وناصر الدين محيي دعوة امير المومنين الى الامير الاجل المؤيد بنصر الله المعتمد على الله ابي القاسم بن عباد ادام الله كرامته بتقوى الله ووفقه لما يرضاه.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فانه وصل خطابكم المكرم، فوقفنا على ما تضمنه من استدعاء لنصرتك وما ذكرته من كربتك وما كان من قلة حماية جيرانك فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك وواجب علينا ذلك من الشرع وكتاب الله تعالى وانه لا يمكننا الجواز الا ان تسلم لنا الجزيرة الخضراء تكون لنا لكي يكون جوازنا اليك على أيدينا متى شئنا فان رأيت ذلك فاشهد به على نفسك وابعث الينا بعقودها ونحن في اثر خطابك ان شاء الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نقلا عن كتاب: الحلل الموشية في الأخبار المراكشية لمؤلف أندلسي مجهول من أهل القرن الثاني عشر الهجري.

الملحق الخامس

من وثائق المرتضى

رسالة الخليفة الموحدي المرتضى لأمر الله إلى البابا انوسنت الرابع انوصان الرابع مؤرخة في 648 هـ (1249م)

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله وحده من عند الله عمر المرتضى لأمر الله أمير المؤمنين ابن سيدنا الأمير ابراهيم أمير المومنين ايدهم الله تعالى بنصره وأمدهم بمعونته إلى عظيم أمة النصرانية ومعظم عظماء الأمة الرومية وقيم الملة المسيحية ووارث رياستها الدينية البابا إنه سان [illegible] أنار الله تعالى بصيرته [illegible] وجعل التقوى لله عز وجل يهدي خلته [illegible] ومعاده وذلك من سبق الهداية [illegible] أقصى الغاية. بسط الله فسحاته [illegible] تحية كريمة [illegible] عن تحياتكم الواردة عليه وبترجم لكم [illegible] به البر [illegible].

أما بعد فإنا نحمد الله الذي لا إله إلا هو حمد من علم انه الرب الواحد الذي دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد، ونزهته العقول الراجحة عن ان يكون له ولد أو يدعى انه الوالد تعالى الملك الرحمن عما يقول المثلث والمشبه والجاحد. ونصلي على سيدنا محمد ورسوله المصطفى الكريم الذي وضحت به للنجاة المذاهب والمقاصد وخرقت له بالظهور المعجزات الباهرة على يديه العوايد ونصر بالرغب فألقى له يد الاستلام كل من كان ينادى ويعاند وعلى آله وصحبه الكرام الذين ازدادت بهم المحاضر والمشاهد ووصلت صوارمهم في مواقف الحروب السواعد وأنجزت لهم في استيلاء الإسلام على مشارق الأرض ومغاربها المواعد ونسئل الله عز وجل رضاه عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم الذي جذبه لدين الله تعالى الشباب المعاود وأهلت بهدايته بعد إقفارها المعاهد وباى بالخسران المخاتل لأمره والمكايد وعن الخلفاء الراشدين المهتدين الذين تولى فهم

إتمام بدايته الإمام الراشد فالراشد وعلت بهم لأمر الله تعالى المراقى والمصاعد وعن سيدنا الأمير الطاهر أبى إبراهيم بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين الذى طابت منه العناصر و المماتد واشتق من نبعه الخلافة من أوراق نضارة وعفناره فنتها المائد، وزهد فى الدنيا الفانية ورغب فى الأخرى الباقية فنعم الراغب الزاهد.

وبعد كتابنا، كتب الله تعالى لنا حظوظاً من رضاه تزكو وتتوفر واستعملنا وإياكم بكل ما تهيأ به لإحراز الفوز لديه ويتيسر من حضرة مراكش حرسها الله تعالى ودين الله عز وجل عال مسماه ومصعده والتوحيد حال بالظهور جيده ومقلده والسعي معمل فى ابتغاء من الله تعالى موفقه وسدده والحمد لله رب العالمين حمداً يتوالى على الألسنة تكرره وتردده ونستدعى به من مزيد النعماء أفضل ما وعد به تعالى من شكره ويحمده والى هذا يسر الله تعالى بتوفيقه إسعادكم وجعل فى طاعته التى تعبد بها خلقه إصداركم وإيرادكم فانه سبقت منا إليكم مراجعات عن كتبكم المؤثرة الواصلة إلينا وأرسلنا نحوكم من الجواب عنها ما تممنا به بركم ووفينا عرفانكم أنا نوجب لمنصبكم الذى ابرز فى ملتكم على المناصب واقر لرتبتكم فيه أهل دينكم بالشغوف على ما نر مالهم من المراتب فأنتم عندنا لذلكم بالتكرمة الخصيلة ملحوظان وبالعناية الجميلة محظوظون نؤكد من أسباب المواصلة لكم ما حقه ان نؤكد ونجدد من عهود الحفاة يتم ما شأنه ان يجدد ونشكر لكم ما توالى علينا من حسن إيثاركم لجانبنا وتردد وفى سالف هذه الأيام انصرف عن حضرة الموحدين أعزهم الله البشير الذى كان قد وصل بكتابكم إلينا انصرافا لم يعده منا فيه بر وإكرام ولم يغبه فيه اعتناء به واهتمام كما انه فى المدة التى قضى له فيها لدينا بالمقام لم نزل نتعهده إثناءها بالإحسان والأنعام وتحمل كتابنا إليكم تعريضاً بما اختار من انصرافه وتوخياً فى ما آثره من ذلك لإسعافه وما قصر له فى حالي مقامه ورحيله ولا عدل به عن خفى البر على أوضح طرقه والله تعالى يرشد فى كل الأحوال لأذكى الأعمال لديه وينجد من الأقوال والأفعال على ما يقرب إليه بمنه ومتى سنح لكم أسعدكم الله تعالى بتقواه

ان توجهوا لها ولاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين أعزهم الله من ترونـــه برسم ما بصلحهم ويجر بهم على معتاد قوانينهم فتخيروه من أهل العقل الـــراجح والسمت الحق وممن يستلذ فى النزاهة على واضح السنين وممـــن يتميـــز فـــى الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن وذلكم هو الذى إذا تعين من قـــبلكم مستجمعاً للصفات المذكورة متحلياً بالخلال المشكورة حسن فى كل مـــا يســـتخدم وتسنى له بذلك اجزل الخبر وأوفره وانتم تفون بهذا المقصود فى ما تعلمون مـــن اختياركم حتى ظهر لكم التوجيه بهذا الرسم لأحد وتعتمدون فيـــه أجمـــل معتمـــد وشكرنا لكم على كل ما تذهبون إليه فى جانبنا من تمشية الأغـــراض والمـــذاهب وتحتفلون فيه من المساعدة الصادرة فيكم عن كرم الضرايب وتبادرون الى بذلـــه من المكارمة المناسبة لمالكم فى نحلتكم من أناقة المناصب مما نكافئ به صـــدق مصادقتكم ونتوخى فيه ما لا يعدل عن موافقتكم جزاء لبركم بأمثاله واعتناء بمـــا يقضى لولائكم بدوامه واتصاله بحول الله تعالى وقوته وهو سبحانه ييسر لنا لنيل الحسنى والزيادة من فضله ويأخذ ما فى ديننا ودنيانا على أقوم ســـبله ويجعلنـــا واياكم بما يمنحنا من التوفيق فى أول رعيل من حزب الحق وأهله بمنه وكرمه لا رب سواه وكتب فى الثامن عشر من شهر ربيـــع الأول عـــام ثمانيـــة وأربعـــين وستمائة"

"عن الرسالة المحفوظـــة فـــى مكتبـــة الفاتيكـــان الرســـولية برومـــه بـــرقم {A.A.1.XVIII(1802)} وهى الوثيقة الوحيدة من نوعها وعصرها التى تحتفظ بها مكتبة الفاتيكان.

فهارس الكتاب

الفهرس	صفحة

الفهرس　　　　صفحة

الباب الثالث:

تلخيص حضارة المغرب الإسلامى

هــذا الكتـــــاب

يبسط دراسة ملخصة لبعض جوانب الجزء الغربي من العالم الإسلامي، الــذي ولد في بداية القرن الاول الهجري، الربع الاول من القرن السابع الميلادي. ولعــل هذه الدراسة تثير رغبة وربما عما لدى المختصين فيه لتقديم صورة أكثر تفصيلا ووضوحا. ويمكن قراءة الكتاب بأبوابه الثلاثة وفصوله الثلاثة عشر بما يتضـــمنه عن احوال المغرب العامة، الجغرافية، الفتوح الإسلامية وقيام الإمــارات والــدول وتلخيص لحضارته الفكرية والثقافية ونظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية.
لقد تسلح الكتاب بعدة من المصادر والمراجع الواسعة والمتنوعـــة وخلــص مـــن خلالها الى نتائج مهمة نعلها تعين القارئ على التحقق من معنا فيه وبذلك فإن هذا العمل الذي اتسم بالموضوعية والتوثيق والمنهجية التاريخية وكذلك بالتبسيط غير المخل بعروضه يجعل هذا الكتاب بمتناول كل قارئ مهما كانت عموميـــة معارفـــه حول تاريخ المغرب المتصل بمضمونه.